تحفة الأتقياء
بسلوك الأتقياء

تأليف

أ.د. علي بن سعد الضويحي

دار ابن الجوزي

تحفة الأتقياء

بسلوك الأتقياء

تأليف

أ.د. علي بن سعد الضويحي

بسم الله الرحمن الرحيم

تحفة الأتقياء

بسلوك الأتقياء

جَمِيعُ الحُقوق محفُوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٢٥هـ لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر

دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية: الدمام. شارع ابن خلدون. ت: ٨٤٢٨١٤٦ . ٨٤٦٧٥٨٩ . ٨٤٦٧٥٩٣،
ص ب: ٢٩٨٢ . الرمز البريدي: ٣١٤٦١ فاكس: ٨٤١٢١٠٠ . الرياض. ت: ٤٢٦٦٣٣٩ . الإحساء . الهفوف
. شارع الجامعة . ت: ٥٨٨٣١٢٢ . جدة . ت: ٦٥١٦٥٤٩ . ٦٨١٣٧٠٦ . بيروت . هاتف: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
. فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١ . القاهرة . ج.م.ع . محمول: ٠١٠٦٨٢٣٧٨٣ . تلفاكس: ٠٢٢٥٦١٤٧٣
البريد الإلكتروني: aljawzi@hotmail.com - www.jwzi.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي وفق أولياءه لسلوك سبيل النجاة، والصلاة والسلام على الرحمة المهداة والنعمة المسداة محمد بن عبد الله، وعلى آله وأصحابه ذوي الرفعة والجاه، وعلى أتباعه بإحسان، ومن والاه، أما بعد:

فإن لله تبارك وتعالى عباداً أتقياء اصطفاهم لسلوك طريق الأنبياء، وجعلهم مشاعل للأنام تبدِّد عنهم غياهب الظلام، بما حباهم به من نور البصائر وسلامة السرائر، وبما منَّ به عليهم في الدين من محبة الاتباع وبغض الابتداع، فهم بمنهج ربهم سبحانه ملتزمون، وعلى هدي نبيهم محمد ﷺ سائرون، فكانوا بذلك كله أهلاً لأن تُزيَّن بصفاتهم المصنفات، وأن تُعطَّر بسلوكياتهم المؤلَّفات، لتكون تلك الصفات والسلوكيات التي تحلَّى بها أولئك الأبرار الأتقياء تحفة إيمانية تُهْدَى بكل الحب والوفاء إلى الأطهار الأنقياء ممن سَمَوْا بأنفسهم عن دركات الرذيلة إلى أعلى درجات الفضيلة.

لذا فقد عقدْتُ العزم ـ مستمداً العون من الله الوهاب ـ على تأليف هذا الكتاب الذي أسميته: (تحفة الأنقياء بسلوك الأتقياء)، عرضت فيه كثيراً من السلوكيات العظام عَرْضاً أشبه ما يكون برؤوس الأقلام، من غير سعي حثيث إلى بَسْطِ الحديث، إذ المقصود من تأليف هذا الكتاب تذكير أولي الألباب بما يجب عليهم من التحلي بسلوك أصحاب الإيمان وأرباب العرفان من عباد الله المتقين المقتدين برسول رب العالمين الذين لم تزغ بهم الأهواء، ولم تنحرف بهم السبل الهوجاء.

واللهَ تعالى أسألُ أن يكون هذا الكتاب سفراً حائزاً على القبول لديه، وأن يجعله سبباً لنجاة مؤلفه وقارئيه من الخزي يوم القدوم عليه، إنه سبحانه أعظم مسؤول وأكرم مأمول.

❋ ❋ ❋

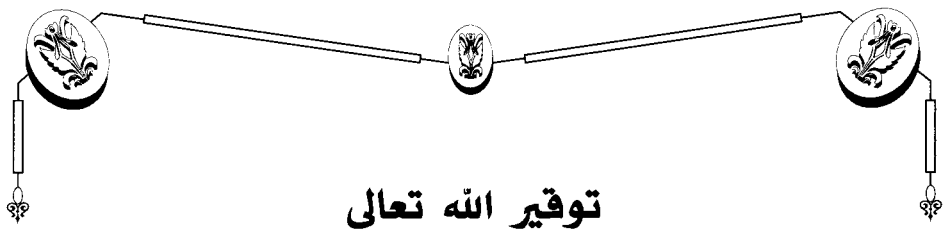

توقير الله تعالى

يخاطب نبي الله نوح عليه السلام قومه الكفرة المتمردين على أوامر الله تبارك وتعالى، يخاطبهم في معرض التوبيخ لهم وفي مقام الإنكار عليهم فيقول ما ذكره لنا الحق جل شأنه في كتابه الكريم: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ [نوح].

أي: ما يمنعكم من توقير الله تبارك وتعالى، وما يحول بينكم وبين تعظيمه وإجلاله وإكباره وتقديسه وهو الذي خلقكم حين مَنَّ عليكم بالإنشاء من العدم إلى الوجود في أطوار مختلفة حتى كنتم بشراً أسوياء تعيشون على ظهر هذه الأرض، وتتمتعون فيها بنعم الله تبارك وتعالى التي لا تعدُّ ولا تحصى، فأصبح لكم فيها مقام ومستقر إلى حين، بعد أن لم تكونوا شيئاً يُذكر على الإطلاق، كما قال الحق جلت قدرته في معرض الامتنان على الإنسان بنعمة الخلق والتكوين والإيجاد: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ [الإنسان].

إن نبي الله نوحاً عليه السلام حين يذكِّر قومه الذين بُعث فيهم بهذا الواجب الشرعي العظيم وهو (توقير الله تبارك وتعالى) إنما أراد بذلك أن يحررهم من ذل العبودية لأحد سوى الله جل شأنه إلى عز الانقياد له وحده بصدق الخضوع لشرعه وحُسْن العمل بمنهجه، فذاك هو الترجمان الحقيقي لشكر المنعم تبارك وتعالى على ما تفضّل به عليهم وعلى غيرهم من نعمة الخلق والإيجاد، كما أفصح عن ذلك الحق تبارك اسمه بقوله: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤] عبادةً تحمل صاحبها على أن يتقي ربه جل شأنه حق التقوى بأركانها الثلاثة العظيمة،

وهي: أن يُطاع فلا يُعْصَى، وأن يُذكر فلا يُنْسَى، وأن يُشكر فلا يُكْفَر.

إن خطاب نبي الله نوح عليه السلام لقومه بتوقير الله تبارك وتعالى هو خطاب للأمم جميعاً إلى أن يرث الله عز وجل الأرض ومن عليها، باعتباره أول الرسل والنبيين عليه وعليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم، ليعرفوا بذلك حق ربهم عليهم وعظم إحسانه إليهم. وذلك (التوقير) للإله العظيم الكريم المنان لا يكون إلا حين يستشعر العبد في قرارة نفسه وفي أعماق قلبه بأن الله تبارك وتعالى هو المدبِّر المقدِّر، فهو الخالق وحده الذي لا خالق سواه كما قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦]، وأنه هو الرازق وحده الذي لا رازق للخلق جِنّاً وإنساً وبهائم سواه، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، وأنه وحده هو مالك هذا الكون والمتصرف فيه بقدرة بالغة غالبة لا عجز فيها ولا ضعف كما قال سبحانه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ [الملك: ١]، وأنه وحده هو الحاكم على كل شيء فلا معقب لحكمه ولا راد لقضائه كما قال سبحانه: ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠]، وأنه سبحانه هو المشرِّع وحده الذي يجب أن يخضع العباد له خضوع ذلة وانقياد، وخضوع رضا وتسليم لمقتضى ذلك التشريع من غير أن يكون مع هذا الخضوع نصيب من حظوظ النفس والهوى والمزاج، كما قال سبحانه لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ۝٦٥﴾ [النساء].

إن الغفلة عن هذا الشعور الإيماني هي التي توقع صاحبها في الإعراض عن (توقير الله) تبارك وتعالى، ومن هنا يعيش في هذه الحياة لا يعبأ بحرمة دين، ولا يبالي بارتكاب أي محرَّم من محرمات الشرع صغُر أو كبُر، ولا يرعى حقوقاً ولا واجبات، بل يكون عبداً لأهواء نفسه ونزغات شيطانه، يعبُّ من الشهوات عبّاً، ويتخذ الدين لهواً ولعباً، فهو بهيمة في صورة إنسان، بل إنه قد سفل بنفسه إلى أقل من درجة البهيمة، كما قال مَنْ خلق ويعلم مَنْ خلق سبحانه: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ

يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ [الفرقان].

إذاً لا بد من أن يستشعر كل فرد منا عظمة الله تبارك وتعالى صاحب القوة والجبروت والعزة والملكوت، حتى تمتلئ قلوبنا توقيراً لجلاله وتقديراً لكماله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ [الزمر].

* * *

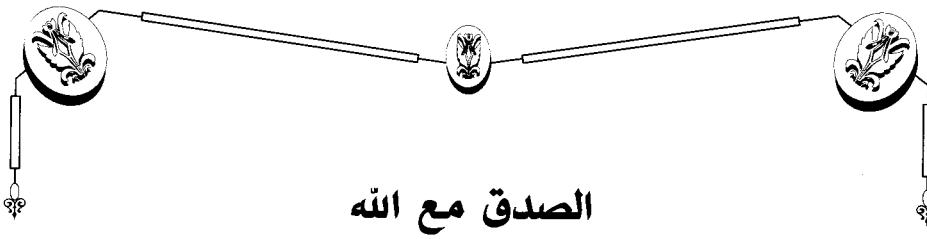

الصدق مع الله

خُلِّف الصحابة الثلاثة الكرام رضي الله تعالى عنهم عن غزوة «تبوك» مع رسول الله ﷺ، وهم: مرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، وكعب بن مالك، ليس بغضاً في الإسلام أو رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام، وليس حباً في تخذيل المسلمين وصدهم عن الجهاد في سبيل الله تبارك وتعالى كما هو حال المنافقين، ولكن كان تخلفهم عن تلك الغزوة إيثاراً منهم للراحة على المشقة، وهذا ما صرحوا به للنبي ﷺ بعد عودته حين عاتبهم على قعودهم عنه من غير أن يصطنعوا أعذاراً واهية ملفقة هي إلى الكذب أقرب منها إلى الصدق، لعلمهم الجازم - بدافع إيمانهم الحق - بأن الله تبارك وتعالى مُطَّلِعٌ على سرائرهم، ومحيط علماً بواقع حالهم، فكان صدقهم مع الله جل شأنه ومع رسوله ﷺ هو طوق النجاة لهم من خزي الدنيا بالفضيحة ومن عذاب الآخرة في النار، وكانت نتيجة هذا الصدق المنبعث من قوة الإيمان وسلامة العقيدة أن أنزل الله تبارك وتعالى توبته عليهم في قرآن يُتْلى إلى يوم القيامة ليكونوا نماذج يُحْتَذَى بهم في صدق التعامل مع الله جلَّ شأنه في كل زمان ومكان، وفي ذلك يقول ﷻ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [التوبة].

وبعد أن أعلن الحق تبارك وتعالى توبته عليهم فقد أمر عموم عباده المؤمنين بالصدق معه في جميع أقوالهم وأفعالهم، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة]، أي: حتى تتحقق لكم النجاة من خزي الدنيا وتكونوا من الفائزين برضوان الله تبارك وتعالى يوم القيامة، مصداقاً لقوله سبحانه: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ [المائدة].

نعم إن للصادقين مع ربهم تبارك وتعالى جنات تجري من تحتها الأنهار، لأن الصدق يهدي إلى البر، ذلك البر الذي بيَّنه الحق سبحانه بقوله: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة].

وإذا كان الصدق يهدي إلى البر، فإن البر طريق إلى الجنة كما في المتفق عليه من حديث ابن مسعود رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يُكتب عند الله صدِّيقاً».

وإذا كُتب الرجل بتحريه الصدق عند الله تعالى صدِّيقاً فسوف تكون منزلته حينئذٍ مع الذين قال الله تبارك وتعالى فيهم: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء]. نعم هو سبحانه العليم بأهل الجنة فيهديهم إلى ما يؤهلهم لدخولها من الأقوال والأعمال، كما قال تعالى في صفاتهم: ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحج].

ومما هُدوا إليه من القول الطيب والعمل الصالح الصدق مع الله تبارك وتعالى، فهو دليل الإيمان الحق، وبرهان المعتقد الصحيح، إذ الإيمان

الحق والمعتقد الصحيح إذا استقرا في القلب ظهرت آثارهما الفاضلة على الجوارح والسلوك متمثلة في أنبل الخلال وأجمل الخصال.

إن الصدق مع الله تبارك وتعالى لا بد من أن تكون بصماته واضحة كل الوضوح على سلامة النية التي هي مدار صلاح الأعمال وقبولها عند الله جل شأنه، كما أفصح عن ذلك مَنْ لا ينطق عن الهوى عليه الصلاة والسلام في حديث عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه المتفق على صحته: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى).

والصدق مع الله تبارك وتعالى لا بد من أن يكون حاملاً لصاحبه على خشية الله جل شأنه بالغيب، وعلى أنَّ الله سبحانه محيط به ومراقب له ومُطَّلِعٌ عليه، كما قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [الأحزاب].

والصدق مع الله تبارك وتعالى يربأ بالمسلم أن يستكين عن نصرة الدين إذا أصبح عرضة لسهام الملحدين بل ذلك يدفعه إلى أن يحمل روحه على كفه جهاداً واستبسالاً لا يخشى في الله تعالى لومة لائم، كما قال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]. فهذا هو برهان الصدق مع الله تبارك وتعالى كما قال جلَّ شأنه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب]، وكما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات].

والصدق مع الله تبارك وتعالى عامل تثبيت للمسلم حين تشتد الفتن والمحن فلا تلين له قناة، ولا يفتر له عزم، ولا يتطرق إليه يأس، كما قال سبحانه: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾

[العنكبوت]. ومن أعظم الصدق مع الله تبارك وتعالى الدخول إلى مرضات الله ﷻ ومحبته من خلال سلوك طريق محمد ﷺ باتباع هدية واقتفاء أثره والعض بالنواجذ على سنته، فليس لذلك طريق سوى هذا الطريق، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران].

وكل طريق سوى هذا الطريق فهو مناقض لدعوى الصدق مع الله تبارك وتعالى، لأنه تمرُّغ في وحل السبل المنحرفة التي حذر الحق تعالى منها بقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام].

إن الصدق مع الله تبارك وتعالى حقيقة لا زيف فيها، فهو ليس مجرد ادِّعاء يتفوَّه به اللسان من غير أن يكون لذلك رصيد في واقع الإنسان، بل إن الصدق مع الله تبارك وتعالى استعلاء بالإيمان الحيِّ على جميع شهوات النفس الأمَّارة بالسوء، فلا زنا، ولا ربا، ولا شُرْبٌ للخمر، ولا عقوق للوالدين، ولا قطيعة للرحم، ولا إهمال في تربية الأولاد، ولا تقصير في القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا تضييع لفرائض الملة وشعائر الدين، وإنما نقاء وصفاء، وورع والتزام، وحُسْن أدب مع الملك العلَّام في الظاهر والباطن، وفي الخلوة والجلوة.

إن الصدق مع الله تبارك وتعالى هو صمَّام الأمان لهذه الأمة من الانحراف عن منهج الله ﷻ، ويوم أن يزول ذلك الصمَّام فلا أمان ولا سلام، بل تعاسة وبلاء وشقاء.

* * *

الخشوع في الصلاة

ذَكَر الله تبارك وتعالى في بداية سورة «المؤمنون» جملة من صفات عباده المؤمنين الذين آمنوا به حق الإيمان، وأسلموا قيادهم له سبحانه حق التسليم، وجعل على رأس قائمة تلك الصفات العظيمة التي اتَّسموا بها فامتدحهم عليها «الخشوع في الصلاة» حين قال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون].

والفلاح هو الفوز الكبير في الدنيا والآخرة، أمَّا في الدنيا فبالتوفيق والتسديد والهداية إلى كل بِرٍّ وخير، بحيث تكون حياة الخاشع في الصلاة سِجِلّاً حافلاً بالأعمال الصالحة التي تجعله معتصماً بحبل الله تبارك وتعالى من نزعات النفس وشهواتها ومن نزغات الشيطان ووساوسه، فيعيش قرير العين ساكن النفس مطمئن القلب، لا يشوب لذَّة عيشه نكد، ولا يكدِّر صفو سعادته تنغيص، مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

وأما في الآخرة فسيكون مآل ذلك الخاشع في صلاته الخلود في جنة الفردوس، ينعم فيها بكل ما لذَّ وطاب من أصناف الأكل وأنواع الشراب، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولذلك فقد ختم الله تبارك وتعالى صفات أولئك المؤمنين الخاشعين في صلاتهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾ [المؤمنون].

كيف لا؟ وخشوعهم في الصلاة قد قادهم إلى التحلي بجميع صفات التقوىٰ وخصال الفضيلة التي أعقبها الحق تبارك وتعالى بعد ذِكْر صفة

الخشوع في الصلاة حين قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾ [المؤمنون].

تلك الخصال الكريمة والصفات العظيمة ثمرة مباركة من ثمار أداء الصلاة التي وصفها الحق تبارك وتعالى بقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

لكنَّ الصلاة لا تكون كذلك إلا إذا أُديت بالخشوع الذي جعله الحق تبارك وتعالى مفتاحاً لتلك الصفات الحميدة كلها.

إن الخشوع في الصلاة هو الاستحضار والاستشعار، أمَّا الاستحضار فهو: أن يجعل المصلي قلبه مستحضراً حقيقة الصلاة، وهي أنها عروج بروح المؤمن إلى الله تبارك وتعالى من حيث كونها صلة بين العبد وربه سبحانه.

وأما الاستشعار فهو أن يستشعر المصلي عظمة وكبرياء وجلالة مَنْ يناجيه ويقف بين يديه، وأنه ملك الملوك الذي بيده نواصي الخلق جميعاً تبارك اسمه وعزَّ سلطانه، وحينذاك يخشع قلبه وتسكن نفسه وتذل جوارحه لله رب العالمين ـ جلَّ جلاله ـ خوفاً وطمعاً، رغباً ورهباً، فلا يبقى لديها مجال للتفكير في شيء سواه مهما كان عظيماً، لأن عظمته قد تلاشت أمام العظيم الأعظم الذي خشعت له القلوب وذلَّت له الرقاب.

إن كثيراً من الناس يؤدي الصلاة من غير أن يكون لها تأثير كبير في واقع حياته، وما ذلك إلا لأنه مع أدائه الصلاة قد أخلَّ بلُبِّ لبابها وهو الخشوع، إذِ الخشوعُ هو الذي يحمل المصلي على أن تكون حياته ـ خارج المسجد كما هي داخل المسجد ـ مراقبة لله تبارك وتعالى، وخشية منه، ورغبة إليه، وهذا هو المؤمن الحق الذي لا يتناقض ظاهره مع باطنه.

وإن من الأسباب المعينة على الخشوع في الصلاة: أن يتأمل المصلي في كل ذِكْر من الأذكار التي يرددها في صلاته، فإذا قال: «الله أكبر» في افتتاحها عَلِمَ عِلْمَ اليقين أن الله تبارك وتعالى فوق كل كبير، وأن ما سواه صغير بالنسبة لكبريائه، فكيف يتشاغل بالصغير الذي لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً عن هذا الكبير الذي بيده ملكوت السموات والأرض وما فيهما؟.

وإذا قال في الركوع: «سبحان ربي العظيم» أيقن في قرارة قلبه ألا عظيم إلا هو سبحانه، فكيف يتشاغل عنه بحقير من حطام هذه الدنيا؟.

وإذا قال في السجود: «سبحان ربي الأعلى» تذكر بذلك أن كل ما سواه تعالى من متاع هذه الحياة أدنى، فكيف يتشاغل بالأدنى عن الأعلى ذي الجلال والإكرام؟.

وإذا قال بين السجدتين: «رب اغفر لي» استحيا من ربه تبارك وتعالى أن يسأله المغفرة بقلب ساهٍ عن عظمته لاهٍ عن كبريائه، فيدفعه ذلك إلى أن يقوم في صلاته قانتاً مخبتاً، ذليلاً منكسراً، يخفق قلبه خوفاً من عقاب ربه، كما تطير نفسه شوقاً إلى رحمته تبارك وتعالى، وهذا هو الخشوع الذي يقود صاحبه إلى سعادة الدنيا وفلاح الآخرة.

فما أحوجنا إلى الخشوع في الصلاة لنفوز بمرضاة الله، وهذا يحتاج منا إلى مجاهدة النفس، فإذا جاهدناها على ذلك تحقق ـ بإذن الله تعالى وتوفيقه ـ المطلوب، فإنه سبحانه يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت].

* * *

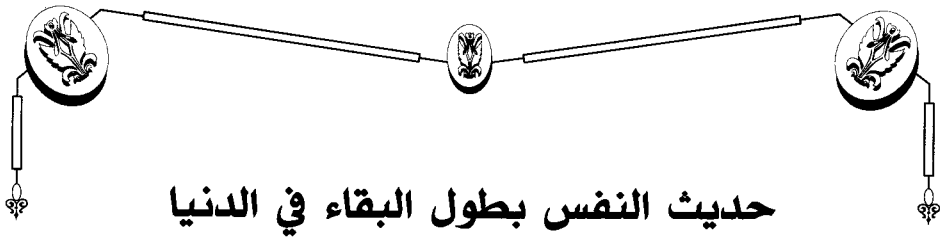

حديث النفس بطول البقاء في الدنيا

إن من تسويل الشيطان للإنسان أن يحدّث نفسه بطول البقاء في هذه الدنيا، وأنه معمَّر فيها سنوات عديدة، ودهوراً مديدة.

وياليته حين يحدث نفسه بذلك يتخذ من هذا البقاء الطويل المزعوم حافزاً له على بذل المزيد من الجدِّ والاجتهاد في فعل الصالحات وكسب الحسنات ليكون ممن ينطبق عليهم حديث أبي صَفْوَان عبد الله بن بُسْر الأسلمي رضي الله تعالى عنه ـ الذي رواه الترمذي رحمه الله تعالى وحسَّنه ـ أن النبي ﷺ قال: «خير الناس من طال عمره وحَسُنَ عمله».

لو كان كذلك لأصبح هذا الحديث النفسي بطول البقاء في الدنيا إلهاماً من الله تبارك وتعالى له ليوفقه إلى اللحوق بركب الصالحين ممن جعلوا هذه الدنيا لُجَّةً واتخذوا صالح الأعمال فيها سفناً.

ولكنه ويا للأسف الشديد يجعل ذلك الحديث النفسي بطول البقاء في الدنيا فرصة سانحة للعبٍّ من شهوات الحياة والتفلّت من الالتزام بمنهج الله تبارك وتعالى، بحجة أن المجال أمامه للتوبة فسيح فيسعى جاهداً يسابق الريح إلى التقصير في فعل الطاعة والتشمير إلى فعل القبيح دون وازع من ضمير أو رادع من إيمان، ليعطي الشيطان وقت قُوَّته ونشاطه، ويعطي الرحمن ـ جلَّ شأنه وعزَّ سلطانه ـ وقت ضعفه وعجزه إنْ قُدِّر أنه سيعيش إلى السن التي حدَّث نفسه بطول البقاء إلى حين بلوغها، وقد يُخْتَرَمُ بمباغتة الموت له قبل ذلك فيندم أشد الندم حيث زلَّت به القدم في مهاوي الردى، وحينئذٍ ينطبق عليه قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى

عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان].

إن حديث النفس بطول البقاء في الدنيا ضَرْب من الأماني الكاذبة ونوع من السراب الخادع، إذ لا عِلْم للإنسان بمدة بقائه فيها، فذاك غيب استأثر الله تبارك وتعالى به لنفسه ولم يطلع عليه أحداً من خلقه، ولكنها نفخة شيطانية ونزغة إبليسية وجدت طريقها المناسب إلى قلبٍ غافل فسيطرت عليه وعشعشت فيه، وذلك ما حذر منه النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، ففي الحديث الذي رواه الترمذي رحمه الله تعالى وحسَّنه عن الصحابي الجليل أبي يَعْلى شدَّاد بن أوس رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله».

نعم، إن العجز كل العجز في اتباع هوى النفس الباعث على الخلود إلى الراحة والركون إلى الدنيا والإعراض عن الآخرة.

لقد نبَّه الحق تبارك وتعالى عباده في مواضع متعددة من كتابه العظيم إلى خطورة هذا السلوك في حياتهم، وأنه سيقودهم ـ إن لم تتداركهم رحمته سبحانه ـ إلى طريق الضلال والبوار في الدنيا والآخرة، لعلهم يأخذون من هذا التنبيه الإلهي الكريم العظة والعبرة، فلا يقعون فيما وقع فيه غيرهم ممن لم يحصدوا من تلك الأماني الباطلة التي غرهم بها الشيطان سوى الحسرة والخسران، ومن ذلك قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام: ٢٧] وقوله سبحانه: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر].

وقوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون].

وقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١١﴾ [المنافقون].

إن التحدث بطول الأمل في الدنيا سلوك معوج يخالف السلوك المستقيم الذي كان عليه الأتقياء من سلف هذه الأمة الذين كان الواحد منهم إذا أمسىٰ ظن أنه لن يعيش إلى الصباح، كما أخرج الإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه من حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه قال: (إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء).

فهل يعي هذه الحقيقة كل من بنى في الدنيا آماله وحَطَّ فيها رحاله؟.

* * *

تأخير إعطاء الأجير أجره

أنعم الله تبارك وتعالى على عباده في هذه البلاد المباركة بنعم عظيمة كثيرة لا تُعد ولا تُحصى، وكان الواجب على الناس أن يشكروا الله ﷻ على هذه النعم الجليلة لينالوا البركة فيها ويحظوا بالمزيد منها، كما قال الحق تبارك وتعالى في محكم التنزيل: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

ولكنَّ كثيراً من الناس ـ والعياذ بالله تعالى ـ قابلوا تلك النعم المسداة لهم من خالقهم سبحانه بالجحود والكفران وعدم العرفان والشكران، ولذلك صور مختلفة وأشكال متعددة، ولعلي أقتصر في هذا المقام على واحدة من تلك الصور والأشكال، ألا وهي تأخير صرف أجور الأيدي العاملة في الشركات والمؤسسات، وكذلك الخدم والخادمات في كثير من البيوتات، حيث إن صاحب المؤسسة والشركة، أو رب المنزل يتباطأ كثيراً في دفع الأجور لمستحقيها من العمال والخدم، وربما وصل هذا التباطؤ إلى عدم تسليمهم أجورهم لمدة ثلاثة أشهر متتالية أو أكثر، في حين أن أولئك العمال والخدم بأمس الحاجة إلى إعطائهم تلك الأجور بنهاية كل شهر من غير تباطُئٍ أو تأخير أو تساهل في ذلك، نظراً إلى أنهم ما اغتربوا عن بلدانهم وتركوا أزواجهم وأولادهم إلا من أجل أن يحصلوا على لقمة العيش التي تسد رمقهم وتفي بمتطلبات حياتهم، بينما أصحاب المؤسسات والشركات وأرباب المنازل لا يعبؤون بذلك ولا يقيمون له وزناً وكأن قلوبهم أصبحت حجراً صلباً لا يلين غلظة وقساوة وتعالياً وتجبراً، ناسين أو متناسين بأن الله تبارك وتعالى يمهل ولا يهمل، وأن الأيام دول، وأن الإنسان كما يَدين يُدان، فكم من صاحب يد عليا أصبح صاحب يد سفلى،

وكم من عزيز يُشار إليه بالبنان أصبح ذليلاً قد تبرَّأ منه حتى الأصدقاء والخلان، وصدق الله العظيم حين قال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وحين قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

إن تأخير صرف أجور الخدم في المنازل والعمال في الشركات والمؤسسات عمل إجرامي خطير في حق الإنسانية ترفضه الشريعة الإسلامية لعدة اعتبارات لعل من أهمها ما يلي:

الأول: أن تأخير صرف تلك الأجور ظلم بيِّن من صاحب العمل للعمال والمستخدمين، والظلم محرَّم في شريعة الإسلام ففي صحيح الإمام مسلم رحمه الله تعالى من حديث الصحابي الجليل أبي ذر جُندب بن جُنَادَة رضي لله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا».

والظلم عاقبته وخيمة في الدار الآخرة، فهو يَكُبُّ صاحبه في ظلمات نار جهنم كما ثبت في صحيح الإمام مسلم رحمه الله تعالى من حديث الصحابي الجليل جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة».

كما أن الظلم نهايته أليمة في الحياة الدنيا، فقد يدعو العامل أو الخادم المظلوم على من ظلمه بتأخير صرف أجره دعوة تُفتح لها أبواب السماء كما في المتفق عليه من حديث الصحابي الجليل معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال له حين بعثه إلى اليمن: «واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب».

وإذا استجاب الله تبارك وتعالى لتلك الدعوة أخذ الظالم أخذ عزيز مقتدر، كما في المتفق عليه من حديث الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله ليُملي للظالم، فإذا أخذه لم يفلته».

وكم سمعنا عن كثير من أرباب الأموال أنهم خسروا أموالهم وتجاراتهم، ولعل ذلك بسبب دعوة مظلوم قد أحاطت بهم من حيث لا يشعرون.

الثاني: أن تأخير صرف أجور العمال والمستخدمين سبب في أن يكون المؤخِّر لصرف تلك الأجور خصيماً لله الجبار القهار تبارك وتعالى يوم القيامة، ومن خاصمه الله جل شأنه عذبه عذاباً شديداً لاطاقة له بتحمله، ففي صحيح الإمام البخاري رحمه الله تعالى من حديث الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: قال الله تعالى: «ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره».

الثالث: أن تأخير صرف أجور العمال والخدم يجعل المتسبب في ذلك وهو صاحب العمل مبغضاً مكروهاً عند الله تبارك وتعالى نظراً لاعتدائه على حق أولئك الضعاف المحاويج بتأخيره صرف أجورهم عند نهاية كل شهر، وفي ذلك يقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

الرابع: أن تأخير صرف أجور العمال والخدم مخالفة صريحة لأمر الله تبارك وتعالى الذي أوجب على المسلم الوفاء بمقتضى العقود حين قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

والعقد المبرم بين العامل أو المستخدم وصاحب العمل يقتضي صرف الأجور فور نهاية كل شهر من غير تأخير ولا مماطلة، والمخالف لأمر الله تبارك وتعالى حكم عليه سبحانه بالضلال المبين حين قال جلَّ شأنه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب].

وعاقبة الضلال المبين بسبب عصيان الأمر دخول النار وبئس القرار،

كما قال سبحانه: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء].

الخامس: أن تأخير صرف أجور العمال والخدم مخرج لصاحبه من دائرة الإيمان إلى دائرة النفاق بسبب عدم وفائه بمقتضى العهد والميثاق، وقد بيَّن لنا النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم علامات المنافقين حتى نحذرها فلا نقع فيها بقول أو عمل، ففي المتفق عليه من حديث الصحابي الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ قال: «أربع من كنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

فهل يرضى المسلم أن يبيع إيمانه بمبلغ مالي من حطام هذه الدنيا الفانية؟.

إن هذه الأمور الخمسة منذر خطر لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، فعسى أن تكون موعظة لمن فكر وقدَّر، ونظر فاعتبر.

كما أن مماطلة الأجير في دفع حقه إليه سلوك منحرف لا ينسجم مع سلوك الأتقياء الذين كانوا أشد حرصاً على إعطاء الأجير حقه قبل أن يجف عرقه حتى استحقوا بهذا السلوك الكريم تفريج الكربات في الدنيا ورفعة الدرجات في الأخرى، فقد ثبت في الصحيحين من حديث الصحابي الجليل عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «انطلق ثلاثة نفر ممَّن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه، فانحدرت صخرة من الجبل فسدَّت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم...» إلى أن قال عليه الصلاة والسلام: «وقال الثالث: اللهم استأجرتُ أجراء وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب، فثمَّرتُ أجره حتى كثرت منه الأموال، فجاءني بعد حين فقال: يا عبد الله أدِّ إليَّ أجري، فقلتُ: كل ما

ترى من أجرك: من الإبل والبقر والغنم والرقيق. فقال: يا عبد الله لا تستهزئ بي، فقلتُ: لا أستهزئ بك، فَأَخَذَهُ كله فاستاقه فلم يترك منه شيئاً، اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون).

فما أحرانا أن نسلك هذا المسلك الحميد في حُسن التعامل مع الأجراء بدفع أجورهم عاجلة غير آجلة لنحظى بسعادة الدنيا ونعيم الآخرة.

* * *

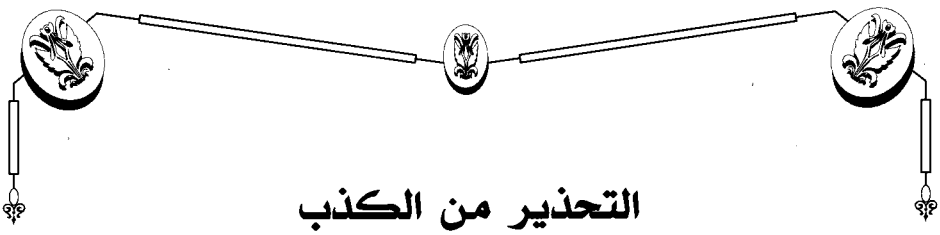

التحذير من الكذب

الكذب مفتاح الشرور كلها، فهو بريد الكفر وقمطرة الإلحاد، كما قال الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [النحل].

وهو سبب في حرمان صاحبه من هداية الله جل شأنه، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

وهو مانع من حصول الفلاح في حق من اتصف به، كما قال المولى ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦]. وهو شك في القلب يفضي إلى قلق النفس واضطراب الجوارح لزوال الطمأنينة القلبية وذهاب السكينة النفسية، ففي الحديث الذي رواه الترمذي وصحَّحه عن الصحابي الجليل الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهما قال: حفظت من رسول الله ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة، والكذب ريبة».

وهو ممحقة لبركة الأرزاق في البيوع والتجارات، ففي المتفق عليه من حديث الصحابي الجليل حكيم بن حزام رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «البيِّعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإنْ صدقا وبيَّنا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا مُحقت بركة بيعهما».

وهو خلق يخرج المؤمن من دائرة الإيمان إلى دائرة النفاق، كما سبق في المتفق عليه من حديث الصحابي الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ قال: «أربع من كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها:

إذا اؤتمن خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

وأخرج الإمام مالك رحمه الله تعالى في موطَّئِه عن صفوان بن سُليم أنه قال: قيل لرسول الله ﷺ: أيكون المؤمن جباناً؟ فقال: «نعم»، فقيل له: أيكون المؤمن بخيلاً؟ فقال: «نعم»، فقيل له: أيكون المؤمن كذاباً؟ فقال: «لا».

وما ذلك إلا لأن الإيمان حق، والكذب باطل، والحق لا يجتمع مع الباطل.

وكفى بالكذب إثماً وخزياً أنه يهدي إلى الفجور الذي هو طريق إلى النار وبئس القرار، ففي المتفق عليه من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يُكتب عند الله كذّاباً».

وهو لا يُكتب عند الله كذاباً إلا إذا استمرأ الكذب وأصرَّ عليه حتى انطبع في نفسه سلوكاً لا ينفك عنه، وخُلُقاً لا يُعرف إلا به، وحينذاك يسقط من عين ربه تبارك وتعالى ويفقد ثقة الناس به، فيبوء بخزي الدنيا وعذاب الآخرة.

ومن هنا فإنه يجب على المسلم أن يسلك مسلك الأتقياء في الحذر من الكذب قليله وكثيره في قوله وفعله، فقد كان أولئك الأتقياء يحذِّرون أشد التحذير من الوقوع في الكذب، لأنه سبب رئيس في سواد القلب لخوائه من نور الإيمان وصدق اليقين، فقد أخرج الإمام مالك رحمه الله تعالى في موطَّئِه أنه بلغه أن الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه كان يقول: (لا يزال العبد يكذب، وتُنكَتُ في قلبه نُكتة سوداء، حتى يسودَّ قلبه كله، فيُكتب عند الله من الكاذبين).

* * *

ذكرى مولد النبي ﷺ

إن ولادة النبي محمد ﷺ إيذان ببزوغ فجر الإسلام الدين الخالد العظيم الذي ارتضاه الله تبارك وتعالى لعباده المسلمين كما في قوله سبحانه: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

ومنذ أن بعث الله ـ جلَّ شأنه وتقدست أسماؤه ـ نبيه محمداً ﷺ بالصدع بهذا الدين القويم كما في قوله سبحانه: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤].

وكما في قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ [المدثر].

وهو عليه الصلاة والسلام مُشَمِّر عن ساعد الجد، لا يألو جهداً في نشره وبيانه والدعوة إليه حتى علا شأنه فتوطدت دعائمه، وترسَّخت أركانه، ودخل الناس في دين الله تعالى أفواجاً من كل حدب وصوب، يتفيؤون ظلاله، وينعمون في كنفه بعيشة السعداء وحياة الأتقياء، ولقي ربه تبارك وتعالى بعد أن قرت عينه عليه الصلاة والسلام بإكمال الدين وإتمام النعمة.

وحمل الراية من بعده أصحابه الكرام رضي الله تعالى عنهم في الدفاع عن هذا الدين وافتدائه بالنفس والنفيس حتى عزَّ الإسلام وساد، وتحققت لأهله العزة والمنعة والنصرة والغلبة، فكانوا متبوعين غير تابعين، تخشى أمم الأرض سطوتهم، وتهاب ملوك الكفر غضبتهم.

ثم ورّثوا الإسلام إلى الأجيال المتعاقبة، فكانت تقوى بقدر قوة ارتباطها بربها تبارك وتعالى، وتضعف بقدر ضعف ذلك الارتباط، إلى أن جاء وقتنا الحاضر الذي بلغ فيه ضعف ارتباط المسلمين بربهم تبارك وتعالى مبلغاً عظيماً حين فرطوا في دينهم وتقاعسوا عن نصرة شريعتهم، فكانت نتيجة ذلك هيمنة الأعداء على المسلمين، وتكالبهم على بلادهم تحت

ذرائع مختلفة تفوح منها رائحة الغدر والظلم والبغي والعدوان.

إن ذكرى مولد النبي ﷺ ليست مجالاً لإقامة الولائم والحفلات، وليست مناسبة للهمهمات والتمتمات التي ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان، ولا أقام عليها من برهان.

وإنما ذكرى مولد النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم يجب أن تكون وقفة صادقة لكل مسلم مع نفسه: ما حاله في إخلاص التوجُّه لله تبارك وتعالى، وفي صدق المتابعة للرسول ﷺ؟.

ما حاله في الثبات على هذا الدين العظيم الذي بُعث به النبي الأمين عليه الصلاة والسلام: أهو حال الالتزام بعراه، أم هو حال الانفصام عن تلك العرى إلى الارتماء في وحل المعصية والمحادَّة لله ﷻ ولرسوله ﷺ؟.

ما حاله في إعداد نفسه الإعداد الإيماني الذي يؤهله لأن يكون جندياً من جنود الإسلام في الذود عن حماه والدفاع عن حرماته؟.

ما حاله في الاهتمام بشؤون إخوانه المسلمين المستضعفين في مشارق الأرض ومغاربها؟ وماذا قدم لهم وفعل من أجلهم؟ ففي المتفق عليه من حديث الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً».

وعند الإمام الترمذي رحمه الله تعالى بإسناد حسن من حديث الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم لا يخونه، ولا يكذبه، ولا يخذله».

إنه لن يَصلُحَ آخر هذه الأمة إلا بما صَلُحَ به أولها، وهو الاستمساك بهذا الدين العظيم قرآناً وسُنَّة، فهل نجعل من ذكرى مولد النبي ﷺ التي تتجدد كل عام محطة إيمانية نقف عندها لنحاسب أنفسنا محاسبة تهذِّب سلوكها، وتقوِّم اعوجاجها، وتعيدها إلى حقيقة الاعتزاز بدينها، وحُسن التَّديُّن لربها تبارك وتعالى باتباعٍ لا ابتداع فيه، ففي سنن الإمام الترمذي

رحمه الله تعالى بإسناد حسن صحيح من حديث الصحابي الجليل العرباض بن سارية رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «وإنه من يَعِشْ منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عَضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة»؟.

يجب أن تكون تلك الذكرى كذلك، وإلا أصبحت حجة علينا بدلاً من أن تكون حجة لنا.

* * *

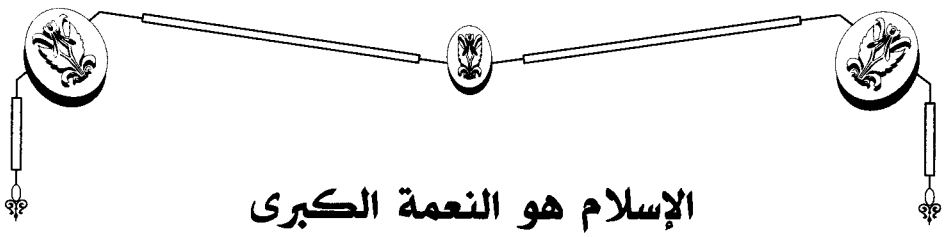

الإسلام هو النعمة الكبرى

الإسلام هو الدين القويم الذي ارتضاه الحق تبارك وتعالى ديناً لأمة نبيه محمد ﷺ، فأتم لهم بذلك النعمة الكبرى التي لا تعادلها أية نعمة أخرى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وكما أتم الحق تبارك وتعالى نعمته الكبرى على هذه الأمة بارتضائه الإسلام لها ديناً فقد أقام عليها منَّته العظمى بهدايتها إلى هذا الدين وانتسابها إليه: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحجرات].

والإسلام هو الفطرة الإلهية التي فطر الحق تبارك وتعالى الناس عليها: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم].

وإذا كان الإسلام هو الفطرة الإلهية فإنه لا استقامة لتلك الفطرة إلا بالالتزام بهذا الإسلام، وأي انحراف عنه فهو اعوجاج في تلك الفطرة يميل بصاحبه عن الدين القويم إلى طرق الضلالة والغواية من تهويد، أو تنصير، أو تمجيس، فقد أخرج الإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه حديث الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه، أو يُنصِّرانه، أو يمجسانه، كما تُنْتَجُ البهيمةُ بهيمةً جمعاء هل تُحِسُّون فيها من جدعاء».

وذلك الاعوجاج في الفطرة يجعل الإنسان فريسة سهلة لنزغات الشيطان ونفثاته، ومصداق ذلك ما أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى في

صحيحه من حديث الصحابي الجليل عياض بن حمار المجاشعي رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال ـ أي فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى ـ: «وإني خلقتُ عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمتْ عليهم ما أحللتُ لهم، وأَمَرَتْهُمْ أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً».

وهذا يعني أن الإسلام وثيقة معاهدة بين العبد وربه تبارك وتعالى يلتزم فيها غاية الالتزام بالسمع والطاعة لمولاه سبحانه في كل ما أمره به ونهاه عنه من غير أن يكون له خيار في ذلك البتة، وهو ما أرشد إليه الحق جل جلاله بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وبقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور].

فمن سمع وأطاع فذاك هو المؤمن، ومن لم يسمع ويطع فذاك هو المنافق، فإن الحق تبارك وتعالى قد ذكر من صفات المنافقين قوله في شأنهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء].

وكيف لا يكون عدم السمع والطاعة لله تبارك وتعالى نفاقاً؟ والحال أنَّ من كان كذلك فهو ممن اتخذ من دون الله تبارك وتعالى شركاء في شرعه كما قال سبحانه منكراً ومحذراً: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ [الشورى: ٢١].

وكما قال سبحانه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]. وهذا السلوك بلا ريب ضلالة عمياء، وجاهلية حمقاء، تبعد صاحبها عن حقيقة التمييز بين الحسن والقبيح، كما قال سبحانه: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة].

وكفى بذلك السلوك ضلالة وجاهلية أنه مناقض في واقعه حقيقة الإيمان الذي مقتضاه التسليم والإذعان كما قال سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء].

إن التمسك بالإسلام قولاً وعملاً واعتقاداً ونظام حياة هو الصراط المستقيم الذي وصَّى الحق تبارك وتعالى عباده المؤمنين باتباعه والاستقامة عليه حتى لا تزل بهم السبل المنحرفة إلى الغواية والضلالة، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام]. وإذا كان الإسلام هو الصراط المستقيم الذي لا يقبل الحق تبارك وتعالى صراطاً سواه فإنه لا عزة لنا على الإطلاق إلا بالتمسك الحقيقي بهذا الإسلام العظيم والانضواء تحت لوائه، ونَبْذ كل الشعارات المخالفة له، فلا قومية، ولا بعثية، ولا اشتراكية، ولا شيوعية، ولا علمانية، فكلها شعارات برهنت الأيام بما لا يدع مجالاً للشك على إفلاسها، وعَجْزها العقيم عن أن تقدِّم للأمة شيئاً من العزة والقوة والنصرة والتمكين.

وما الضعف المهين الذي تعيشه الأمة المسلمة في وقتنا الحاضر إلا نتيجة ابتعادنا عن حقيقة الإسلام، وارتمائنا في أحضان تلك الشعارات، حتى أصبحنا غثاء كغثاء السيل، رغم كثرة عددنا فإننا لا نملك التأثير الفاعل والقوي في الساحة الدولية، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، فحين افتقدت هذه الأمة اعتزازها بالإسلام فقدت هيبتها، وأصبحت في ذيل القائمة، وتلك سنة الله تبارك وتعالى التي لا تحابي أحداً.

فإذا أردنا تحقيق القوة والعزة والتمكين في الأرض فلنأخذ بأسباب ذلك المتمثلة في حقيقة الرجوع إلى رحاب الإسلام في واقع أنفسنا وأسرنا ومجتمعاتنا وفي جميع مناحي حياتنا، حتى نكون كما كان سلفنا الصالح قرآناً يتحرك على ظهر هذه الأرض.

الهداية إلى الصراط المستقيم

الهداية إلى الصراط المستقيم تعني عدداً من الجوانب المهمة في حياة كل مسلم ومسلمة، لا يمكن لتلك الحياة أن تنعم بالطمأنينة والاستقرار، ولا أن تتمتع بالعيش الرغيد بعيداً عن المنغصات والمكدِّرات إلا باستيعابها واستكمالها، ومن أهم تلك الجوانب على الإطلاق ثلاثة:

الجانب الأول: أن الهداية إلى الصراط المستقيم تعني في جوهرها الأساس الاستقامة على الإسلام والثبات عليه، والحذر كل الحذر من سلوك ما خالفه من سبل الضلالة والانحراف، وهذا ما دل عليه قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام].

ومن أعرض عن سلوك هذا الصراط المستقيم مستبدلاً به سواه ظناً منه بأنه أهدى سبيلاً وأقوم طريقاً فهو بعيد عن أسباب الهداية، وله الخزي في الدنيا والخسران في الآخرة، كما قال الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران].

الجانب الثاني: أن الهداية إلى الصراط المستقيم تعني اتباع النبي ﷺ وطاعته فيما جاء به من عند ربه تبارك وتعالى، فإن الله جلَّ وعلا قد جعله سبباً لهداية الناس إلى صراطه المستقيم، وأكد ذلك بقوله سبحانه مخاطباً له عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

وهداية النبي ﷺ إلى الطريق المستقيم بتوفيق الله تبارك وتعالى لا ينالها الإنسان إلا إذا حقق شرطاً عظيماً وهو الاتباع لهديه والطاعة لأمره، كما قال الحق تبارك وتعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ

جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف].

وكما في قوله سبحانه: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ [النور: ٥٤]. واتباعه ﷺ لا يتحقق إلا بالتزام السنة وترك البدعة، إذ الابتداع في الدين مردود على صاحبه، ففي المتفق عليه من حديث عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد».

وفي رواية للإمام مسلم رحمه الله تعالى: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد».

وطاعته عليه الصلاة والسلام إنما تكون بامتثال كل ما أمر به، واجتناب كل ما نهى عنه، كما قال الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

وفي الصحيحين من حديث الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم».

إن الأخذ بما أمر به عليه الصلاة والسلام، والانتهاء عما نهى عنه هو أصل الإيمان ودليل رسوخه في النفس وثبوته في القلب، وهذا ما دل عليه قول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء]. والتسليم لأمر الرسول ﷺ بالامتثال، ولنهيه بالاجتناب هو الأمان من مزلَّة القدم ومذلَّة الندم يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، فمن اتبع النبي ﷺ حق الاتباع، وأطاعه حق الطاعة سلم ونجا، ومن خالفه وعصاه عطب وهلك، ومصداق ذلك ما ثبت في الصحيحين عن الصحابي الجليل ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «يا أيها الناس إنكم محشورون إلى الله تعالى

حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً، ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، ألا وإن أول الخلائق يُكْسَى يوم القيامة إبراهيم ﷺ، ألا وإنه سيُجاء برجال من أمتي فَيُؤْخَذُ بهم ذات الشمال فأقول: يا رب أصحابي، فيُقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٧]، فيقال لي: إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم».

وما ثبت في صحيح الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى»، قيل: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى».

نعم، إن عصيان النبي ﷺ بترك اتباعه وطاعته إباء وامتناع عن دخول الجنة، وحرمان للنفس من التمتع فيها بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، كل ذلك في مقابل لذة حيوانية ومتعة شهوانية أوقع فيها الشيطان، وقادت إليها النفس الأمارة بالسوء، وهذا السلوك هو بمنزلة التفلت من طريق الجنة إلى المضي في طريق النار، وهو ما حذر منه غاية التحذير مَنْ لا ينطق عن الهوى عليه الصلاة والسلام، ففي صحيح الإمام مسلم رحمه الله تعالى عن الصحابي الجليل جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً فجعل الجنادبُ والفراش يقعن فيها وهو يَذُبُّهُنَّ عنها، وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تَفَلَّتُون من يَدَيَّ».

إن التفلت من الاتباع الحقيقي للنبي ﷺ دَأَبَ عليه كثير من الناس في وقتنا الحاضر حتى أصبح المتمسك بالسنة هو الغريب كل الغربة وهو يعيش بين ظهرانيهم.

ومن كان حاله كذلك في الإعراض عن اتباع النبي ﷺ والتفلت من

طاعته فهو بعيد كل البعد عن تحصيل الهداية لإيثاره الهوى على الهدى، وهذا ما دل عليه قول الحق تبارك وتعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية].

الجانب الثالث: أن الهداية إلى الصراط المستقيم تعني تعلُّم العلم والعمل به، والحذر من الركون إلى الجهل.

وكيف لا يكون تعلم العلم هداية إلى الصراط المستقيم وقد جعله النبي ﷺ سبباً لتسهيل الطريق إلى الجنة، ففي صحيح الإمام مسلم رحمه الله تعالى عن الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهَّل الله له به طريقاً إلى الجنة».

وكيف لا يكون طلب العلم هداية إلى الصراط المستقيم وهو سبيل من السبل المرضية عند الله تبارك وتعالى لأنه جهاد ومجاهدة، فقد أخرج الإمام الترمذي رحمه الله تعالى حديثاً حسناً عن الصحابي الجليل أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «من خرج في طلب العلم كان في سبيل الله حتى يرجع».

وكيف لا يكون العلم هداية إلى الصراط المستقيم وطالبه ناجٍ من لعنة الدنيا، فعند الإمام الترمذي رحمه الله تعالى بإسناد حسن عن الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول لله ﷺ يقول: «الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ذكر الله تعالى، وما والاه، وعالماً، أو متعلِّماً».

ولكنَّ العلم لا يكون هداية إلى الصراط المستقيم إلا بالعمل به، ومَنْ تنكَّب طريق العمل كان علمه شقاءً له ووبالاً عليه، ففي الصحيحين عن الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «مثل ما بعثني الله به من الهُدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً، فكانت منها طائفة طيِّبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها

أجادبُ أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثلُ من فَقُهَ في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فَعَلِمَ وعلَّم، ومَثَلُ مَنْ لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هُدى الله الذي أُرسلت به».

ومن علم ولم يعمل بعلمه كان له حظ وافر من ميراث اليهود الذين غضب الله تبارك وتعالى عليهم حين علموا ولم يعملوا فأنكر سبحانه ذلك عليهم أشد الإنكار حين قال جلَّ شأنه: ﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة].

وحذر جلَّ وعلا عباده المؤمنين من هذا الصنيع المذموم بقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف].

وكما أنّ ترك العمل بالعلم صَدٌّ عن سبيل الهداية، فكذلك الركون إلى الجهل، لأنه سبب للوقوع في الضلالة، يجعل صاحبه ذا حظ وافر من ميراث النصارى الذين عبدوا الله تبارك وتعالى على جهالة فضلوا وأضلوا.

ومن هنا فقد أرشدنا الحق تبارك وتعالى أن نتوجَّه إليه عند قراءة الفاتحة في الصلاة بهذا الدعاء العظيم: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة].

وهذا يدل أعظم دلالة على أن تعلُّم العلم والعمل به هو طريق السلامة والنجاة من التعرض لغضب الله تبارك وتعالى، ومن الوقوع في الضلالة، وبذلك تحصل النعمة للعبد بهدايته إلى الصراط المستقيم الذي لا عوج فيه ولا التواء.

فحري بالمسلم الذي يريد شرف الدنيا وسعادة الآخرة أن يحرص الحرص كله على استكمال تلك الجوانب الثلاثة المهمة، وأن يوليها غاية اهتمامه بلا تقاعس ولا تكاسل حتى يفوز بهداية ربه تبارك وتعالى التي لا خلاص له من خزي الدنيا وعذاب الآخرة إلا بها.

التواضع

التواضع خلق عظيم وسلوك قويم، جعله الحق تبارك وتعالى سبباً رئيساً من أسباب رفعة المتصف به في الدنيا والآخرة، فقد أخرج الإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه من حديث الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «وما تواضع أحد لله إلا رفعه».

كما جعل النبي ﷺ التواضع عاصماً للمسلم من التفاخر على الناس والبغي عليهم بغير حق، ففي الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه عن الصحابي الجليل عياض بن حمار رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد».

وبالتواضع يدخل المسلم في محبة الله تبارك وتعالى من أوسع أبوابها، وهذا ما أكده الحق جل شأنه بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

ولما كان التواضع بهذه المنزلة العظيمة والدرجة الرفيعة فقد أمر الله ﷻ به نبيه محمداً ﷺ، ليكون بالاتصاف به قدوة صالحة وأسوة حسنة لأمته عموماً في حياته وبعد مماته، فقال سبحانه: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [الشعراء]. وقد استجاب عليه الصلاة والسلام لأمر ربه تبارك وتعالى، فكان سيد المتواضعين في سماحة خلقه، ولين جانبه، وحسن تعامله، ومن ذلك ما أخرجه الإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه عن الأسود بن يزيد قال: سُئلت عائشة رضي الله تعالى عنها: ما كان

النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله ـ يعني: خدمة أهله ـ فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة).

وكثير من الناس تجده يتأبى عن خدمة أهله، بل إنه يقول بملء فيه: «ما تزوجت هذه المرأة إلا من أجل أن تكون خادمة لي»، ولا يساهم أبداً في مساعدتها وتخفيف أعباء المنزل عنها، وهو لا يعلم أنه بهذا الصنيع يخالف صراحةً هَدْي النبي ﷺ.

وقد بلغ من تواضعه عليه الصلاة والسلام ما أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه عن الصحابي الجليل أبي رفاعة تميم بن أُسيد رضي الله تعالى عنه قال: (انتهيتُ إلى رسول الله ﷺ وهو يخطب، فقلت: يا رسول الله رجُل غريب جاء يسأل عن دينه لا يدري ما دينه؟ فأقبل عليَّ رسول الله ﷺ وترك خطبته حتى انتهى إليَّ، فأُتي بكرسي فقعد عليه، وجعل يعلمني مما علمه الله، ثم أتى خطبته فأتم آخرها).

كما بلغ من تواضعه عليه الصلاة والسلام ما أخرجه الإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه عن الصحابي الجليل أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: «إنْ كانت الأمة من إماء المدينة لتأخذ بيد النبي ﷺ فتنطلق به حيث شاءت».

إن استجابة النبي ﷺ لأمر ربه تبارك وتعالى بالتواضع الذي ضرب فيه المثل الأعلى يجب أن يكون نبراساً يستضيء به كل مسلم امتثالاً لقول الحق تبارك وتعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب].

إن التواضع يجب أن يكون سلوكاً ينطبع في قلب كل فرد مسلم في كل عمل يمارسه وفي كل موقع تقع فيه قدمه، فالموظف في ميدان وظيفته يجب أن يكون التواضع شعاره في خدمة المراجعين وتسهيل معاملاتهم وتيسير أمورهم، والمعلم في حقول التعليم المختلفة يجب أن يجعل من التواضع مفتاحه الذي ينفذ من خلاله إلى مغاليق قلوب طلابه محبةً لهم وعطفاً عليهم وحرصاً على ما ينفعهم في أمور دينهم ودنياهم وتفانياً في بناء

أفكارهم البناء الإسلامي الصحيح حتى يكونوا جنوداً بواسل لحماية الدين والذبِّ عن العقيدة، والتاجر وهو يقلِّب فكره في كل ناحية يجد فيها ثغرة لنماء ماله واتساع دائرة ثروته يجب أن يكون التواضع حافزه إلى الشعور بحاجة الفقراء والمساكين والأرامل والأيتام من المسلمين، والإحساس بمعاناة إخوانه المستضعفين في كل صقع من أصقاع الأرض بمؤازرتهم ومساعدتهم والوقوف إلى جانبهم بما يساهم في تخفيف آلامهم وتحقيق آمالهم، والأب في محيط أسرته يجب أن يتخذ من التواضع سفينة النجاة في تهذيب سلوك زوجته وأولاده من خلال تربيتهم على فضائل الإسلام ومحاسن الصفات عملاً بقول الحق تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ [التحريم].

وهكذا فكل مسلم حيثما حطّت به الرحال في كل مجال هو مطالب بأن يكون التواضع قرينه الذي لا يفارقه، وخلقه الذي لا يرضى بديلاً عنه، وأن يحذر غاية الحذر من التكبر والعجب والتعالي على الآخرين، فإنّ ذلك سبب في السقوط من عين الله تبارك وتعالى قبل السقوط من أعين الناس، وليس أدل على ذلك مما ثبت في صحيح الإمام البخاري رحمه الله تعالى من حديث الصحابي الجليل أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «حق على الله ألا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه».

نعم، إن الوضاعة والحقارة ستكون نصيب كل متعالٍ متكبر، وكيف يتعالى الإنسان على غيره من الناس وقد بيَّن الله جلَّ شأنه له حقيقة خلقه حين قال سبحانه: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ١٧ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ١٨ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ١٩﴾ [عبس].

فليكن التواضع ـ أخي المسلم ـ سلوكك الذي لا ينفك عنك، فإنه سبيل العاقبة الحميدة في الدنيا والآخرة كما قال الحق تبارك وتعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٨٣﴾ [القصص].

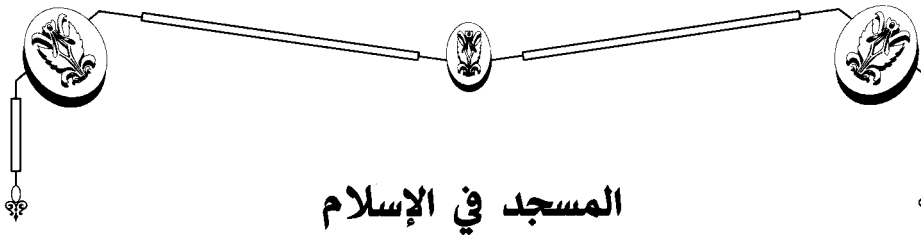

المسجد في الإسلام

عظَّم الحق تبارك وتعالى شأن المساجد، وأعلى قدرها ومكانتها، وزادها تشريفاً وتكريماً بنسبتها إليه حين قال جل شأنه: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن].

وجعل هذه المساجد بيوتاً يُذكر فيها اسمه، ويُنَزَّهُ فيها عن كل نقص وعيب، فقال سبحانه: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور].

كما جعل عمارة تلك المساجد بالذكر والعبادة والتشييد علامة على صِدْق الإيمان حين قال عزَّ من قائل: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة].

وأمر الرسولُ ﷺ بالشهادة بالإيمان لكل من اعتاد الإتيان إلى المساجد لأداء ما افترض الله ﷻ عليه من صلاة، فقد أخرج الإمام الترمذي رحمه الله تعالى بإسناد حسن حديث الصحابي الجليل أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان».

والمسلم حين يتردد إلى المسجد غدواً ورواحاً فهو يهيئ لنفسه النُّزُل الحسن في الجنة لما ثبت في الصحيحين عن الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «مَنْ غدا إلى المسجد أو راح أعدَّ الله له في الجنة نُزُلاً كلما غدا أو راح».

وما ذلك كله إلا لأن المسجد هو الملتقى الحق الذي يلتقي فيه المؤمن بربه تبارك وتعالى خمس مرات في اليوم والليلة، فيجدِّد بذلك اللقاء الرباني إيمانه، ويطهِّر جوارحه من جميع الفواحش والمحرمات، ويربِّي نفسه على الطاعة والخضوع والإذعان للحي القيوم الذي عنت له الوجوه وخشعت له كل القلوب، ويتذكر المؤمن وهو واقف بين يدي الله ﷻ في الصلاة وقوفه الأكبر بين يديه سبحانه يوم العرض والنشور فيزيده ذلك خوفاً من الله ﷻ ومراقبة له في السر والعلن في جميع الأوقات وعلى مختلف الحالات، فتكون حياته خارج المسجد كما هي داخله: عبادةً وصدقاً، وإخلاصاً، وتقًى، ووفاءً، وتعاملاً حسناً، وقلباً نقياً طاهراً خالياً من كل غل وحقد وحسد ونفاق، تكون حياته خارج المسجد حياة الأبرار الأتقياء الذين صدقوا الله تبارك وتعالى ما عاهدوه عليه من التزام بالمنهج، وصدق في الاتباع لكل ما جاء به أمين الرسالة ومنقذ الأمة من الضلالة ومخرجهم من الجهالة محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام.

هذا المسجد يغرس في قلب كل مؤمن محبة الله ﷻ فلا يتوجَّه بالعبادة لمعبود سواه، كما يغرس في قلب كل مؤمن محبة رسول الله ﷺ فيكون حريصاً على اقتفاء هديه والاقتداء بسيرته والتمسك بسنته لا يحيد عن ذلك وزن قطمير مهما اشتدت الزلازل والأعاصير.

إن رسالة المسجد في الإسلام رسالة عظيمة، يوم أن قام بها المسلمون الأوائل حق القيام عزُّوا وسادوا، وحين تخلَّى عنها المسلمون في وقتنا الحاضر ذاقوا مرارة الذلة والحرمان، وعاشوا تحكمهم الأنظمة الدخيلة على الإسلام، وتتحكَّم في مصالحهم وبلدانهم قوى الشر والعدوان، ولا سبيل إلى أن تعود للمسلمين عزتهم وسيادتهم إلا يوم أن تعود للمسجد رسالته، فيكون هو منبر الدعوة، وملتقى المسلمين ومنطلق الجيوش، ومدرسة العلم والإيمان، وجامعة الإعداد والتأهيل.

ومن هذا المنطلق فقد أدرك النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم

التسليم أهمية المسجد وأثره الذي لا يُنكر في حياة المسلمين، فبادر إلى إنشائه وتشييد دعائمه منذ اللحظة الأولى التي وطئت فيها قدماه الشريفتان أرض المدينة المنورة ليكون اللبنة الأساسية في بناء صرح الدولة الإسلامية.

وإذا كان للمسجد في الإسلام هذه المنزلة العظيمة فلا بد للمسلم من أن يراعي للمسجد حرمته من خلال التحلي بالآداب التالية:

١ ـ الوضوء في البيت ثم الخروج إلى المسجد، ليحظى بتكفير السيئات ورفعة الدرجات، لما ثبت في صحيح الإمام مسلم رحمه الله تعالى عن الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «من تطهَّر في بيته ثم مضى إلى بيت من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله كانت خطواته إحداها تحط خطيئة، والأخرى ترفع درجة».

٢ ـ تقديم الرجل اليمنى عند الدخول إليه، واليسرى عند الخروج منه، فقد أخرج الإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه عن أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: «كان النبي ﷺ يحب التَّيَمُّنَ ما استطاع في شأنه كله».

كما أخرج رحمه الله تعالى في صحيحه أن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: (كان يبدأ برجله اليمنى في دخول المسجد، فإذا خرج بدأ برجله اليسرى).

٣ ـ التزام السكينة والوقار بترك الإسراع عند سماع الإقامة، فقد أخرج الإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه عن الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون وأتوها تمشون، وعليكم السكينة، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا».

كما أخرج رحمه الله تعالى في صحيحه عن الصحابي الجليل أبي قتادة قال: بينما نحن نصلي مع رسول الله ﷺ فسمع جَلَبَةً فقال: «ما شأنكم؟» قالوا: استعجلنا إلى الصلاة، قال: «فلا تفعلوا، إذا أتيتم

الصلاة فعليكم السكينة، فما أدركتم فصلوا، وما سبقكم فأتموا».

٤ ـ إذا دخل المسجد والصلاة لم تقم فليبدأ بصلاة ركعتين هما تحية المسجد، فقد أخرج الإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه عن الصحابي الجليل أبي قتادة السّلمي رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس».

٥ ـ الحرص على الصف الأول، ففي المتفق عليه عن الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا).

٦ ـ إتمام الصفوف والتراصُّ فيها، ففي صحيح الإمام مسلم رحمه الله تعالى عن الصحابي الجليل جابر بن سَمُرة رضي الله تعالى عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «ألا تصفُّون كما تصفُّ الملائكة عند ربها؟» فقلنا: يا رسول الله وكيف تصفُّ الملائكة عند ربها؟ قال: «يُتِمُّون الصفوف الأُوَل، ويتراصُّون في الصف».

٧ ـ الاشتغال بذكر الله تبارك وتعالى وقراءة القرآن حتى تقام الصلاة، وعدم الخوض في أمور الدنيا حتى يفوز بدعاء الملائكة الكرام عليهم السلام بالرحمة والاستغفار، ففي صحيح الإمام البخاري رحمه الله تعالى من حديث الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه الذي صلى فيه ما لم يُحْدِث، تقول: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه».

٨ ـ التعاون على نظافة المسجد ليبقى طاهراً نقياً يشهد بعظمة الإسلام وسمو آدابه وتعاليمه.

فحري بالمسلمين أن يشدوا الوثاق على هذه الآداب الكريمة، فذاك دليل على التقوى كما قال الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

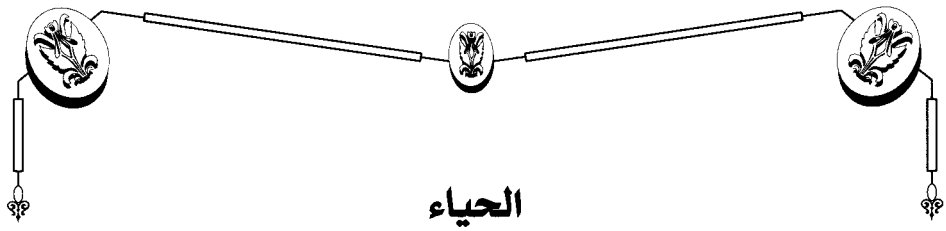

الحياء

جاء الإسلام بتعاليمه السامية وأخلاقه العالية ليبني في نفس كل مسلم السلوك الأمثل الذي يرتقي به إلى أعلى سُلَّم الفضائل ويربأ به عن التمرغ في وحل الرذائل، من أجل أن يكون هذا المسلم نقي الذات باتصافه بمحاسن الصفات واستعفافه عن قبائح العادات.

وكيف لا يكون المسلم كذلك؟ وقدوته في المكارم كلها صاحب الخلق العظيم رسول الله ﷺ الذي مدحه ربه تبارك وتعالى بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم].

ولا عجب في أن يكون عليه الصلاة والسلام صاحب الخلق العظيم وهو الذي أدبه ربه جلَّ شأنه فأحسن تأديبه، فكان ﷺ الأسوة الحسنة لكل مسلم في كمال الأخلاق التي ضرب بها المثل الأعلى وبلغ فيها القدح المعلى.

ومن تلك الأخلاق الكاملة التي كان عليها رسول الله ﷺ خُلُق الحياء الذي انتهى به إلى أن يكون أشد حياء من العذراء في خِدْرها، ففي المتفق عليه عن الصحابي الجليل أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: (كان رسول الله ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه).

وما ذلك إلا لأن الحياء ثمرة من ثمار الإيمان الصادق الخالص من كل زيف وبهتان، ففي المتفق عليه من حديث الصحابي الجليل عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «الحياء من الإيمان».

وفي المتفق عليه أيضاً من حديث الصحابي الجليل أبي هريرة

رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «والحياء شعبة من الإيمان».

فالحياء إذاً خلق يدل على رسوخ الإيمان في قلب المسلم، وينبئ عن سمو النفس وصفاء الفطرة ونقاء السريرة، كما يدل على أدب رفيع وهمة عالية وسلوك نقي تقي.

ولا غرابة في ذلك كله فالحياء جماع لأبواب الخير كما ثبت في الصحيحين عن الصحابي الجليل عمران بن حصين رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «الحياء لا يأتي إلا بخير».

وإذا كان الحياء لا يأتي إلا بخير، فإنّ هذا ميزان دقيق يُكْشَفُ به عن حقيقة إيمان العبد وصدقه في ادعائه ذلك الإيمان، فإن كان ممن يتحاشى الكبائر، ويتجافى عن الرذائل، ويتمعَّر وجهه خجلاً واستياءً من التقصير في أداء حقوق الله تبارك وتعالى فهو المؤمن الحق الذي نوَّر الله سبحانه قلبه بنور معرفته وخشيته وتقواه.

وإن كان ممن يقترف المنكرات وينتهك الحرمات، ويهمل في أداء الواجبات مع بلادة في الشعور واستهتار بالأوامر والنواهي فهو كاذب فيما ادعاه من إيمان، إذ الإيمان والحياء صنوان لا يفترقان، فإذا عُدم أحدهما عُدم الآخر.

إن حقيقة الحياء استعمالُ الجوارح في الطاعة وكفُّها عن المعصية، والسعي للآخرة وترك الركون إلى زينة الدنيا، وذاك لا يكون إلا بالإكثار من ذكر هادم اللذات، فإنّ في هذا ردعاً للنفس عن شهواتها، وزجراً لها عن التمادي في غيها، فتكون نتيجة ذلك صفاء النفس، وإشراقة القلب، وتزكية الجوارح، وسمو الوسيلة، ونُبْل الغاية، وهذا هو الحياء في أنقى صورته وأبهى حلته، ومصداق ذلك ما أخرجه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى عن الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه مرفوعاً: «الاستحياء من الله أن تحفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى، وأن تذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد

استحيا من الله». فالحياء إمساك بزمام النفس عن التفلُّت إلى انتهاك حرمة الشرع، وهو في الوقت نفسه دفع لها إلى تحصيل ما يكون سبباً لها في النجاة من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، وبذلك تتم النعمة بهداية المتصف به إلى الوقوع في كل خير، وتحصل له العصمة من الولوغ في كل شر، بخلاف مَنْ انسلخ من الحياء فإنه لا عاصم له من قواصم التهافت على الرذيلة والتحرر من قيود الفضيلة، فينطلق بلا ضوابط شرعية، ولا آداب مرعية لتحقيق ما تمليه عليه نفسه الأمارة بالسوء، دافعه الهوى ووازعه الشهوة، جاعلاً الشيطان قائده إلى السير في طرق الغواية، ومتخذاً من الأماني الكاذبة رائده إلى الصد عن سبيل الهداية، فيصدق عليه بذلك ما أخرجه الإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه من حديث الصحابي الجليل أبي مسعود البدري رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة إذا لم تستحيّي فاصنع ما شئت».

أي: أنّ عادم الحياء يصنع ما يوحي به إليه هواه دون وازع من ضمير، أو رادع من إيمان، وكفى بهذا السلوك الأرعن خروجاً به عن دائرة الإنسانية إلى دائرة البهيمية، وهو ما حذر منه الحق تبارك وتعالى بقوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف].

* * *

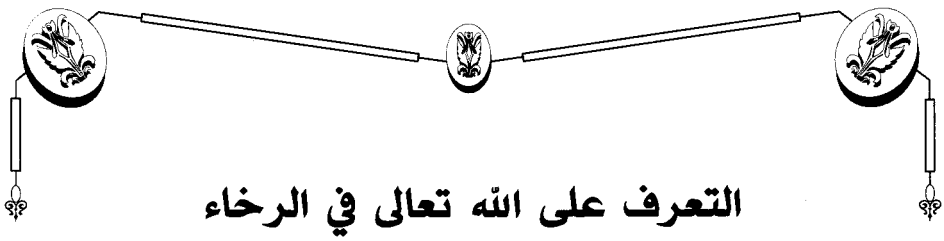

التعرف على الله تعالى في الرخاء

التعرف على الله تبارك وتعالى في حال الرخاء بمراعاة أوامره، والوقوف عند حدوده، والالتزام بشرعه في شؤون الحياة كلها من غير إفراط ولا تفريط هو النجاة من كل سوء وبلاء، والمنقذ من كل ضيق وعناء، وهو سبب في حصول الخيرات ونزول البركات كما قال الحق جلَّ شأنه وعزَّ سلطانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف].

ولقد أرشد النبي ﷺ إلى هذه الحقيقة الناصعة كما دل على ذلك الحديث الذي أخرجه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى بإسناد حسن صحيح عن الصحابي الجليل عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كنت خلف النبي ﷺ يوماً فقال: «يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفت الصحف». وفي رواية عند غير الترمذي: (احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة).

نعم، إنّ مَنْ عرف الله تبارك وتعالى في الرخاء فاتقاه حق التقوى، وراقبه حق المراقبة، وأطاعه حق الطاعة، وآمن به حق الإيمان عرفه سبحانه في الشدة، فيكون معه برعايته وعنايته وولايته وحمايته، يصرف عنه السوء، ويدفع عنه المكروه، ويعوضه خيراً مما أُخذ منه، فيبدِّل بذلك حزنه فرحاً، وشدته فرجاً، وعسره يسراً، رحمة منه وإنعاماً وتكرماً وإحساناً.

ولقد حكى لنا القرآن الكريم الكثير من القصص التي تدل على تحقُّق معية الله تبارك وتعالى ونصرته لعباده المؤمنين الصادقين الذين تعرفوا على ربهم سبحانه في حال الرخاء فعرفهم جلَّ شأنه في حال الشدة والبلاء، فها هو الخليل إبراهيم عليه السلام يُلقى في النار المحرقة فتكون له برداً وسلاماً، كما قال الحق تبارك وتعالى: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنبياء]. وها هو الكليم موسى عليه السلام يتبعه فرعون بجنوده في عرض البحر ليبطش به وبمن آمن معه من بني إسرائيل فتدور عليه الدائرة حيث أغرقه الله سبحانه وأنجى نبيه موسى عليه السلام ومن معه، وفي ذلك يقول جلَّت قدرته: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الشعراء: ٥٣ ـ ٦٦].

وهذا الروح الكريم عيسى عليه السلام حين أراد قومه أن يقتلوه أنجاه الله سبحانه وتعالى من مكرهم، فألقى الشبه على رجل منهم فقتلوه ظناً منهم بأنه عيسى عليه السلام، ورفع الله عز وجل نبيه عيسى إليه تكريماً له وإعلاءً لقدره، وفي ذلك يقول جلَّت قدرته: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء].

وها هو المبعوث رحمة للعالمين نبينا محمد ﷺ حين تكالب عليه قومه وتحزَّبوا لقتاله أنجاه الله سبحانه وتعالى من مكرهم وقذف الذلة في قلوب المنكرين لرسالته والمكذبين بدعوته حتى جبنوا عن لقائه ومنازلته، وفي ذلك يقول

الحق جلَّ شأنه وعزَّ سلطانه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران].

وهذا كله يعطي الدلالة الواضحة على أن الله تبارك وتعالى لا يتخلى عن عباده المؤمنين الصادقين الذين تعرَّفوا على ربهم سبحانه في حال الرخاء، فكانوا على حذر شديد من أن يفقدهم حيث أمرهم أو يجدهم حيث نهاهم، بل كانوا في حال رخائهم على حُسن طاعة، وعلى صِدْق استجابة امتثالاً للأمر واجتناباً للنهي، من غير تضييع للواجبات وانتهاك للحرمات، فكانت معية الله تبارك وتعالى تحيطهم بالرعاية والعناية مصداقاً لقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل].

أما مَنْ تنكَّر لربه جلَّ وعلا في حال الرخاء بالانصراف عن طاعته والانحراف إلى معصيته متناسياً عظمة الله ﷻ وكبرياءه، فإنّ الله سبحانه سيتنكر له حال الشدة فيكله إلى نفسه ويقطع عنه حبل معونته، وحينئذٍ لا يجد له من دون الله سبحانه ولياً ولا نصيراً، وليس أدل على ذلك مما قصه الله تعالى علينا من شأن فرعون حين أدركه الغرق وهو يصارع الموت نادى بأعلى صوته معلناً إيمانه بالله تعالى ومقراً بتوحيده إياه، فلم ينفعه ذلك شيئاً، لأنه كان من أهل الفساد والعصيان حين كان حال الرخاء صاحب الملك والسلطان، وفي ذلك يقول الحق جلَّت قدرته: ﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس].

ولقد ضرب لنا النبي ﷺ مثلاً يؤكِّد هذه الحقيقة، وهو ما أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه من حديث الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله طيب لا يقبل

إلا طيباً... ثم ذكَرَ الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا ربُّ يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يُستجاب له؟).

فالاستجابة من الله تبارك وتعالى باستغاثة العبد في حال كربته وشدته لا تتحقق في دنيا الواقع لمن تنكر لربه سبحانه في حال رخائه وسلامته، وتلك سنة الله ﷻ التي لا تتبدل ولا تتحول. فهل يعي هذه الحقيقة مَنْ أطلقوا لأنفسهم العنان لتحلِّق من غير مبالاة بدين أو خُلُق في أجواء الفسق والعصيان؟ لعلَّ وعسى فإنّ في ذلك مزدجراً لمن ازدجر ومعتبراً لمن اعتبر.

* * *

شروط النصر على الأعداء

إن الهيمنة الإفسادية التي يمارسها أعداء الأمة الإسلامية في وقتنا الحاضر ليست ناشئة في حدِّ ذاتها من قوة أولئك الأعداء فإنهم أضعف ما يكونون في مواجهة المسلمين الصادقين كما أثبتت ذلك وقائع التاريخ عبر الصراع الدائر بين الحق والباطل.

ولكن تلك الهيمنة الإفسادية التي يتولى كِبْرها دول الكفر والإلحاد والطغيان منشؤها وباعثها انهزام المسلمين نتيجة إخلالهم بتحقيق شروط النصر على أعدائهم بسبب إعراضهم عن دينهم وتفريطهم في أداء حقوق ربهم تبارك وتعالى، مصداقاً لقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى].

إن الفئة المؤمنة الصابرة المجاهدة المتمسكة بدينها حق التمسك من الصحابة الكرام رضي الله تعالى عنهم حين أمرهم نبيهم محمد ﷺ في غزوة أحد بالصمود في أماكنهم وعدم التخلي عنها مهما تبدلت الحال، ثم عصوا هذا الأمر النبوي الكريم ـ من غير استخفاف به، بل باجتهاد من تلقاء أنفسهم بعد أن تحقق النصر، ظناً منهم بأن المعركة قد انتهت عند هذا الحد ـ فنزلوا من أماكنهم التي أمرهم النبي ﷺ بالبقاء فيها وعدم مغادرتها حتى يأذن لهم في ذلك، فقد حلّت بهم عقوبة الله تبارك وتعالى العاجلة، فأحاط بهم الأعداء من كل جانب ونزلت بهم الهزيمة حتى أُصيب النبي ﷺ إصابة بالغة، وقُتل عدد كبير من الصحابة الكرام رضي الله تعالى عنهم، كل ذلك بسبب مخالفتهم لأمر واحد من أوامر نبيهم عليه الصلاة والسلام، فكيف بأمة الإسلام في هذا العصر وقد خالفت هَدْي النبي ﷺ في جوانب

كثيرة من أمور حياتها، ومع ذلك كله فهي ترجو النصر على الأعداء والسلامة من جميع أنواع البلاء.

إن النصر على الأعداء لا يمكن أن يتحقق في واقع الحال مع وجود الإعراض عن حقيقة التمسك بدين الإسلام، بل إن النصر على الأعداء له شروطه الأساسية التي لا يتحقق إلا بتوافرها جميعاً، ولْنتنبَّهْ لها جيداً، فلعل استيعابنا لها يكون سبباً في تغيير مسار حياتنا من شرود عن منهج الله تبارك وتعالى إلى التزام حقيقي بذلك المنهج قولاً، وعملاً، واعتقاداً، ونظام حياة.

يقول الحق تبارك وتعالى مبيناً تلك الشروط: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال].

١ ـ الشرط الأول: (الثبات في ميدان القتال)، إذ بهذا الثبات تتحقق وحدة الصف المسلم، وتتجلى قوته، ويظهر تماسكه وائتلافه، وذاك كفيل بزرع الرعب والهلع لدى الأعداء حتى تدب في قلوبهم الهزيمة النفسية قبل حلول الهزيمة الميدانية.

وهذا الثبات أمر محبوب لله تبارك وتعالى، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصف].

ولكنَّ الثبات في ميدان القتال ليس من السهولة بمكان، إنه ثمرة الثبات على دين الله تبارك وتعالى في حال السلم والأمن، فمن ثبت على دينه حال السلم والأمن ثبَّته الله تبارك وتعالى في ميدان القتال، فلا تزلُّ به قدم، ولا ينبو في يده سيف، ولا تضعف له عزيمة، ولا تلين له قناة، كيف لا يكون كذلك؟ والله جل شأنه جعل الملائكة مدداً له كما في قوله سبحانه: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال].

ومن هنا جاءت وصية النبي ﷺ بقوله ـ كما سبق ـ: «تعرَّفْ على الله في الرخاء يعرفك في الشدة».

٢ ـ الشرط الثاني: (الإكثار من ذكر الله تبارك وتعالى)، لأنه طمأنينة للقلب وسكينة للنفس، كما قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد]. ولا شك أن القلوب أحوج ما تكون إلى الطمأنينة وقت الالتحام مع عدو الإسلام في ساحة النزال وميدان القتال.

ولكنَّ هذا الذكر ليس هو وليد الساعة حين لقاء العدو، بل هو امتداد لرصيد سابق، كان القلب فيه موصولاً بالله تبارك وتعالى من غير انقطاع تعظيماً لشأنه وخضوعاً لسلطانه، ومن كان كذلك كان ذِكْره لربه سبحانه وقت المحن والشدائد سبباً في تيسير حوائجه وتفريج نوائبه.

٣ ـ الشرط الثالث: (طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ)، طاعةً تحمل صاحبها على أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأنْ يقدِّم محبوبات الله سبحانه ومحبوبات رسوله عليه الصلاة والسلام على محابِّه كلها، حتى يكون مؤمناً حقاً ومسلماً صدقاً.

ولكنّ السؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل قمنا بطاعة الله ﷻ وطاعة رسوله ﷺ حق القيام حتى نستحق النصر على الأعداء؟.

لا بد لنا من نَقْد الذات ومحاسبة النفس، قبل أن نلوم الأعداء، فإنّ المشكلة نابعة من داخلنا كما دل على ذلك قول الحق سبحانه: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [آل عمران].

فالله سبحانه قدير على نصْر عباده المسلمين إذا حققوا في أنفسهم شَرْط ذلك، وهو قوله سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمد].

ونَصْرُ الله ﷻ إنما يكون بتحقيق الطاعة الكاملة له سبحانه بإخلاص التوحيد، ولرسوله ﷺ بتجريد المتابعة.

٤ ـ **الشرط الرابع**: (عدم التنازع)، فهو سبب رئيس في الفشل، وذهاب القوة، وتفريق الكلمة، وتمزيق الشمل.

والناظر بعين البصيرة في واقع الأمة الإسلامية اليوم يجد أنّ التنازع هو السلوك الذي يسود علاقتها ـ ويا للأسف الشديد ـ مما أتاح الفرصة سانحةً لأعداء الإسلام في الانقضاض على هذه الأمة واستباحة بيضتها.

ولا سبيل لاستعادة الأمة المسلمة لقوتها وعزتها وهيبتها إلا باتحادها جميعاً تحت راية الإسلام، ونَبْذ كل الشعارات المخالفة لمنهج الله تبارك وتعالى وشرعه، وتلك وصية الله عزَّ سلطانه بقوله سبحانه: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣].

٥ ـ **الشرط الخامس**: (الصبر) داخل الميدان وخارجه، داخل الميدان بتحمُّل المشاق في مقاومة الأعداء ومحاربتهم، وخارج الميدان بإعداد القوة المادية المانعة الرادعة عملاً بقوله سبحانه: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنفال: ٦٠].

وإعداد القوة المعنوية، بحيث يهيئ كل مسلم نفسه لأن يكون جندياً لله تبارك وتعالى، من أجل نصرة دينه وحماية شريعته والذب عن كرامة الأمة المسلمة مهما كلَّفه ذلك من ثمن.

فإذا حققت الأمة المسلمة أفراداً وجماعات هذه الشروط كلها أصبحت جديرة بنصر الله تبارك وتعالى، وكانت أهلاً للسيادة والريادة، وصدق الله القائل: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

* * *

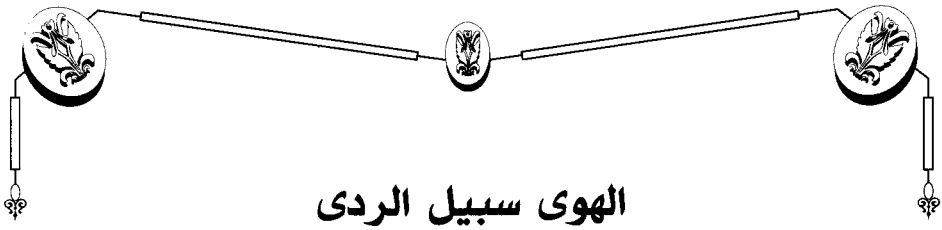

الهوى سبيل الردى

إن اتباع الهوى أساس كل بلاء، ومصدر كل شقاء، لأنه قعود بالإنسان في حضيض الدناءة، وتمريغ له في وحل المعصية والمخالفة، وحينئذٍ يقنع بالثرى ولا يرنو ببصره إلى الثريا، مستعيضاً بالذي هو أدنى عن الذي هو خير، وهذا ما حذر منه الحق تبارك وتعالى حين قال سبحانه وهو يخاطب نبيه ومصطفاه محمداً ﷺ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ ۖ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف].

وكما أن اتباع الهوى قعود بالإنسان عن ركب المعالي فهو كذلك عجز في القوى الروحية يكون مدعاة لوهن العزيمة وضعف الإرادة، حتى تكون النفس رهينة شهواتها، أسيرة أمنياتها، فتعيش في أحلام واهمة وضلالة دائمة، وهذا ما حذر منه طبيب القلوب عليه الصلاة والسلام كما في الحديث الذي رواه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى وحسَّنه عن الصحابي الجليل شَدَّاد بن أوس رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنَّى على الله».

إنّ مَنْ أطلق العنان لهواه فلا يحتكم إلا إليه، ولا يرتضي مسيِّراً لحياته إلا إياه، كان بمنزلة من اتخذ ذلك الهوى إلهاً يُعْبَدُ من دون الله تبارك وتعالى، ومن كان كذلك توعده الله ﷻ بالإضلال والختم على السمع والقلب، وبالغشاوة على البصر حين قال سبحانه: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ

وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية].

وحَسْبُ الهوى مذمة في الدنيا ومذلة في الآخرة أنّ الله تبارك وتعالى شبَّه صاحبه بالكلب الذي هو أحقر أنواع الحيوانات حين قال سبحانه: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف].

وكفى باتباع الهوى عاراً في الدنيا وناراً في الآخرة أنه يضل صاحبه عن سبيل الله تبارك وتعالى الذي وصَّى عباده المؤمنين باتباعه والاستقامة عليه حين قال سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام].

إنّ اتباع الهوى ميل صريح عن هذا الصراط المستقيم إلى السبل الضالة المنحرفة، ومن هنا فقد حذر الحق تبارك وتعالى نبيه داود عليه السلام من اتباع الهوى، وبيَّن له سبحانه أن ذلك طريق للضلال عن سبيله القويم حين قال عزَّ سلطانه: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص].

وكيف لا يكون اتباع الهوى ضلالة عن سبيل الله تبارك وتعالى وهو حاجز بين العبد واستجابته لله عز وجل ولرسوله ﷺ، وهو ما أكده الحق جل وعلا في كتابه العظيم حين قال سبحانه مخاطباً نبيه محمداً ﷺ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص].

نعم، إنّ من يتبع هواه هو من الظالمين، لأن متبع الهوى تَرَكَ الاستجابة لله عز وجل ولرسوله ﷺ التي بها حياة القلوب، كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وآثر على تلك الاستجابة السعي وراء داعي الهوى، وهو داعٍ إلى الموت والهلاك، فكان بذلك ظالماً لنفسه ظلماً فاحشاً.

إن الشيطان حين أيس من رحمة الله تبارك وتعالى حيث كتب الله ﷻ عليه اللعنة المؤبَّدة في الدنيا والآخرة أراد أن يُكَثِّر سواده في النار من بني آدم بإغوائهم عن طريق اتباع الهوى ومجانبة الهدىٰ، فاتخذ بذلك منهم نصيباً مفروضاً، كما قال المولى سبحانه: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾ [النساء].

فقد قطع الشيطان على نفسه عهداً بقوله: ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾، واتباع الهوى يقوم على الأمنيات الكاذبة كما قال النبي ﷺ: «والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله».

ولذلك فإنّ الهوى من أعظم جنود الشيطان التي يسلِّطها على الإنسان متى وجد عنده ضعفاً في الإيمان، وخللاً في العقيدة، ووهناً في صدق التوجُّه إلى الله تبارك وتعالى، وصدوداً عن حُسن المتابعة للرسول ﷺ فيما أمر به ونهى عنه.

فحذار حذار من الهوى، فإنه نفخة شيطانية، ونزغة إبليسية تقود إلى أسوأ العواقب وأوخم النتائج، شقاءً في الدنيا، وبؤساً في الآخرة.

وطريق السلامة من ذلك كله نَهْيُ النفس عن اتباع الهوى، فذاك شأن من خاف مقام ربه تبارك وتعالى ليحظى بالخلود في دار النعيم والكرامة، وليس أدل على ذلك من قول الحق سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات].

* * *

الإسراف

المسلم في جميع تصرفات حياته يجب أن يكون ملتزماً بمنهج الله تبارك وتعالى، وقّافاً عند حدوده في كل صغيرة وكبيرة لا يغادرها تلبيةً لنزعات نفسه، ولا يصادرها إرضاءً لنزغات شيطانه، وهذا هو معنى الإيمان الحق.

والالتزام بمنهج الله تبارك وتعالى كما يعني الصدق في امتثال الأوامر، فهو كذلك يعني الصدق في اجتناب النواهي، وقايةً للنفس من الوقوع في أسباب المعصية التي تقود إلى النار وبئس القرار كما قال الحق جل شأنه: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء].

ومن تلك النواهي التي يقع فيها كثير من الناس، من غير مبالاة بعواقبها الوخيمة في الدنيا والآخرة (الإسراف)، فهو خلق مذموم شرعاً، أخبر الحق تبارك وتعالى بعدم محبته للمتصفين به حين قال سبحانه: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

وكيف يحب جل وعلا المسرفين من عباده وقد وصفهم سبحانه بأقبح الأوصاف حين قال جل شأنه: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإسراء].

ورغم هذا التنفير الشرعي من الإسراف بجميع أشكاله وأحواله فإن كثيراً من الناس في وقتنا الحاضر ـ ويا للأسف الشديد ـ قد أصبح الإسراف جزءاً لا يتجزأ من حياتهم، فهم لا يكادون يفارقونه أبداً في جميع أنماط معيشتهم، أَكْلاً وشُرْباً، ولُبْساً، وسكناً، فهو الأليف إلى نفوسهم، الحبيب

إلى قلوبهم، حتى أصبح من لا يعرف الإسراف في شيء من أنماط حياته هو النشاز بينهم، الخارج عن إطار أعرافهم وعاداتهم، ولربما غُمز ولُمِز، ووُصف بالبخل والتقتير، حتى ينقص قدره عندهم، وتذهب هيبته بينهم فلا يستحق شيئاً من التقدير، وذاك يدل دلالةً واضحة على انتكاس القيم، واضطراب الموازين، وهو أَمْرٌ طبيعي جداً متى حصل الانفلات من قيود المنهج الرباني الحق الذي يزكي القلوب، ويهذب النفوس، ويضبط العواطف والانفعالات، ويرشِّد سلوك المسلم حتى لا يكون حاله شططاً وأمره فُرُطاً.

إنّ نظرة واحدة إلى الولائم والحفلات التي يقيمها كثير من الناس في الأعراس وغيرها من المناسبات تعطي مؤشراً مذهلاً عن خطورة هذا التصرف المشين، حيث إن الأطعمة التي تُعَدُّ لتلك الولائم والحفلات يكون مصير الكثير منها إلى الزبالة، وهو يكفي لتغذية عدد كبير من فقراء المسلمين الذين هم بأمس الحاجة إلى الطعام الذي يشبع جوعتهم ويسد رمقهم.

إن هذا التصرف ـ ولا شك ـ ضَرْبٌ من ضروب كفر النعم، مؤذن بزوالها وفنائها مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم].

وإنّ النعمة لها حرمة عظيمة، فمن حفظها نال الزيادة منها والبركة فيها، ومن أضاعها باء بالحسرة والندم، وهذا ما حذر منه الحق تبارك وتعالى بقوله: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

ولقد أخبرنا جل جلاله بمصائر كفّار النعم حين قال سبحانه: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل].

وحين قال سبحانه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ

مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [القصص].

ومن هنا فقد كان النبي ﷺ كثيراً ما يُحذِّر أصحابه الكرام رضي الله تعالى عنهم من الإسراف في استعمال النعم، فقد روى الإمام أحمد رحمه الله تعالى من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير مخيلة ولا سرف».

نعم، إن الإسلام الحنيف لا يمنع من التمتع بهذه الطيبات من مأكل ومشرب وملبس، فإنّ الحق تبارك وتعالى يقول: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وإنما يمنع الإسلام من الإسراف في التمتع بتلك الطيبات، وما ذلك إلا لأن الإسلام دين الوسطية والاعتدال في كل شيء.

ومن هنا فقد أثنى الحق تبارك وتعالى على سلوك عباده المؤمنين القائم على وسطية الإنفاق حين قال سبحانه في شأنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان].

فما أحرانا أن نتمسك بهذا السلوك الأمثل الذي كان عليه الأتقياء من عباد الرحمن تبارك وتعالى حتى نكون من أهل محبته سبحانه، وحينذاك تحل البركة في أرزاقنا ومعايشنا.

* * *

دفاع الله تعالى عن عباده المؤمنين

يؤكد الحق تبارك وتعالى في كتابه العظيم دفاعه عن عباده المؤمنين في كل زمان ومكان، فيقول سبحانه وهو الصادق في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨].

إن الله ﷻ يدافع عن الذين آمنوا دفاع نصرة وتمكين وتسديد، ودفاع ظهور وغلبة وتأييد.

وذاك الدفاع عن المؤمنين سنة كونية في ميدان الصراع بين الحق والباطل، يقلب الموازين التي تواضع عليها الناس في حساباتهم وتقديراتهم، حتى يصبح الباطل المنتفش والظلم المستبد الذي يُعَدُّ أسطورة لا تُقهر وقوة لا تُهزم، يصبح سراباً لا حقيقة له في دنيا الواقع وعالم الوجود.

وليس أدل على ذلك من حال يهود بني النضير الذين اغترُّوا بقوتهم الضاربة وحصونهم العتيدة المنيعة حتى حسبوا أنها مانعتهم من عذاب الله تبارك وتعالى، فلم تغن عنهم تلك الحصون شيئاً حين كتب الله جلَّت قدرته عليهم الخزي في الدنيا قبل الآخرة بالجلاء التام عن مدينة المصطفى عليه الصلاة والسلام، ويصوِّر الحق تبارك وتعالى في كتابه الكريم هذا المشهد المخزي لليهود ليكون عبرة للمعتبرين فيقول سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ ۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٢﴾ [الحشر].

وليس أدل على ذلك أيضاً من غطرسة عاد وتكبرهم وتجبرهم واغترارهم بقوتهم التي تناسوا بها قوة الله تبارك وتعالى الجبار القهار،

فكانت نتيجة تلك الغطرسة والغرور أن أرسل الله جلت قدرته عليهم الريح الصرصر العاتية عذاباً مخزياً لهم في الدنيا حتى استأصلتهم جميعهم ولم تبق منهم أحداً، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت].

وما طغيان فرعون وجنوده عن الأذهان ببعيد، فقد عثوا في الأرض بكل صلف واستكبار، ظناً منهم بأنهم سيفلتون من قبضة الجبار القهار تبارك وتعالى، فأخذهم جل وعلا بما يستحقه الظالمون المستكبرون، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [القصص].

إنّ دفاع الله عن المؤمنين حقيقة ثابتة زادها الحق تبارك وتعالى توكيداً وتوثيقاً حين أخبر سبحانه بمحاربته مَنْ تجرأ على معاداة أوليائه، ففي صحيح الإمام البخاري رحمه الله تعالى من حديث الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب».

فالله ﷻ يحارب وهو ذو العزة والجبروت كل من ناصب أولياءه العداوة والبغضاء، ومن حاربه الله تبارك وتعالى اندحر وانخزى وباء بالخيبة والخسران، وتلك بشارة عظيمة من الله جل شأنه لأوليائه بالنصرة والعزة والغلبة.

ولكنْ مَنْ أولياء الله الذين يستحقون أن يحارب الله سبحانه من أجل الدفاع عنهم؟.

إنّ أولياء الله تبارك وتعالى هم كل من اتصف بصفتين عظيمتين لا يحيد عنهما ولا يساوم عليهما بأي حال من الأحوال، وتلك الصفتان هما الإيمان والتقوى، فمن آمن بالله تبارك وتعالى حق الإيمان واتقاه حق التقوى كان جديراً بنصرة الله تعالى له ودفاعه عنه فرداً كان أوجماعة، ومصداق ذلك قول الحق سبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس].

نعم، لهم البشرى في الحياة الدنيا بالنصر والتمكين والعاقبة الحميدة، وتلك البشارة قد أكدها سبحانه لعباده المؤمنين المتقين في مواضع كثيرة من كتابه العزيز، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وكما في قوله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

وكما في قوله سبحانه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وكما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر].

وكما في قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات].

وكفى بتلك البشارة الربانية خروجاً بالمسلم من دائرة اليأس والإحباط إلى دائرة استشراف المستقبل الذي سيُمكَّن فيه لهذا الدين بحول الله وقوته بكل ثقة واطمئنان، حتى لا يُصاب بالذلة والهوان، وكيف يذل أو يهون والله جلَّ شأنه يخاطب عباده المؤمنين فيقول: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران].

* * *

الارتباط بين المسجد الحرام والمسجد الأقصا

يقول الحق تبارك وتعالى في محكم التنزيل: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١].

في هذه الآية العظمة من كتاب الله تبارك وتعالى يعلن سبحانه للأمة الإسلامية قاطبة في مشارق الأرض ومغاربها بكل صراحة ووضوح الارتباط الوثيق والصلة القوية واللحمة الكبيرة بين المسجدين العظيمين في الإسلام المسجد الحرام بأرض مكة المكرمة والمسجد الأقصا بأرض فلسطين المباركة.

وهذا الإعلان الواضح والصريح من قبل الحق تبارك وتعالى له دلالته الكبرى وإشارته العظمى في إثارة المشاعر الإيمانية، كما له مغزاه الخطير وتأثيره الكبير في تأجيج العواطف الروحية حباً للأقصا، وتعلقاً به، وفداءً لأرضه الطاهرة التي شُرِّفت غاية الشرف بوطء قدمي المصطفى ﷺ على ثراها الزكي العابق بنسمات الأنبياء والمرسلين عليهم جميعاً أفضل الصلاة وأتم التسليم.

إن هذا الارتباط الوثيق والالتحام العميق بين مسجد القبلة الأولى ومسجد القبلة الثانية يحتِّم على كل مسلم أن يُجِلَّ المسجد الأقصا في سويداء القلب من نفسه، وفي أعماق الوجدان من ضميره، إجلالاً يجعل المسجد الأقصا همَّه الذي يؤرِّق عينيه وهاجسه الذي يقضُّ مضجعه، ويجعله يستشعر دائماً وأبداً أن المسجد الأقصا أمانة الله تبارك وتعالى في عنقه، وأنه مسؤول مسؤولية عظمى عن واجب حمايته وصيانته، ومُحاسَبٌ محاسبة كبرى على تفريطه في هذه الأمانة وتضييعه لها.

كما يحتم عليه أن يجعل من نفسه الحارس اليقظ لصد كل أذى عنه وجَلْب كل نفع إليه، حتى يبقى شامخاً بعزة الإسلام راسخاً بقوة العقيدة والإيمان.

إن الحق تبارك وتعالى لم يبارك حول المسجد الأقصا ليكون مرتعاً سهلاً يعبث فيه عبدة الطاغوت وإخوان القردة والخنازير من اليهود الحاقدين الذين لا يرقبون في مؤمن إلّاً ولا ذمة، بل إن الله تبارك اسمه قد بارك حوله ليكون مزاراً إسلامياً تُشَدُّ إليه الرحال من جميع الأقطار الإسلامية، ففي صحيح الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن الصحابي الْجليل أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تُشَدُّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول ﷺ، ومسجد الأقصا».

وذلك ليُعْبَد الله تبارك وتعالى في رحابه عبادةً تحقق للمسلم قوة العقيدة، وعزة الإسلام، وشرف الإيمان، وصدق الولاء لله جل شأنه ولرسوله ﷺ.

إن الله ﷻ جعل الارتباط وثيقاً بين المسجد الحرام والمسجد الأقصا ليكون ذلك الارتباط رمزاً لتوحيد صف المسلمين، واجتماع كلمتهم، وتآلف قلوبهم، وذاك مكسب عظيم فرط فيه المسلمون نتيجة تفرقهم واختلافهم على أنفسهم، حتى أصبحوا فريسة لأعدائهم الذين تكالبوا عليهم وسيطروا على ما لديهم.

إن وقوع الأقصا رهينة في أيدي اليهود الغاصبين امتحان شديد من الله تبارك وتعالى لأمة الإسلام، لتنهض من كبوتها فتنفض عنها غبار الذلة والمهانة، وتحطم ما في أيديها من قيود الاستسلام والاستكانة.

إن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها وهم يستقبلون المسجد الحرام أكثر من خمس مرات في اليوم والليلة عند أداء صلاتهم يجب أن يكون ذلك الاستقبال مذكِّراً لهم بمسجد القبلة الأولى الذي ما زال يئن بجرحه تحت وطأة اليهود الذين سفكوا الدماء، وانتهكوا الأعراض،

وهدموا البيوت على رؤوس أصحابها نهاراً جهاراً بمرأى ومسمع من العالم المتحضر الذي يدَّعي زوراً وبهتاناً حماية حقوق الإنسان.

ما أحوجنا جميعاً إلى هذا التذكُّر ليظل الأقصا المبارك حياً في قلوبنا، ولتبقى قضية تحريره هي قضيتنا الأولى التي لا نساوم عليها بمال، ولا نداهن فيها بأي حال من الأحوال.

❊ ❊ ❊

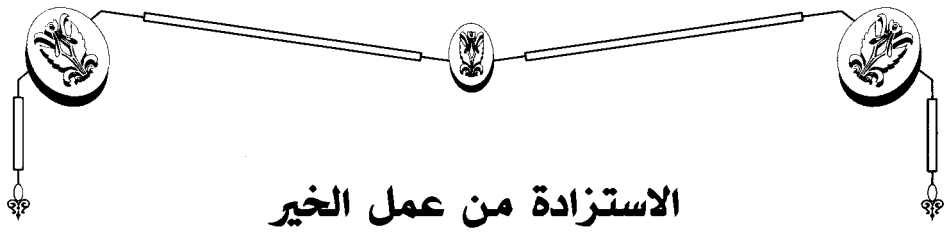

الاستزادة من عمل الخير

الاستزادة من عمل الخير في حال الصحة والفراغ توفيق عظيم من الله تبارك وتعالى يمنُّ به على من يشاء من عباده، وهذا ما أمر به الحق جل شأنه نبيه محمداً ﷺ بقوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨﴾ [الشرح].

أي: في حال فراغك أتعب نفسك في عمل الخير عبادةً وتقرباً إلى ربك جلَّ شأنه.

وهو أيضاً ما أمر الله تبارك وتعالى به أمة نبيه محمد ﷺ حين خاطبها بقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٧٧﴾ [الحج].

بل إن الحق تبارك وتعالى أمر عباده المؤمنين بالمسابقة في عمل الخير تنافساً في ميادين الحصول على درجات القرب منه والزلفى لديه، فقال سبحانه: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨].

ومن أجل أن يكون المؤمن مطمئناً إلى أن عمله الخيري لن يضيع سدى قَلَّ أو كثر فقد أكّد الحق تبارك وتعالى لعباده المؤمنين بأن ما عملوه من خير ولو كان مثقال ذرة فإنهم سيرونه فقال سبحانه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧﴾ [الزلزلة].

أي: سيرون ثوابه عظيماً موفوراً، وما ذلك إلا لأن الله تبارك وتعالى لا يضيع عمل عامل لطفاً منه وتفضلاً على عباده، وهذا ما أخبر به سبحانه في قوله: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وفي قوله جل شأنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠].

وفي قوله عزَّ سلطانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾ [الكهف: ٣٠].

وكيف يضيع سبحانه أجر فعل الخير وهو الذي قطع على نفسه وَعْداً بمضاعفة الحسنة بعشر أمثالها، كما قال سبحانه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

إن كل إنسان مشغول في هذه الحياة، ولا يوجد إنسان البتة عاطل عن شغل، فإما أن يكون مشغولاً بعمل الخير، وإما أن يكون مشغولاً بعمل الشر، وما ذلك إلا لأن الله تبارك وتعالى هَدَى كل إنسان إلى ما أراده له، ومصداق ذلك قوله سبحانه: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد].

ويؤكده ما أخرجه الشيخان البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى عن الصحابي الجليل علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «اعملوا فكل ميسر لما خُلق له».

فأهل السعادة يسَّرهم تعالى لعمل الخير، وأهل الشقاوة يسَّرهم سبحانه لعمل الشر.

وإذا كان كل إنسان مشغولاً في هذه الحياة فإنّ من اشتغل بعبادة الله ملأ تعالى قلبه شُغلاً به حتى يكفيه ما أهمَّه، ومن اشتغل بغير عبادته سبحانه ملأ قلبه شغلاً بغيره، فيكون بمنزلة من يسعى إلى سراب خادع لا يزداد به إلا حسرة وندماً. أخرج الإمام ابن ماجه رحمه الله تعالى في سننه عن الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله تعالى عنه مرفوعاً: «يقول الله سبحانه: يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسدُّ فقرك، وإنْ لم تفعل ملأت صدرك شُغلاً ولم أسدَّ فقرك».

إن التنافس في عمل الخير والتقاعس عنه دليل الإيمان والنفاق، فالمؤمن لا يزال يجاهد نفسه للانتقال من عمل خير إلى آخر في سعي

لايعرف كللاً، وبهمة لا يعتورها خور ولا فتور، فهو لا يزال في تجارة رابحة مع ربه تبارك وتعالى، ولا يشبع من خير أبداً حتى يكون منتهاه الجنة.

وأما المنافق فهو الذي يتردد كثيراً في الإقدام على عمل الخير، ففي مجال (الذكر) لا يذكر الله تبارك وتعالى إلا قليلاً، وفي مجال (الصلاة) لا يأتي إلى أدائها إلا وهو كسل، وفي مجال (الإنفاق) لا ينفق إلا مع الكراهية الشديدة للبذل في سبيل الله تبارك وتعالى، وهذا ما أخبر به العليم الخبير جل شأنه بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء].

وبقوله سبحانه: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [التوبة].

إن الدنيا مزرعة الآخرة، وإذا استغل المسلم دنيا وجوده بالازدياد من عمل الخير فإنه بذلك يمهِّد لنفسه طريق النجاة والسعادة والفلاح في الدنيا والآخرة.

أما في الدنيا فتتحقق له معية الله تبارك وتعالى التي تقيه مصارع السوء وتقلبات الحياة، وليس أدل على ذلك مما أخرجه الإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه من حديث الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قال: وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته، ولئن استعاذني لأعيذنَّه».

وأما في الآخرة فإنه حين يوضع في قبره يُعْرَضُ عليه مقعده من الجنة بالغداة والعشي ليكون مؤانساً له، فتقرُّ بذلك عينه وتُسرُّ نفسه لأنه اطمأن إلى رحمة ربه تبارك وتعالى، فقد أخرج الإمام البخاري رحمه الله تعالى في

صحيحه حديث الصحابي الجليل عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحدكم إذا مات عُرِضَ عليه مقعده بالغداة والعشي إنْ كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إلى القيامة».

وحين يقوم من قبره لفصل القضاء تتلقاه ملائكة الرحمة لتبشره بموعود الله تبارك وتعالى وهو الخلود في جنات الكرامة والنعيم، وليس أدل على ذلك من قول الحق سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء].

فإذا أراد المسلم الحياة الطيبة في الدنيا، والحياة السرمدية السعيدة في الأخرى فليحرص على الاستزادة من عمل الخير بعد المحافظة على فرائض الدين، فإنّ الحق تبارك وتعالى قد بشَّر مَنْ كان حاله كذلك بقوله سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل].

* * *

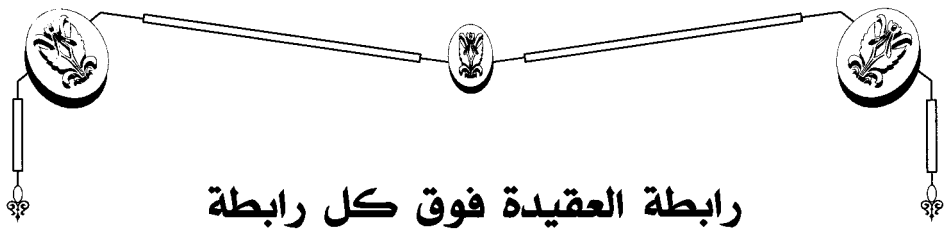

رابطة العقيدة فوق كل رابطة

ينادي نبي الله تعالى نوحٌ عليه السلام ربه سبحانه بعاطفة جياشة، وقلبه مملوء بحنان الأبوة، يناديه جلَّ وعلا خاشعاً ضارعاً من أجل أن ينجي ابنه من الهلاك بالطوفان الذي أخزى الله تبارك وتعالى به المكذبين المعاندين لهذا النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، ناداه جل شأنه بما ذكره سبحانه عنه في كتابه الكريم حين قال: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [هود].

فماذا كان الجواب الرباني لهذا النبي الكريم عليه السلام الذي علَّق رجاءه في إنجاء ابنه من العذاب بربه تبارك وتعالى الذي يغيث الملهوف، ويجيب المضطر، ويكشف السوء؟.

كان الجواب الرباني قاطعاً حاسماً: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦].

كيف يا ربّاه لا يكون من أهله وهو ابنه، وفلذة كبده، ومِنْ لحمه ودمه؟.

فيأتي التعليل الرباني من أحكم الحاكمين تبارك وتعالى بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود: ٤٦].

وفي قراءة: (إنه عَمِلَ غيرَ صالح)، وذلك لأنه ترك دين أبيه القائم على التوحيد الخالص لله رب العالمين تبارك وتعالى وآثر الكفر على الإيمان صدوداً عن صراط الله المستقيم، وإعراضاً عن منهجه القويم.

فماذا كان موقف الأب المشفق الحاني نوح عليه السلام بعد سماع هذا التعليل الرباني، وبعد عتاب الله تبارك وتعالى له بقوله سبحانه: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]؟.

كان موقفه أن قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [هود].

وهذا دائماً وأبداً هو موقف المؤمنين الصادقين في إيمانهم، النزولُ على حكم الله تبارك وتعالى بالتسليم المطلق والإذعان الكامل الذي لا مشاقَّة فيه ولا جدال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ﴾ إعلان رباني صريح لا لبس فيه، وبيان إيماني واضح لا غبار عليه لنبي الله نوح عليه السلام، بل لكل البشر إلى قيام الساعة بأنّ رابطة العقيدة والدين فوق رابطة النسب ورابطة التراب والطين، تلك الرابطة الحقيقية التي وثّق الحق تبارك وتعالى عراها في قلوب المسلمين جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها حين قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

تلك الرابطة الحقيقية التي أعلى الحق تبارك وتعالى بنيانها شامخاً راسخاً في واقع أمة الإسلام حين قال سبحانه: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ﴾ [التوبة: ٧١].

تلك الرابطة الحقيقية التي عظم الله تبارك وتعالى شأنها ورفع مكانتها حين قرنها بولايته وولاية رسوله محمد ﷺ حيث قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة].

تلك الرابطة الحقيقية التي تجعل المسلمين مهما نأت بهم الديار وتباعدت بهم الأقطار جسداً واحداً لا يستغني بعضه عن بعض كما ثبت في الصحيحين عن الصحابي الجليل النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

تلك الرابطة الحقيقية التي يلتقي على مائدتها كل من آمن بالله تبارك

وتعالى رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، فيحرص كل مؤمن على أن يقدم لأخيه المؤمن ما يحب تقديمه لنفسه، فلا ينأى بمصلحته وحده عن الاهتمام بمصالح إخوانه المؤمنين فإنّ ذلك منافٍ لحقيقة الإيمان، كما ثبت في الصحيحين عن الصحابي الجليل أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

ما أحوج المسلمين جميعاً إلى أن يستشعروا في أعماق قلوبهم أهمية هذه الرابطة الحقيقية التي أعلنها الحق تبارك وتعالى في كتابه العظيم، وأكد دعائمها المصطفى الأمين عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم في سنته المطهرة.

ما أحوجهم إلى أن يجسِّدوا تلك الرابطة الحقيقية واقعاً ملموساً محسوساً في دنيا وجودهم، حتى يكونوا أمة قوية الشوكة، مرهوبة الجانب، وبذلك تتحقق لهم العزة والغلبة والتمكين.

حقوق المرأة في الإسلام

جاء الإسلام الحنيف بتشريعه الحكيم فرفع عن المرأة الظلم الذي كان يقع عليها في الجاهلية، ووضعها في مكانها المرموق الذي يضمن لها رعاية حقوقها كاملة غير منقوصة، تكريماً لها وإعلاءً لشأنها، ومن تلك الحقوق التي ضمنها الإسلام للمرأة المسلمة ما يلي:

أولاً: (رعايتها أُمّا):

وتمثلت تلك الرعاية بإعطاء الحقوق الآتية:

١ - وجوب برها، والإحسان إليها، لقوله سبحانه: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [الأحقاف: ١٥].

ولقوله سبحانه: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤].

٢ - تَرْكُ الجهاد في سبيل الله تبارك وتعالى إذا تعارض مع القيام بواجب رعايتها، ففي الصحيحين من حديث الصحابي الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما قال: جاء رجل فاستأذن النبي ﷺ في الجهاد. قال: «أَحَيٌّ والداك؟» قال: نعم. قال: «ففيهما فجاهد».

٣ - تحريم عقوقها، ففي المتفق عليه من حديث الصحابي الجليل المغيرة بن شعبة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى حرَّم عليكم عقوق الأمهات».

ثانياً: (رعايتها بنتاً):

وتمثلت تلك الرعاية في حقوق من أهمها:

١ ـ وجوب القيام على نفقتها، والإحسان إليها، ومن فعل ذلك فقد استحق أعظم الثواب، ففي صحيح الإمام مسلم رحمه الله تعالى من حديث الصحابي الجليل أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «مَنْ عال جاريتين حتى يبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين» وضَمَّ أصابعه.

٢ ـ الاستبشار بولادتها، وعدم الاستياء من ذلك، فمن استاء من ولادتها ـ كما هو حال بعض الناس ـ كان حاله كحال أهل الجاهلية الذين أنكر الحق تبارك وتعالى صنيعهم بقوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل]. ومن استبشر بولادة البنات، وجعل من ذلك الاستبشار حافزاً له على حُسن رعايتهن استحق بذلك العتق من النار، ففي المتفق عليه من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبي ﷺ قال: «من ابتُلي من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن كنَّ له ستراً من النار».

٣ ـ تحريم تضييع حق البنات، والإهمال في القيام بشؤونهن، ففي سنن الإمام النسائي رحمه الله تعالى بإسناد جيد من حديث الصحابي الجليل أبي شريح خويلد بن عمرو الخزاعي رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «اللهم إني أُحَرِّج حق الضعيفين اليتيم والمرأة». ولفظ «المرأة» هنا عام، فتدخل البنات في عمومه.

ثالثاً: (رعايتها أختاً وعمة وخالة):

وأهم ما تتمثل فيه تلك الرعاية أمران:

١ ـ وجوب صلتهن، لقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ [الرعد: ٢١].

وفي المتفق عليه من حديث الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه».

٢ ـ تحريم قطيعتهن، لقول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد].

وفي المتفق عليه من حديث الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلكِ وأقطع من قطعك؟ قالت؟ بلى، قال: فذلك لك».

رابعاً: (رعايتها زوجة):

وتتمثل في عدد من الحقوق من أهمها:

١ ـ وجوب معاشرة الزوج لها بالمعروف من غير إساءة لها في المعاملة، وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩].

وفي المتفق عليه من حديث الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «استوصوا بالنساء خيراً».

٢ ـ تحريم قربان الزوجة في حال الحيض، لأن ذلك يسبب لها الأذى والإزعاج، ومن هنا فقد أمر الحق تبارك وتعالى باعتزال النساء في هذه الحال فقال سبحانه: ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

٣ ـ تحريم إمساك الزوج لزوجته من غير طلاق إذا كره عشرتها بقصد الإمعان في الإضرار بها، وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ٢٣١].

٤ ـ وجوب الإنفاق عليها من قبل الزوج، فقد أخرج الإمام الترمذي رحمه الله تعالى بإسناد حسن صحيح عن الصحابي الجليل عمرو بن الأَحْوَص الجُشَمي رضي الله تعالى عنه أنه سمع النبي ﷺ في حجة الوداع يقول: «ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن».

٥ ـ اجتناب تأديبها خارج البيت مراعاةً لمشاعرها وحفظاً لكرامتها، فقد أخرج الإمام أبو داود رحمه الله تعالى بإسناد حسن عن الصحابي الجليل معاوية بن حَيْدة رضي الله تعالى عنه قال: قلتُ يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال: «أنْ تطعمها إذا طَعِمْتَ، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبِّح، ولا تهجر إلا في البيت».

٦ ـ وجوب العدل بين الزوجات في حال التعدد، وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً﴾ [النساء: ٣].

خامساً: (رعاية حقوقها العامة):

ومنها:

١ ـ تحريم عَضْلها من قبل وليها، وهو حرمانه لها من حقها في الزواج، وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

٢ ـ إبطال الإسلام لعادة الجاهلية من إرث المرأة رغم أنفها بعد موت عائلها، وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ﴾ [النساء: ١٩].

٣ ـ وجوب إعطائها حقها من الميراث، وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۖ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: ٧].

ويقول سبحانه: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ﴾ [النساء: ١١].

٤ ـ إعطاؤها الحق في تملُّك المال والتصرف فيه، وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾ [النساء: ٣٢].

سادساً: (مراعاة الإسلام لضعفها البشري):

وخيرمثال لذلك عدم تكليفها بالصلاة والصيام في حال حيضها مراعاة لحالتها النفسية في هذا الظرف الذي تمر به.

وكذلك إسقاط وجوب الجمعة والجماعة والجهاد عنها تخفيفاً وتيسيراً.

وفي مراعاة هذه الحقوق إلقام الحجر لكل من يتفوَّه بكلمة نابية يطعن بها الإسلام، أو يلمز بها أحكامه وتوجيهاته، فليس هناك تشريع على وجه الأرض هو أنصف لحق المرأة من تشريع الإسلام على الإطلاق، فهل يعي هذه الحقيقة من يهذي بما لا يدري؟.

* * *

الرفق

الرفق في معالجة الأمور، وفي التعامل مع الأهل والأولاد والأقرباء وعموم الناس سلوك حسن، وخلق فاضل، ينبئ عن ذوق رفيع، ويدل على طبع سليم، ومن أجل ذلك كله فقد رفع الإسلام الحنيف من شأنه وأعلى من قدره حين جعله رأساً في منظومة مكارم الأخلاق ومحاسن الصفات.

فبالرفق يُحْسِنُ المسلم التصرف في التعامل مع ما يجدُّ في حياته من مواقف ووقائع، مما يجنِّبه مغبة الندم على التصرفات الرعناء التي يكون منشؤها العنف والطيش والحمق والسفه.

وبالرفق يتحلَّى المسلم بالحكمة والتعقُّل وبُعْد النظر في كل ما يصدره من قرارات، أو يتخذه من إجراءات، وذاك يقود إلى إتقان العمل وتجنُّب الزلل، كما يقود إلى وَضْع الأمور في نصابها، إذ الرفق ضمان للعقول من الانحراف عن صوابها.

ولهذا فإنّ الرفق خُلُق محبوب إلى الله تبارك وتعالى، ففي الحديث المتفق عليه عن أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله».

ولكون الرفق خلقاً محبوباً إليه سبحانه فإنه تعالى يعطي عليه من الثواب العظيم ما لا يعطيه على غيره، ففي صحيح الإمام مسلم رحمه الله تعالى عن أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبي ﷺ قال: «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على ما سواه».

ولترسيخ مفهوم الرفق في حياة كل مسلم، وغَرْسه في أعماق وجدانه

حتى يكون سلوكه الذي لا يرضى بديلاً سواه فقد جاءت نصوص الشرع المطهر في الكتاب والسنة بالدعوة إلى التحلي بمكارم الأخلاق التي لا تنفك عن الرفق بحال من الأحوال، ومن ذلك التعامل مع الناس باللين والسهولة واليسر، فإنّ من اتصف بهذه الصفات حرَّمه الله تبارك وتعالى على النار، ففي الحديث الذي أخرجه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى وحسَّنه عن الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بمن يَحْرُمُ على النار، أو بمن تحرم عليه النار؟ تحرم على كل قريب هيِّن لَيِّن سَهْل».

ومن ذلك كظم الغيظ، ليكبح المسلم جماح نفسه حتى لا يقودها الغضب إلى ما لا تُحمد عُقباه من الأعمال والأقوال، وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى في صفات عباده المتقين: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران ١٣٤]. وفي الصحيحين من حديث الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أوصني، قال: «لا تغضب».

ومن ذلك العفو عن المسيئين، والإعراض عن الجاهلين، كما في قول الحق تبارك وتعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف].

وكما في قوله سبحانه في صفات أهل التقوى والإيمان: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

ومن ذلك مقابلة السيئة بالحسنة، لتحل المحبة والإخاء محل العداوة والبغضاء مما يكون سبباً في محو آثار تفكك المجتمع المسلم وتداعيه، وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت].

وهذا كله جزء لا يتجزأ من الصبر على أذى الناس الذي يُعَدُّ من

عزائم الأمور التي لا يقدر عليها إلا عظماء الرجال، كما قال الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى]. ومن ذلك التحلي بالحلم والأناة، تلك الخصلتان العظيمتان اللتان يحبهما الله تعالى، ففي صحيح الإمام مسلم رحمه الله تعالى من حديث الصحابي الجليل عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ قال لأشج عبد القيس: «إن فيك خصلتين يحبهما الله الحلم والأناة».

ومن ذلك حُسن معالجة الأمور بالحكمة والروية، فقد أخرج الإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه حديث الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: بال أعرابي في المسجد فقام الناس إليه ليقعوا فيه، فقال النبي ﷺ: «دعوه وأريقوا على بوله سَجْلاً من ماء، أو ذَنُوباً من ماء، فإنما بعثتم ميسِّرين ولم تبعثوا معسِّرين».

وهكذا تمضي بنا النصوص الشرعية الصريحة الصحيحة إلى تقرير هذا السلوك العظيم وتوثيق عراه في قلب كل مسلم ومسلمة، حتى يكون السمة البارزة لدى المؤمنين في تعاملهم مع الآخرين، وفي معالجتهم لجميع الأمور التي يمارسونها في واقع حياتهم.

وكفى بالرفق خُلقاً وسلوكاً ما أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه عن أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبي ﷺ قال: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُنزع من شيء إلا شانه».

وكفى بالرفق جامعاً لأبواب الخير كلها ما أخرجه الإمام مسلم أيضاً في صحيحه عن الصحابي الجليل جرير بن عبد الله رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ يُحرم الرفق يُحْرم الخير كله».

وكفى بالرفق شرفاً وفخراً للمسلم في الدنيا والآخرة أنه خُلُق أفضل الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله عليه أزكى الصلاة وأتم التسليم الذي قال ربه تبارك وتعالى في شأنه: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

والذي قال سبحانه في شأنه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم].

وحري بالمسلم أن يحذو حذو نبيه ﷺ في كل خلق تخلق به، فإنه عليه الصلاة والسلام القدوة الصالحة والأسوة الحسنة لكل الأمة، كما قال الحق تبارك وتعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب].

* * *

التافه ينطق في أَمْر العامة

في الحديث الذي أخرجه الإمام ابن ماجه رحمه الله تعالى في سننه عن الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سيأتي على الناس سنوات خدَّاعات يُصَدَّق فيها الكاذب، ويُكذَّب فيها الصادق، ويُؤْتَمَنُ فيها الخائن، ويُخَوَّن فيها الأمين، وينطق فيها الرُّوَيْبِضَةُ. قيل: وما الرويبضة؟ قال: الرَّجُل التَّافِهُ في أَمْر العامة).

الرجل التافه كما ثبت في اللسان العربي هو (الحقير الخسيس). والرجل لا يوصف بذلك إلا حين يكون قليل الدين، ساقط العدالة، سفيه الرأي.

وإذا كانت سفاهة الرأي سبباً في تفاهة المرء فما أكثر السفهاء في وقتنا الحاضر الذين يتكلمون في أمر العامة، حيث نصَّبوا أنفسهم أوصياء عليهم وأولياء لأمورهم من غير أن يطالبهم الناس بذلك، بل هو فضول منهم بكل جرأة ودناءة، ويا ليتهم حين فعلوا ذلك انبروا للدفاع عن مصالح الناس والمطالبة بتأمين حقوقهم، بل إنهم بدلاً من أن يتكلموا دفاعاً عن تلك المصالح وتأميناً لتلك الحقوق تطاولت أقلامهم وطاشت ألسنتهم بالكلام عن كل ما يشوِّش على المسلمين أفكارهم، ويلوِّث أخلاقهم، ويدنِّس أعراضهم، ويمسُّ دينهم وعقيدتهم، كل ذلك تحت شعارات برّاقة وبأساليب رنّانة يخفون من ورائها حقدهم الدفين على الإسلام والمسلمين، فهم في واقعهم وحقيقة أمرهم ليسوا نُصحاء للأمة ولا أُمناء على مصالحها، بل هم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها.

وحين يكون أولئك الرويبضون هم المصدَّقين في أقوالهم، المؤتمنين في أفعالهم، المسوَّدين على الناس في دوائر رعاية المصالح والحقوق فإنّ

عاقبة ذلك تضييع الواجبات، وهَدْر الكرامات، ونَسْف الحريات انسياقاً خلف الهوى وإيثاراً للباطل على الهُدى، مما ينتج عنه فساد المجتمع، واضطراب الأمور، وانعدام العدل، وفشو الظلم، وذلك سبب رئيس من أسباب التمرد على منهج الله تبارك وتعالى، والخروج على وحيه وشرعه.

إنّ النبي ﷺ حين يخبرنا في هذا الحديث عن الحال المؤسفة التي ستكون عليها أمة الإسلام في آخر الزمان مما ستكون سبباً في تخلفها وضعفها وتسلط الأعداء عليها لا يريد منا عليه الصلاة والسلام أن نستسلم لتلك الحال ولذلك الواقع فنقف مكتوفي الأيدي من غير محاولة جادة للإصلاح والتقويم، بل إنه يريد منا عليه الصلاة والسلام أن نتنبَّه لخطورة تلك الحال المؤلمة، وأنها سوسة تنخر في جسم الأمة، لا يمكنها أن تتعافى منها إلا إذا تكاثفت جهودها لتنقية مجتمعاتها من كل رويبضة يحاول جهد طاقته التربص بالأمة المسلمة عن طريق النيل من دينها، والعبث بأخلاقها، والاستهانة بقيمها ومثلها، حتى تستعيد الأمة عافيتها فتنهض قوية شامخة راسخة للوقوف بكل صلابة وحزم وتماسك في وجوه أعدائها الذين كشّروا عن أنيابهم في القضاء على معتقداتها وموروثاتها.

إن الأمة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها مطالبة اليوم أكثر من كل وقت مضى بأن تطهر مجتمعاتها من هذا الخبث الذي يعصف بها في الداخل أكثر من عصف أعدائها بها في الخارج، فإنّ هذه الأمة ويالالأسف الشديد لم تُغْزَ إلا من قِبَل أنفسها، وهي التي مكَّنت عدوها من أن يصيب المقتل منها حين تساهلت في أساسيات دينها، ومقوِّمات أخلاقها، ودعائم أمنها.

إنّ إخبار النبي ﷺ أمته بما سيؤول إليه حالها في آخر زمانها هو تحذير صريح منه عليه الصلاة والسلام بأن تلك الحال سبب في شقائها وتعاستها إنْ لم تعمل جاهدةً على الأخذ على أيدي السفهاء، فهل تتنبَّه أمة الإسلام في المشارق والمغارب لهذا التحذير النبوي الكريم لتقي أنفسها ومجتمعاتها شر الأشرار وكيد الفجار؟.

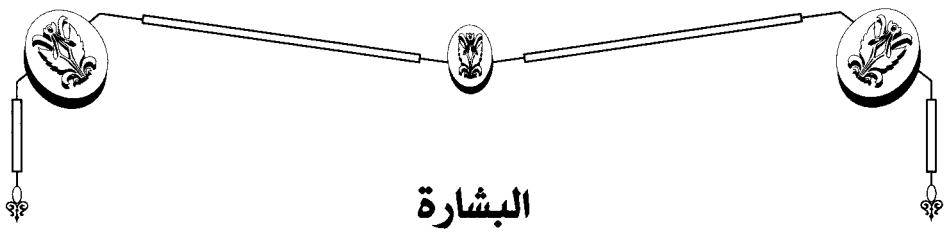

البشارة

لفظ «البشارة» من الألفاظ التي تتشنَّف الآذان بسماعها فترتاح لها النفوس وتطمئن إليها القلوب، وما ذلك إلا لأن البشارة مصدر من مصادر السعادة التي يسعى الإنسان غاية جهده لتحقيقها في واقع نفسه ودنيا وجوده حتى ينعم بحياة هادئة وعيشة هانئة بعيدة عن أسباب النكد والتنغيص التي تقضُّ المضاجع وتكدِّر صفو العيش.

وأسباب البشارة كثيرة وكثيرة، قد بسطها الحق تبارك وتعالى في كتابه العظيم وتنزيله الحكيم لتكون حافزاً قوياً للعباد إلى سلوك سبل الهداية والرشاد.

ومن تلك الأسباب (الإكثار من الأعمال الصالحة) التي يُبْتَغَى بها وجه الله تبارك وتعالى، ومصداق ذلك قوله سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩﴾ [الإسراء].

وهذا الأجر الكبير هو الفوز بجنات عرضها السموات والأرض كما قال سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥].

وكما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَٰتِ ٱلْجَنَّٰتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ۝٢٢ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ﴾ [الشورى: ٢٢ ـ ٢٣].

ومن تلك الأسباب (الجهاد في سبيل الله تعالى) بالأموال والأنفس، لرفع راية الإسلام، وإعزاز شأن المسلمين، ودَحْر أعداء الملة والدين،

ومصداق ذلك قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [التوبة]. وقوله سبحانه: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة].

ومن تلك الأسباب (الصبر) على أقدار الله تبارك وتعالى من غير جزع ولا تسخط، ومصداق ذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة].

ومن تلك الأسباب (القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) الذي تُحفظ به حدود الله تبارك وتعالى من أن تُهان أو تُستباح، ومصداق ذلك قوله سبحانه: ﴿ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

ومن تلك الأسباب (المحافظة على الصلوات الخمس وإقامتها الإقامة الشرعية الصحيحة)، ومصداق ذلك قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧].

ومن تلك الأسباب (الإحسان) في كل شيء مما يتعلق بحقوق الله تبارك وتعالى وحقوق الخلائق، ومصداق ذلك قوله سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٣٧].

ومن تلك الأسباب (الإنابة إلى الله تعالى) بالتوبة النصوح من جميع المعاصي والذنوب، ومصداق ذلك قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾﴾ [الزمر].

ومن تلك الأسباب (خشية الله تعالى بالغيب)، وذاك بمراقبته والحذر من عقوبته حال الخلو بالنفس، ومصداق ذلك قول الحق جل شأنه: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [يس].

ومن تلك الأسباب (الاستقامة على منهج الله تعالى) بالانقياد لشرعه، والثبات على الإيمان به سبحانه، ومصداق ذلك قوله جلَّ جلاله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت].

ومن تلك الأسباب (تقوى الله ﷻ) في جميع الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، ومصداق ذلك قوله سبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس].

هذه بعض أسباب تحقق البشارة للعبد المؤمن، مَنْ سعى لتحصيلها وجاهد نفسه على اكتسابها فاز في الدنيا بتوفيق الله تبارك وتعالى، وفي الآخرة برضوانه سبحانه حين يقوم من قبره فرحاً مستبشراً بما أُعِدَّ له من النعيم والكرامة كما قال جل شأنه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾ [عبس].

* * *

الاستغفار

إن الظفر برحمة الله تبارك وتعالى في الدنيا والآخرة أمل يراود كل مسلم، وأمنية غالية يسعى إلى تحقيقها كل من أراد أن تنعم نفسه بطيب الحياة في العاجلة وأن تقر عينه بسعادة النعيم في الآجلة، ذلكم أن من ظفر برحمة الله ﷻ فقد حظي بعفوه ورضوانه مما يحقق له الفوز بالدرجات والنجاة من الدركات.

وقد شاء الله تبارك وتعالى أن يكون لكل شيء سبب، وللظفر بالرحمة سببه الذي لا يتحقق إلا به بعد عون الله ﷻ وتوفيقه، ومن أسباب ظفر العبد برحمة ربه تبارك وتعالى (الاستغفار) كما قال جل شأنه في شأن نبيه صالح عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [النمل]. فالاستغفار مجلبة للرحمة بجميع أشكالها وأحوالها، فهو أمان من العذاب، كما قال سبحانه لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال]. وهو سبب في نزول الغيث وكثرة الأموال والأولاد، كما قال سبحانه عن نبيه نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح].

وهو سبب في مد العبد بالقوة التي يتغلب بها على دواعي الهوى ونزغات الشيطان، كما قال سبحانه عن نبيه هود عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢].

وهو تفريج للهم وسعة في الرزق، ففي الحديث الذي أخرجه الإمام أبو داود رحمه الله تعالى عن الصحابي الجليل عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ قال «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجاً ومن كل همٍّ فرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب».

وهو كفارة للذنوب مهما عظمت، فقد أخرج الإمام الحاكم رحمه الله تعالى في مستدركه وصححه حديث الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «من قال: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غُفرت ذنوبه وإنْ كان قد فرَّ من الزحف».

وإنما كان للاستغفار هذا الفضل العظيم لأنه برهان ساطع على استكانة القلب وخشوعه واستحضاره لعظمة علَّام الغيوب تبارك وتعالى، فالعبد حين يسأل ربه جل وعلا المغفرة فإنه يكون بذلك في مقام الذلة والانكسار بين يدي الجبار القهار الذي لا تخفى عليه من ذنوب العباد خافية، وكيف تخفى عليه من هذه الذنوب خافية وهو القائل سبحانه: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ [آل عمران].

والقائل سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأنعام].

والقائل سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠].

إن الاستغفار سبيل قويم للتحرر من ربقة الذنوب والآثام، كما أنه وسيلة عظمى لتطهير النفس من لوثة الطغيان والإجرام، وبذلك يفوز المسلم بالفلاح الذي ينجيه من العطب والهلاك، كما قال الحق تبارك وتعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس].

ومن رحمة الله تبارك وتعالى بعباده أنْ وعدهم بمغفرة ذنوبهم إذا

استغفروه مما زلت به أقدامهم، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء]. ولكنَّ الاستغفار لا يكون صادقاً إلا إذا صاحبه الإقلاع التام عن الذنب المرتكب، وإلا أصبح استغفاراً كاذباً، فإذا صاحب الاستغفار الإقلاع التام عن الذنب كان المستغفر جديراً بمغفرة الله تبارك وتعالى له وإجزال ثوابه عليه، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [آل عمران].

فيجب على المسلم أن يقلع عن الذنوب، وأن يكثر الاستغفار منها مقتدياً في ذلك بنبي الرحمة والهدى عليه الصلاة والسلام الذي كان يداوم على الاستغفار ويكثر منه وهو الطاهر المطهر والتقي النقي، فقد أخرج الإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه حديث الصحابي الجليل الأغر المزني رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة».

فإذا كان هذا هو حال النبي ﷺ وهو المعصوم من المعاصي يكثر من الاستغفار فنحن بلا شك أحوج إلى هذا الاستغفار لكثرة إسرافنا على أنفسنا في الشر وقلة بضاعتنا في الخير.

* * *

الولاء والبراء

الولاء والبراء في الإسلام هما من أعظم عُرى الإيمان، والمسلم لا يبلغ درجة الإيمان حتى يحقق هذا الأصل العظيم من أصول الإسلام على ضوء منهج الكتاب والسنة، بحيث يوالي المؤمنين محبةً وتآخياً ونصرة، كما قال الحق تبارك وتعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]. وكما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [المائدة]. ويعادي الكافرين المعاندين لله تبارك وتعالى والمحادين لرسوله ﷺ والمتآمرين على عباد الله المؤمنين، وذلك هو المنهج الحق الذي رسمه خليل الرحمٰن إبراهيم عليه السلام والذين اتبعوه بإحسان، وهو المنهج القويم الذي أمرنا المولى تبارك وتعالى بالتأسي به في كيفية التعامل مع أعداء الملة والدين حين قال سبحانه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

ومما يدل دلالة واضحة لا لبس فيها ولا غموض على أنّ مَنْ لم يحقق هذا الأصل العظيم فإنه لا يبلغ درجة الإيمان قوله سبحانه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقد أعلن الحق تبارك وتعالى في كتابه العظيم براءته الصريحة ممن يوالي أعداء الملة والدين على حساب المؤمنين الموحدين حين قال سبحانه: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران].

بل إن الله تبارك وتعالى جعل العزة والغلبة في موالاة المؤمنين حين قال سبحانه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة].

وجعل الذلة والهوان في موالاة الكافرين حين قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء].

إنّ هذا الأصل العظيم من أصول الإيمان وهو (الولاء للمؤمنين) قد ضعف جانب تطبيقه في واقع الحياة العملية لدى كثير من المسلمين في وقتنا الحاضر مما ترتب عليه قلة الشعور بالرابطة الأخوية التي تربط المسلم بأخيه المسلم أينما كان وحيثما وُجد، بل إن بعض المسلمين ـ والعياذ بالله تعالى ـ قد استبدل ولاء المؤمنين بولاء الكافرين، فصدق عليه قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١].

وليس أدل على ذلك من حرص أولئك على تقليد الكافرين في كل ما استطاعوا تقليدهم فيه من أنماط معيشتهم وسلوكيات حياتهم، فهل هناك ولاء أعظم من هذا الولاء؟ وتلك هي السنن التي حذر منها مَنْ لا ينطق عن الهوى عليه الصلاة والسلام، ففي الحديث الذي أخرجه الإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه عن الصحابي الجليل أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «لتتبعنَّ سنن من كان قبلكم شبراً شبراً وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم».

وهؤلاء ينطبق عليهم قول الشاعر العربي:

كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ والماء فوق ظهورها محمول

إنها الانهزامية النفسية أمام أعداء الملة الحنيفية، وإنه الانخداع ببريق الحضارة الزائفة التي لم تُسْعِدْ أصحابها فضلاً عن أن تسعد غيرهم.

إن ضعف ولاء المسلمين بعضهم لبعض هو الأمر الذي هيَّأ الفرصة سانحة لأعداء الإسلام للتآمر على المسلمين وإضعاف شوكتهم بكل ما أوتوا

من قوة، ومن هنا فقد جاءت التوكيدات الإلهية الكريمة بما يضمن تقوية الولاء الإيماني بين جميع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وذلك بالأخذ بأسباب الوحدة ونبذ أسباب الفرقة، كما في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وكما في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

ما أحوجنا في هذه الظروف العصيبة من تاريخ أمتنا الإسلامية إلى أن يوالي بعضنا بعضاً، لننطلق من ذلك إلى التكاتف والتعاون على البر والتقوى بما يحقق وحدة الصف وجمع الشمل، وبذلك يُقْضَى على الفساد في الأرض كما قال المولى سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنفال].

* * *

المسؤولية

كل إنسان منا في هذه الحياة واقع تحت رقابة العليم الخبير تبارك وتعالى الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. وقد أكد الحق تبارك وتعالى ذلك في مواضع متعددة من كتابه العظيم، كما في قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ [آل عمران].

وكما في قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾ [التوبة].

وكما في قوله سبحانه: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر].

وكما في قوله سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف].

وكل ذلك محصى في كتاب أمين، كما قال سبحانه: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦].

وكما في قوله سبحانه: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾﴾ [النبأ].

وذلك الكتاب ميزان عدل وقسط لا ظلم فيه ولا جَوْر، كما قال سبحانه: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۖ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٢].

وكما قال سبحانه: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الجاثية].

وسيُسأل كل إنسان عما أحصاه هذا الكتاب خيراً كان أو شراً،

صغيراً كان أو كبيراً، وذلك يوم توضع الموازين وتُنْشَرُ الصحف، كما قال الحق تبارك وتعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف].

وتلك المسؤولية عامة لجميع الناس رسلاً ومرسلاً إليهم، كما قال الحق تبارك وتعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأعراف].

وكما قال سبحانه: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر]. فالرسل عليهم الصلاة والسلام يُسألون عن تبليغهم رسالة ربهم تبارك وتعالى لمن أُمروا بإبلاغها إليهم، وهي دعوتهم لعبادة الله جلَّ وعلا وحده لا شريك له، وليس أدل على ذلك من قول الحق جل شأنه في شأن نبيه عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة].

والمرسل إليهم يُسألون عن تصديقهم لرسلهم واتباعهم لشرائعهم وعن مخالفتهم لهم في ذلك كله أو بعضه، كما قال سبحانه: ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصافات]. وإنها لمسؤولية عظيمة وجسيمة لا يفلت من تبعاتها إلا من وفقه الله تبارك وتعالى للهُدى وعصمه من مضلات الهوى، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأعراف].

والمسؤولية في حق كل إنسان متشعبة ومتعددة، فهو مسؤول عن جوارحه جارحة جارحة، وبخاصة عن سمعه وبصره وقلبه، لأن هذه

الجوارح هي المسيِّرة للأعضاء كلها، وفي ذلك يقول الحق سبحانه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء]. وسيكون موقف المسؤول عن تلك الجوارح إما الإقرار، وإما الإنكار، فإنْ أقر بسوء استخدامه لها يكون قد اعترف على نفسه بالتقصير والتفريط مما يترتب عليه عطبه وخسرانه إلا أن يتداركه بلطفه ورحمته سبحانه.

وإنْ أنكر ختم الله تبارك وتعالى على لسانه وأنطق عليه جوارحه شاهدةً بكل ما اقترفه من سيئات وما اجترحه من موبقات، ويصوِّر الحق جلَّ شأنه ذلك المشهد المخيف تصويراً دقيقاً تقف البلاغة بكل صورها عاجزة عن أن تصل إلى مستواه أو أن تبلغ مداه حيث يقول سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [فصلت].

وهو مسؤول عن كتاب ربه تبارك وتعالى الذي هو صراطه المستقيم، وحبله المتين، وحجته على العالمين، سيُسأل عن أَمْره، ونهيه، ووعده ووعيده: هل امتثل أوامره واجتنب نواهيه؟ هل حمله وعده على أن يجسِّد مضمونه في حياته واقعاً محسوساً ملموساً؟ فإنَّ الله تبارك وتعالى قد وعد المؤمنين العاملين للصالحات بالمغفرة والأجر العظيم حين قال سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾﴾ [المائدة].

كما وعدهم سبحانه بالاستخلاف في الأرض، وتمكين الدين لهم،

وتبديلهم الخوف بالأمن حين قال جلَّ شأنه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥]. فهل جاهد نفسه على أن يكون ممن آمن الإيمان الحق، وعمل العمل الصالح؟ وهل حمله وعيده على أن يخاف وقوفه الأكبر بين يدي جبار الأرض والسموات في يوم تنخلع فيه الأفئدة وتنقطع فيه المعاذير، فإنّ الحق تبارك وتعالى قد قال لنبيه محمد ﷺ: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

إن المسؤولية نحو القرآن الكريم تحتِّم على حامليه ألا يكونوا في ذيل القائمة ليتصدرها أهل الضلال والفساد، كما تحتم عليهم ألا يقفوا مكتوفي الأيدي إذا انتُهكت حدود الله تعالى واستُبيحت حرمة الأخلاق ولُوِّث صفاء العقيدة، بل إنّ المسؤولية نحو القرآن العظيم تُحتِّم عليهم أن يُمسكوا بزمام المبادرة إلى حَمْل مشعل الهداية الذي جاء به ذلك الكتاب العزيز ليستضيء الناس كل الناس بقبس نوره ومشكاة هدايته، وحينذاك يحظون بشرف الدنيا ويكونون سادة العالم في هذا الوجود كما قال سبحانه لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف]. أي: سوف تُسألون عن حَمْله وتطبيقه، وعن إهماله وتضييعه.

وهو مسؤول عن النعيم الذي يتقلب فيه صباحاً مساءً، كما قال الحق تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ [التكاثر].

والنعيم له صور متعددة في حياة الإنسان، فالأولاد جزء من النعيم لأنهم زينة الحياة كما قال الإله الحق سبحانه: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦].

والإنسان بلا شك مسؤول عن هؤلاء الأولاد بنين وبنات عن دينهم، وعقيدتهم، وأخلاقهم كما ثبت في الصحيحين عن الصحابي الجليل عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راع ومسؤول عن رعيته،

والرجل راعٍ في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راعٍ في مال سيده ومسؤول عن رعيته، فكلكم راعٍ ومسؤول عن رعيته».

فإنْ حفظهم في دينهم وعقيدتهم وأخلاقهم من الأفكار المضلِّلة والسموم القاتلة كان أميناً على تلك المسؤولية، وإنْ أهملهم في ذلك وجعلهم في مهب الرياح العاصفة وعُرْضَةً للتيارات الجارفة كان خائناً لتلك المسؤولية، وحينئذ يبوء بأعظم خيبة وخسران ففي الحديث الذي أخرجه الإمام البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى عن الصحابي الجليل أبي يعلى معقل بن يسار رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حَرَّم الله عليه الجنة».

والمال جزء من النعيم، لأنه جاه ومنصب وسلطان، ولا شك أن الإنسان مسؤول عن هذا المال عن الكيفية التي جَمَعَهُ بها، وعن السبيل التي أنفقه فيها.

والشباب جزء من النعيم، لأنه الفترة الذهبية من عمر الإنسان قوةً ونشاطاً وحيوية، ولا شك أن المرء مسؤول عن هذا الشباب فيم إبلاه وفي أي عمل سخَّره؟

والعِلْمُ جزء من النعيم، بل هو غاية النعيم لأنه لذة لا تعادلها أية لذة، ومن عاش حياة العلم أدرك ذلك غاية الإدراك، ولا شك أن الإنسان مسؤول عن هذا العلم نحو نفسه، وأسرته، وطلابه، ومجتمعه.

ومما يدل على أن الإنسان مسؤول مسؤولية كبرى عن عمره وشبابه، وعن علمه وماله، ما أخرجه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى من حديث الصحابي الجليل أبي بَرْزة الأسلمي رضي الله تعالى عنه بإسناد حسن صحيح أن النبي ﷺ قال: «لا تزول قدما عبد حتى يُسأل عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم فعل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه».

وهو مسؤول أولاً وآخراً عن وقته الذي هو حياته ورأس ماله، ومسؤوليته عن الوقت تنبع من حقيقتين عظيمتين: أولاهما أنه لم يُخْلَقْ في هذه الحياة عبثاً، وإنما خُلق لوظيفة جليلة بيَّنها الحق تبارك وتعالى بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات]. فإنْ قام بتلك الوظيفة على وجهها الصحيح أفلح ونجا، وإنْ تساهل في القيام بحقها خاب وخسر، وثانيهما أنه لن يُتْرَك سُدى، بل مَرْجعه إلى الله تبارك وتعالى يوم يقوم الأشهاد ويفزع الناس لرب العباد، وحينذاك تظهر النتائج وتتكشَّف الحقائق فآخذٌ كتابه بيمينه وآخذٌ كتابه بشماله، وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون].

هذه هي المسؤولية، وهذه هي تبعاتها، فهل أعددنا للسؤال جواباً، وللجواب صواباً؟

* * *

الإحسان

الإحسان خلق عظيم وسلوك كريم، ينبع من نفس تقية وينبئ عن فطرة نقية، ولهذا فقد كتبه الله تبارك وتعالى على الأشياء كلها، ومصداق ذلك ما أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه عن الصحابي الجليل شداد بن أوس رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء».

نعم، كل شيء بحاجة إلى إحسان، إحسان في التعامل مع الله تبارك وتعالى بالقيام بفرائض دينه، والاستقامة على الإيمان به، والحذر من الوقوع في محارمه، والحرص على مراقبته في كل صغير وكبير من شؤون الحياة، وذاك كله هو معنى إسلام الوجه لله جلَّ شأنه كما قال عزَّ سلطانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

كما أنه ترجمان حقيقي للإحسان الذي بيَّن معناه أمين الوحي جبريل عليه السلام لأمين الرسالة محمد ﷺ فقد أخرج الإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه من حديث الصحابي الجليل عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

وإحسان في التعامل مع النفس بتزكيتها من رديء الأفعال وبذيء الأقوال.

ففي مجال تزكيتها بالأفعال يجعلها في حصن حصين عن الظلم، والغدر، والسرقة، وشُرب الخمر، والزنا، والربا، وتطفيف المكاييل، وبخس الموازين، وقتل النفس التي حرم الله تعالى إلا بالحق، ويأتي على

رأس ذلك كله الإشراك بالله جل جلاله الموجب لصاحبه النار والمحرِّم عليه دخول الجنة، كما قال المولى سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وفي مجال تزكيتها بالأقوال يجعلها في المقام الأسمى والمكان الأسنى بحفظ لسانه عن الكذب، والغيبة، والنميمة، والسب، لتعتاد بذلك على القول الحسن الذي أرشد إليه الحق تبارك وتعالى بقوله: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

وبقوله سبحانه: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ﴾ [الإسراء: ٥٣].

وإحسان في التعامل مع ذوي القربى بخفض الجناح للوالدين عَطْفاً وبراً وإحساناً، كما قال الحق تبارك وتعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء].

وبصلة الأرحام الذين أمرنا الحق تبارك وتعالى بتقواه فيهم حين قال سبحانه: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

وبالصبر على أذى الأقارب جميعاً مع مراعاة حقوقهم، فقد أخرج الإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه حديث الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله إنّ لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إليَّ، وأحلم عنهم ويجهلون عليَّ، فقال: «لئن كنت كما قلت فكأنما تُسفُّهم الملَّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك». أي: ما دمت تقابل إساءتهم بالإحسان.

وإحسان في التعامل مع عموم المسلمين بمشاركتهم في آلامهم وآمالهم، وبالوقوف إلى جانبهم في الشدائد والمحن لجلب النفع لهم ودفع الضر عنهم.

ولو أنَّ كل مسلم أحسن معاملة إخوانه المسلمين فكان لهم القلب الرؤوم واليد الحانية لأصبح المسلمون جميعاً يداً واحدة وصفاً واحداً، بحيث لا تستطيع أية قوة معادية مهما عظمت النيل منهم أو الاستخفاف بهم أو التآمر عليهم.

إن الإحسان في التعامل مع جميع ما ذُكر موجب لمحبة الله تبارك وتعالى، فإن سبحانه يقول: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]. وهو طريق إلى الخلود في الجنة، فإن الحق تبارك اسمه يقول: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وهو سبب في الفوز بمعية الله جلَّ شأنه، ومَنْ تحققت له معية الله تبارك وتعالى فلا يضلُّ له قلب ولا تزلُّ به قدم، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

كما هو سبب في القرب من رحمة الله تبارك وتعالى، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

ويكفي المحسنين شرفاً وفخراً في الدنيا والآخرة أن الله تبارك وتعالى قد خصَّهم وحدهم بالانتفاع بهُدى كتابه الحكيم حين قال سبحانه: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣﴾ [لقمان].

وليحذر المسلم غاية الحذر من إهمال الإحسان في كل ما سبق ذِكْره، فإنَّ مغبة ذلك الحسرة والندم يوم زلّة القدم، وهذا ما دل عليه قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٥٥ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۝٥٦ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٥٧ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٨﴾ [الزمر].

* * *

آفة اللسان

إن الإيمان إذا وقر في القلب وصدَّقه العمل ظهرت آثاره جلية على الجوارح استقامةً في الأفعال وعفّةً في الأقوال.

واللسان ترجمان حقيقي لما في دخيلة الإنسان من حُسْن أو سوء، فإذا رأيت شخصاً من الناس لم تسبق لك به معاشرة ومخالطة فإنه يكون نكرة عندك ومجهولاً لديك، لا تسطيع أن تحكم له أو عليه بصلاح أو فساد، حتى إذا ما نطق كَشَفْتَ بمنطقه مجهول خبيئته، فتصل إلى يقين أو غلبة ظن بأنه عاقل أو سفيه، وقد أدرك العرب قديماً بفطرتهم وفطنتهم هذه الحقيقة حين قالوا: «كل إناء ينضح بما فيه».

إن اللسان آفة خطيرة من حفظه حفظ دينه ومروءته، ومن أطلق له الحبل على الغارب أصبح مِقْوَدُهُ بيد الشيطان، وحينئذ يكون كلامه نزغة إبليسية ووسوسة شيطانية، كما دلَّ على ذلك قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾ [الإسراء].

ويوم أن يكون مقود اللسان بيد الشيطان فلن يكون الإنسان إلا سبّاباً، لعّاناً، مغتاباً، نمّاماً، ثرثاراً، أفّاكاً، تجارته الفحش والبذاءة، وبضاعته الدجل والدناءة، وبذلك تسقط هيبته، وتزول مصداقيته فلا يُوثق به، ولا يُطْمَأَنُّ إليه، ولا يُعَوَّل عليه، وتلك عقوبة قد عُجِّلَتْ له في الدنيا قبل الآخرة.

إنّ عثرات اللسان مزلة أقدام إلى نار جهنم يوم القيامة كما أخبر بذلك من لا ينطق عن الهوى عليه الصلاة والسلام، ففي الحديث الذي أخرجه

الشيخان البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى عن الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يَتَبَيَّنُ فيها يَزِلُّ بها إلى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب».

وعند الإمام الترمذي رحمه الله تعالى بإسناد حسن صحيح من حديث الصحابي الجليل معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه أنه قال: قلتُ: يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: «ثكلتك أمك، وهل يكبُّ الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم؟».

وإذا كان اللسان بهذه الخطورة العظيمة والخسارة الجسيمة فإنه يجب على المسلم أن يحذر غاية الحذر من فلتاته فلا يتكلم إلا بخير، وإلا فالسكوت هو الأمن والسلامة كما ثبت في الصحيحين من حديث الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت».

ومَنْ حفظ لسانه وألجمه بلجام المراقبة لله تبارك وتعالى كان موعوداً ببشائر عاجلة في الدنيا والآخرة، ومن تلك البشائر:

البشارة الأولى: إصلاح الأعمال ومغفرة الذنوب، ومصداق ذلك قول الحق تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب].

وإذا أُصلِحَ عمل المسلم وغُفر ذنبه كان طاهراً مطهراً، تقياً نقياً في ظاهر حاله وباطنه، وحينئذ يكون قريباً من الله تبارك وتعالى، بعيداً كل البعد عن نزعات النفس ونزغات الشيطان.

البشارة الثانية: حفظ الذرية من التشرُّد والضياع، ومصداق ذلك قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ ۖ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾ [النساء].

البشارة الثالثة: حُسن الخاتمة بعد نهاية الحياة، فإنَّ الحق تبارك وتعالى حين ضرب مثلاً للكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة أعقب ذلك بالتثبيت والإضلال فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم].

البشارة الرابعة: الفوز بدخول الجنة، ومصداق ذلك قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾﴾ [ق].

والحفيظ هو الذي حفظ الله ﷻ في جوارحه كلها ولا سيما اللسان الذي تستند جميع الجوارح في استقامتها أو اعوجاجها إليه، كما أخرج الإمام الترمذي رحمه الله تعالى عن الصحابي الجليل أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا أصبح ابن آدم فإنّ الأعضاء كلها تكفِّر اللسان تقول: اتق الله فينا فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا».

وإذا كان كلٌ مُيسَّرٌ لما خُلق له، فإنَّ مَنْ خُلق للجنة فهو ميسَّر للاتصاف بصفات أهلها، ومن صفاتهم عِفَّة اللسان وطيب الكلام كما قال الملك العلّام في شأنهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحج].

فهذه أربع بشارات، هي منارات تضيء الطريق لتحدد للمسلم معالم التسديد والتوفيق، حتى لا تزل به قدم في مهاوي فلتات اللسان، فتكون عاقبة ذلك الخيبة والخسران، إذ كل كلمة يتلفظ بها الإنسان فهي إما حسنة

تقر بها عينه في دار الخلود والنعيم، وإما سيئة يحصد ندامتها في دار الصديد والحميم.

وما ذاك إلا لأن اللسان سيف ذو حدين، فإنْ استُعمل في طاعة الله تبارك وتعالى كان شاهداً لصاحبه بما يقربه إلى رضوان ربه سبحانه، وإن استُعمل في معصية الله جلَّ جلاله كان شاهداً عليه بما فيه عطبه وخسرانه، وفي ذلك يقول جلَّ وعزَّ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق].

ويقول سبحانه: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ [النور].

* * *

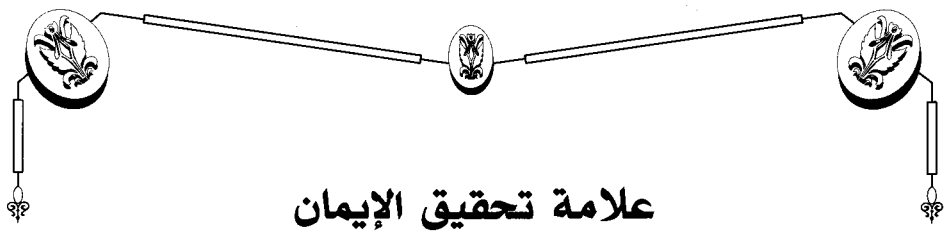

علامة تحقيق الإيمان

الإيمان نعمة عظمى ومنحة كبرى يمتنُّ بها الحق تبارك وتعالى على من شاء من عباده ممن امتحن قلوبهم للتقوى ونوَّر بصائرهم بنور الهُدى.

وادعاء الإيمان من كل مسلم قضية تحتاج إلى برهان ناصع ودليل ساطع، لأن الإيمان ليس بالتحلي ولا بالتمني، ولكنه ما وقر في القلب وصدَّقه العمل، ولذلك فإن الله تبارك وتعالى قد أنكر على قوم من عباده ادعاءهم الإيمان، وسجَّل ذلك الإنكار في كتاب يُتلى إلى يوم القيامة، ليكون درساً عملياً تربوياً لكل من أراد أن يتعرف على حقيقة الإيمان، فقال سبحانه: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾ [الحجرات: ١٤].

ففرَّق الحق تبارك وتعالى بين الإسلام والإيمان، حيث أثبت لهؤلاء القوم الإسلام ونفى عنهم الإيمان، ومقتضى هذا التفريق: أن كل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمناً.

فالإيمان درجة عالية، ومرتبة سامية لا ينال مجدها المدَّعون، ولا يرتقي إلى سلّمها الكذابون الدَّجالون، بل هو مرتبة خاصة بأهل اليقين والتحقيق، الذين أسلموا وجوههم لربهم تبارك وتعالى ظاهراً وباطناً، فلا الظاهر عندهم يخالف الباطن، ولا الباطن عندهم يناقض الظاهر، بل حالهم في الخفاء كحالهم في الجلاء تقىً، وصلاحاً، وعفة، ونزاهة، فلا مجال للالتواء والنفاق في قلوبهم، ولا مكان للتلوُّن حسب مقتضيات الأحوال في دنيا وجودهم.

وإن لتحقيق الإيمان علامة بارزة وسمة ظاهرة، أوضحها غاية

الإيضاح الحق تبارك وتعالى في كتابه المبين وتنزيله الحكيم، لتكون نبراساً يستضيء بنوره السائرون على الطريق المستقيم حتى لا تنحرف بهم السبل يمنة ويسرة فيتخبطوا دون وعي وبصيرة، وتلكم العلامة هي قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال].

تلك العلامة تضمنت خمسة جوانب أساسية تتضافر جميعها في البرهنة على الإيمان الحق، وهي:

الجانب الأول: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، أي: إذا ذُكِّروا بالله تبارك وتعالى وبعظمته وجبروته، وتذكَّروا همَّ وقوفهم الأكبر بين يديه سبحانه يوم العرض والنشور طارت قلوبهم خوفاً وهلعاً وخشية منه جلَّ جلاله.

وهؤلاء قد أعظم الحق سبحانه ثناءه عليهم بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠﴾ [المؤمنون].

وبقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٢٧﴾ [المعارج].

وهؤلاء هم المستحقون لأن يُظِلَّهُمْ ربهم تبارك وتعالى في ظله يوم القيامة، ففي المتفق عليه من حديث الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله»، إلى قوله: «ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه».

وعلى ضوء هذه الصفة العظيمة يجب على المسلم أن يختبر إيمانه ليعرف هل حقق الإيمان أو لم يزل بعيداً عن تحقيقه، فإنَّ كثيراً من الناس إذا خُوِّف بالله تبارك وتعالى وذُكِّر به لم يرفع بذلك رأساً، ولم يغيِّر من حاله شيئاً، بل يظل سادراً في لهوه، سائراً في غيه، وكأنه لم يعرف حق ربه جلَّ شأنه عليه، بل إن بعض الناس يخشى رئيسه في دائرة العمل أشد بكثير من خشية الله تبارك وتعالى، فإذا وَجَّه إليه رئيسه إنذاراً أو لفت نظر

اسودت الدنيا في وجهه، وربما عزفت نفسه عن الطعام والشراب خوفاً من عقاب ذلك الرئيس، في حين أنه يُصرُّ على مخالفة أوامر الله تبارك وتعالى ليلاً ونهاراً، من غير أن يكترث بإنذار الله ﷻ ووعيده، فهل هذا دليل تحقيق الإيمان، أو هو دليل تضييع الإيمان؟

الجانب الثاني: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾، فهم مواظبون على تلاوة كتاب الله تبارك وتعالى تلاوة تفكُّر وتدبُّر، امتثالاً لأوامره واجتناباً لزواجره، فلا ينتهكون له نهياً كما لا يضيعون منه أمراً، بل هم واقفون عند حدوده بلا تجاوز، ومنصاعون لتوجيهاته وإن انقطعت بهم المفاوز، وأصدق وَصْف لهم في ذلك قول ربهم تبارك وتعالى في شأنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾ [الفرقان].

وبذلك تُشرق النفس، ويطمئن القلب، وتقرُّ العين، وتطيب الحياة، وتعظم صلة العبد بربه تبارك وتعالى وذلك هو سر زيادة الإيمان، كما أنه سر تحقيقه وتوثيقه.

وعلى ضوء هذه الصفة الإيمانية العظيمة يجب على المسلم أن يحاسب نفسه على مدى صلتها بكتاب الله ﷻ: أهي صلة إقبال، أم هي صلة إدبار؟ وحينئذ ينطبق عليه قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ [الفرقان]. وهَجْرُ القرآن العظيم يأتي على نوعين، أحدهما: هجر قراءته وعدم المبالاة بها، فيحرم نفسه من لذة مخاطبة ربه تبارك وتعالى، وكفى بذلك حرماناً، وثانيهما: هجر العمل بأحكامه، فلا يحل حلاله، ولا يحرم حرامه، وهو بإعراضه هذا عن هَدْي قرآنه يتلقَّى توجُّهات حياته من باعث هواه ووحي شيطانه.

الجانب الثالث: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، توكُّل ثقة، وحُسن ظن، مع اتخاذ الأسباب المشروعة من غير تواكل ولا تكاسل فذلك شأن العاجزين

الخاملين الذين يستسلمون للدعة ويخلدون إلى الراحة، ويريدون مع ذلك أن تمطر عليهم السماء ذهباً وفضة.

وحقيقة التوكل على الله تبارك وتعالى أن يعلم المسلم علم اليقين أن الله جلت قدرته هو خالق الأسباب ومسبِّبها، وأنه مقدِّر الأرزاق ومقسمها، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ثم يسعى لتحقيق حاجته مستعيناً بربه تبارك وتعالى على قضائها، فإذا حصل له المطلوب وتم له المقصود نسب ذلك إلى ربه سبحانه عملاً بقوله عز سلطانه: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

وهذا هو الفارق بين المؤمن الحق وغيره، فغير المؤمن ينسب كل نعمة يحصل عليها إلى غير ربه تبارك وتعالى، فينسبها إلى نفسه تارة، وإلى فلان من الناس تارة أخرى، وذلك نكران للمنعم الذي هيأ وسخّر، ولولا توفيقه وإعانته سبحانه لما تحقق لهذا العبد ما فكر به وقدَّر.

الجانب الرابع: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، فهم يحافظون على أدائها في أوقاتها مع جماعة المسلمين، ويقيمونها الإقامة الشرعية الصحيحة دون إخلال بشيء من أركانها وواجباتها.

والمحافظة على الصلاة مع إقامتها على الوجه الذي يرضي الإله جلَّ في عُلاه بحضور الجمعة والجماعات في المساجد دليل على تحقيق الإيمان كما قال الرحيم الرحمٰن سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨].

وكثير من المسلمين في وقتنا الحاضر ـ والعياذ بالله تعالى ـ قد ضلوا طريق المسجد وتنكروا للصلاة، ومع ذلك فهم يدَّعون الإيمان، وكيف يتحقق الإيمان لمن حطَّم ركن الإسلام.؟

الجانب الخامس: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾، فهم يخرجون زكاة أموالهم طيبةً بذلك نفوسهم، ويُتبعون ذلك بصدقة التطوع، فلا يتركون مجالاً للإنفاق هو لله تبارك وتعالى رضاً إلا سارعوا إليه وتنافسوا فيه،

شاعرين في أعماقهم بأن المِنَّة في ذلك لله تبارك وتعالى وحده، وهذا هو دليل الإيمان، فالمؤمن سخَّاء بذَّال مِعْطاء، ولا يجتمع إيمان وبخل في قلبٍ واحد.

هذه هي علامة الإيمان الحق التي لا بُرهان على تحقيقه إلا بها، حري بالمسلم أن يسعى جاهداً لتحصيلها لينعم بالطمأنينة في العاجلة وبالسعادة في الآجلة.

* * *

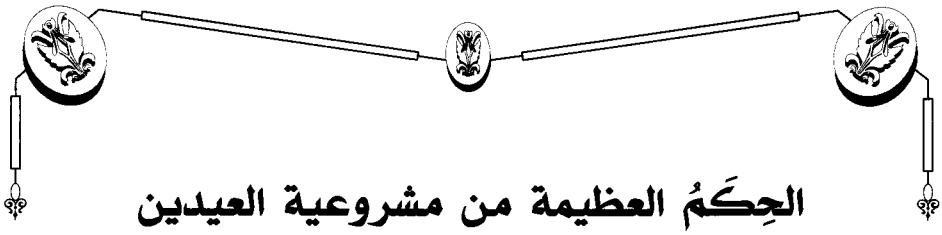

الحِكَمُ العظيمة من مشروعية العيدين

العيدان في الإسلام شُرعا لحكم عظيمة، ومعانٍ بليغة، قد يغفل عنها كثير من الناس فلا يكون للعيدين تأثير على واقع حياتهم ومسار سلوكهم.

ومن الحكم العظيمة التي شُرع من أجلها العيدان في الإسلام شُكْر الله تبارك وتعالى على ما يسَّر من أداء ما افترضه سبحانه على عباده المؤمنين من تكاليف شرعية وعبادات دينية، فعيد الفطر المبارك يأتي بعد إتمام صيام شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن، وصيام رمضان فريضة عظيمة ترسِّخ التقوى في قلوب المؤمنين، كما قال الحق تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة]. فمن أدَّى تلك الفريضة حق الأداء حتى عمرت قلبه التقوى كان حرياً به أن يشكر ربه تبارك وتعالى شكراً عظيماً على نعمة بلوغ الصيام، وهذا ما أرشد إليه الحق جلَّ وعزَّ بقوله: ﴿وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وعيد الأضحى السعيد يأتي بعد أن مَنَّ الله تبارك وتعالى على حجاج بيته الحرام بالوقوف على صعيد عرفات، الصعيد الطيب الطاهر المبارك الذي تتنزل فيه الرحمات، وتُقال فيه العثرات، وتكفَّر فيه السيئات مما يجعل الشيطان صاغراً ذليلاً مندحراً، حيث يرى ما يغيظه وهو أنَّ أمة محمد ﷺ أمة مرحومة، وهو ملعون مطرود من رحمة الله في الدنيا والآخرة، وحري بمن وقف على ذلك الصعيد المبارك، وأعانه الله تبارك وتعالى على إتمام مناسك حجه أن يشكر ربه جلَّ جلاله على هذه النعمة العظيمة التي ما كان له أن يحصل عليها لولا تيسيره وتوفيقه سبحانه.

إن شكر الله تبارك وتعالى على إعانته لعباده لأداء ما افترضه عليهم واجب شرعي على كل مسلم، ولا سيما في العيدين، إذ لولا فضل الله ﷻ عليه وإحسانه إليه لما أدرك هذين العيدين وهو يتمتع بأتم نعمة وفي أوفر صحة.

ومن الحكم العظيمة التي شُرع من أجلها العيدان في الإسلام تناسي الأحقاد، وإزالة الشحناء من نفوس العباد، لتحل المحبة والوئام محل العداوة والخصام، مما يوثِّق رابطة العقيدة وأخوة الإيمان في قلوب أفراد المجتمع المسلم، حتى يكون ذلك المجتمع قوياً متماسكاً كالبنيان يشد بعضه بعضاً، وإذا لم تتآلف النفوس وتتصافَ القلوب في العيدين، ففي أي وقت تتآلف وتتصافى؟

إنَّ واجب كل مسلم أن يجعل من العيدين فرصة ثمينة لإصلاح ما فسد بينه وبين إخوانه المسلمين، وبخاصة ما يتعلق بينه وبين ذوي القربى والأرحام، فهم أحق الناس بالبر والصلة والعطف والتسامح والإحسان.

ومن الحكم العظيمة التي من أجلها شرع العيدان في الإسلام أنَّ العيد محطة محاسبة يقف عندها المسلم ليحاسب نفسه محاسبة عسيرة وهو يتقلب في نعم الله تبارك وتعالى صباحاً مساءً: ما حاله مع هذه النعم؟ هل هو حال شكر وعرفان، أو حال جحود ونكران؟ ليكون العيد باعثاً لما اندثر من الشعور بعظم امتنان الله تبارك وتعالى على عباده بالنعم التي لا يحصيها عدٌّ ولا يحيطها بيان.

ونتيجة عدم هذا الشعور فإنَّ كثيراً من الناس ـ والعياذ بالله تعالى ـ يأتيه العيد تلو العيد وهو ممعن في جَحْد نعمة الله ﷻ عليه وإحسانه إليه، فلا يزداد في العيد إلا تفلُّتاً من قيود الفضيلة واستمراراً في تعاطي الرذيلة، وذلك منتهى الخيبة والخسران.

ومن الحكم العظيمة التي شرع من أجلها العيدان في الإسلام الشعور بوحدة جسد الأمة المسلمة في مشارق الأرض ومغاربها، ليكون ذلك

الشعور حافزاً أساسياً للمسلم إلى الاهتمام بشؤون إخوانه المسلمين أينما كانوا وحيثما وُجدوا.

ذلك الشعور الذي يدفعه ـ وهو يلبس الجديد، ويأكل اللذيذ، وينعم بالأمن الوارف الظليل ـ إلى أن يعيش معاناة إخوانه المسلمين المستضعفين الذين فقدوا الأمن، ولم يجدوا من الطعام ما يسد جوعتهم، ولا من اللباس ما يستر عورتهم، فيمد لهم يد العون ما يخفف آلامهم ويضمِّدُ جراحهم.

إن تلك الحكم العظيمة التي من أجلها شُرع العيدان في الإسلام يجب أن يعيها كل مسلم حق الوعي، حتى يتعامل مع هذه الشعيرة الإسلامية التعامل الشرعي المطلوب شكراً لله رب العالمين، وصفحاً عن المسيئين من المسلمين، ونصرةً للمستضعفين في مشارق الأرض ومغاربها من المؤمنين.

* * *

الزواج في الإسلام

الزواج في الإسلام له حِكمةُ العظيمة التي قد يغفل عنها بعض الناس، فيجعلون الزواج محلاً لقضاء الوطر فحسب من غير تفطُّن لتلك الحكم. فالزواج في الإسلام دليل على عظم صمدية الله تبارك وتعالى وعلى كمال قيوميته، إذ كل موجود في هذه الحياة خُلق بطريق التزاوج كما قال الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات]. وكما قال عزَّ شأنه: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يس].

وكما قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات: ١٣]. وهذا يدل دلالة واضحة على أن كل موجود في هذه الحياة مفتقر إلى وجود غيره، وأما هو سبحانه جلَّ جلاله وتقدست ذاته فوجوده ليس مسبوقاً بوجود أحد حتى يكون مفتقراً إليه كما قال سبحانه: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد].

ولبيان هذه الحقيقة الناصعة وتأكيدها التأكيد الجازم لكل من كان في قلبه أدنى شبهة قال سبحانه في محكم كتابه: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص] ولما كان وجوده سبحانه أصل الوجود كله كان جلَّ وعلا مُنَزَّهاً عن الغِيَر التي يتعرض لها كل موجود، فلا يعتريه سبحانه موت ولا فناء كما قال سبحانه: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢].

وكما قال سبحانه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

ولا يعتريه سبحانه نوم ولا نعاس، كما قال عزَّ شأنه: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ولا يعتريه ذهول ولا نسيان، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].

وكما قال سبحانه: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

ولا يعتريه عجز ولا ضعف، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].

ولا يعتريه جهل حيث وسع علمه كل شيء، كما قال سبحانه: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

وكما يدل الزواج في الإسلام على عظم صمدية الله تبارك وتعالى وكمال قيوميته فهو يدل كذلك على أنّ الله تبارك وتعالى قد هدى عباده المسلمين إلى دين الفطرة السويَّة النقية، كما قال سبحانه: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

فهو دين قد راعى في الناس غرائزهم التي فُطروا عليها، فلم يصادمها ولم يتركها من غير تهذيب، بل سلك في ذلك مسلك الوسطية الحقة التي لا إفراط فيها ولا تفريط، حين استجاب لنداء تلك الفطرة ووَضَعَها في إطارها السليم الصحيح بتحريم السفاح وإباحة النكاح، وذاك ضَرْب من ضروب تحقيق الطهر والعفاف في أجمل الصور وأجل المعاني، خلافاً للحضارة الغربية التي تدَّعي التقدم والرُّقي في الوقت الذي سفلت فيه بالإنسانية إلى مستوى الشهوانية البهيميَّه التي لا تقيم للفضيلة وزناً، ولا ترعى للكرامة حرمة، مما كان سبباً في انتشار الأمراض والأوبئة الفتاكة التي استعصت على العلاج، وأصبحت خطراً داهماً يهدد حياة البشر وينذر بأسوأ النتائج وأوخم العواقب، وتلك سنة الله تبارك وتعالى فيمن خالف شرعه وتمرد على منهجه.

ومن الحكم العظيمة للزواج في الإسلام أنه سبب لتحقيق رغبة النبي عليه الصلاة والسلام في مكاثرة الأمم يوم القيامة، ففي الحديث الذي

أخرجه الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى عن الصحابي الجليل أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «تزوجوا الودود الولود، فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة».

وكفى بذلك شرفاً وفخراً للمؤمن أن يساهم في تحقيق أمنية نبيه عليه الصلاة والسلام بتكثير سواد هذه الأمة بين الأمم في حال العرض والنشور.

ومن الحكم العظيمة للزواج في الإسلام أنه جزء لا يتجزأ من عمارة الأرض بالنسل الإنساني الصالح الذي يقيم شرع الله تبارك وتعالى عليها ليكون هو الحكم العدل والقول الفصل في شؤون الحياة كلها، ومن أجل تحقيق هذه الحكمة العظيمة فقد حث الإسلام الحنيف على اختيار الزوجة الصالحة ذات الدين المتين، ففي الحديث الذي أخرجه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى بإسناد حسن صحيح عن الصحابي الجليل جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «فعليك بذات الدين تربت يداك».

ومن الحكم العظيمة للزواج في الإسلام أنه إحياء لسنة الأنبياء والمرسلين عليهم أزكى الصلاة وأتم التسليم، كما قال الحق تبارك وتعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨].

ومن الحكم العظيمة للزواج في الإسلام أنه عفة للشباب وحصانة لفروجهم وغضٌّ لأبصارهم عن الحرام، ففي الحديث الذي أخرجه الإمامان البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى عن الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغضُّ للبصر وأحصن للفرج».

ومن الحكم العظيمة للزواج في الإسلام أنه سكن للزوجين، وسبب للتراحم والتوادِّ بينهما، كما قال الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم].

ومن الحكم العظيمة للزواج في الإسلام أنه سبب لحصول الغنى بعد الفقر، كما دل على ذلك قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾ [النور].

وإذا كان الزواج في الإسلام محققاً لتلك الحكم العظيمة كلها فإنَّ الحريَّ بأولياء أمور النساء أن يتقوا الله تبارك وتعالى بتيسير أسباب الزواج والحذر كل الحذر من المغالاة في المهور، فإنّ نتيجة ذلك عنوس الفتيات، وعزوف الفتيان عن الإقدام على الزواج، مما ينشأ عنه فساد المجتمع وانحراف الأخلاق فيه.

وليكن قدوة أولياء أمور البنات في تيسير أسباب الزواج رسول الله ﷺ الذي زوَّج بناته رضي الله تعالى عنهنَّ بالقليل من المهر، فهو الأسوة في كل خير كما قال الحق تبارك وتعالى مرشداً إلى التأسي بنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب].

* * *

أرخص الدماء

إنّ الناظر البصير في واقع الأمة الإسلامية في وقتنا الحاضر يجد من الأمر كل غريب وعجيب.

تلك الأمة الإسلامية التي كانت بالأمس صاحبة السيادة والقيادة والريادة أصبحت اليوم تابعة غير متبوعة، ومقودة غير قائدة.

تلك الأمة الإسلامية التي كانت عزتها تجوب الآفاق والأمصار، وتملأ القلوب والأبصار حتى ارتعدت منها فرائص كسرى وقيصر، أصبحت اليوم ذليلة مهانة، لا يُحسب لها حساب ولا يُوَقَّر لها جناب.

ومما يُبَرْهَنُ به على صِدْق ذلك أنّ اليهودي حين يُقتل في أية ناحية من أنحاء العالم تقوم الدنيا ولا تقعد، والنصراني حين يُقتل في أية بقعة من بقاع الأرض تثور الثائرة وتدور الدائرة حتى يُنتقم لذلك الدم.

بينما المسلمون يُقتلون ويُسحقون أفراداً وجماعات في كثير من دول العالم، على مسمع ومرأى من دوائر حقوق الإنسان التي تزعم زوراً وبهتاناً أنها تدافع عن القضايا الإنسانية دون التفات إلى عِرْق، أولون، أو طائفة، وتلك قاعدة تطَّرد في جميع الدماء، لكنها تشذ عندما يكون ذلك الدم دم مسلم يقول ربي الله وديني الإسلام، حتى أصبح دم المسلم من أرخص الدماء على الإطلاق، فهو يُراق هنا وهناك بسبب ومن غير سبب.

ولا يكاد يبرأ للأمة المسلمة جُرح إلا وينكأ الأعداء لها جرحاً آخر، فمن فلسطين إلى أفغانستان، ومن البوسنة والهرسك إلى الشيشان، ومنها إلى العراق، وهكذا فقافلة الإبادة للمسلمين تسير دون بطء تباركها دول الكفر والضلال والطغيان.

وتلك حالة يدمى منها القلب، ويندى لها الجبين، قد آلت إليها أمة الإسلام حين تخلت عن دينها، وفرّطت في رسالتها، وتقاعست عن الجهاد في سبيل ربها تبارك وتعالى، ولا سبيل لاستعادة أمجادنا إلا بالعودة إلى رحاب ديننا من جديد، وتلك قضية حسمها الحق تبارك وتعالى بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

نعم، إنه لا سبيل لذلك على الإطلاق إلا بالعودة إلى الإسلام، ذلك المارد العملاق الذي يخشى الأعداء أن تعود إليه قوته فيسود ربوع الأرض، وحينذاك تكون هيمنتهم في الحضيض.

لا عزة للمسلمين إلا بالإسلام وحده منهجاً، وسلوكاً، ونظام حياة، ويوم أن نلتمس سبيلاً لعزتنا غير هذا السبيل فقد أخطأنا الطريق، وهذا ما أكده الحق تبارك وتعالى بقوله: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩].

وإذا كانت العزة لله جميعاً فهو مالكها والمتصرف فيها، يؤتيها من يشاء وينزعها ممن يشاء، كما قال سبحانه: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران].

وأهل العزة الحقيقية هم المؤمنون الذين صدَّقوا القول بالعمل، وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

وإنّ من أسباب العزة للمؤمنين موالاة بعضهم لبعض، كما قال الحق تبارك وتعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

ويوم أن تخلّى المسلمون عن موالاة إخوانهم المستضعفين في أنحاء الأرض فصموا آذانهم عن نجدتهم، وأغمضوا أعينهم عما يحل بهم وكأن الأمر لا يعنيهم لا في قليل ولا كثير، كما قال الشاعر:

رب وا معتصماه انطلقت ملء أفواه الصبايا اليُتَّم
لامست أسماعهم لكنها لم تلامس نخوة المعتصم

حين كان المسلمون كذلك بعدم مبالاتهم بولاية إخوتهم تجرَّأ عليهم الأعداء فأريقت الدماء وتناثرت الأشلاء، وانتُهكت الأعراض، ورُوِّعَ الآمنون، وشُرِّد القاطنون.

فلا بُدَّ إذاً لكل مسلم من أن يكون مع إخوانه المسلمين المستضعفين في خندق واحد، يواسي حزينهم، ويُضمِّدُ جريحهم، ويغيث ملهوفهم، وإلا فأي إيمان في قلب المسلم إذا لم يتحرك خطوة واحدة إلى الأمام لنصرة إخوانه المنكوبين؟

بل أين أُخوَّة الإيمان، ورابطة العقيدة، بل وأين ولاء الدين إذا كان المسلم يأكل ملء البطن وينام ملء العين، لا يعبأ إلا بأموره الذاتية ولا يبالي إلا بمصالحه الشخصية، تاركاً إخوانه المسلمين فريسة لأعداء الملة والدين؟

إن الأمر جد خطير لمخالفته قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ [الأنفال: ٧٢].

فلنشاطر المسلمين في آمالهم وآلامهم، ولنكن جميعاً يداً واحدة لحماية دمائهم، فلا محيد عن هذا الواجب، ولا مناص منه.

* * *

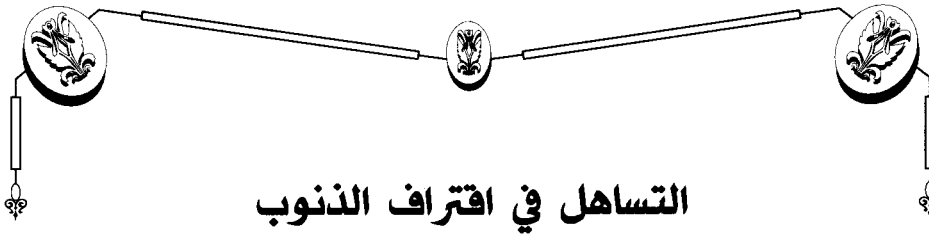

التساهل في اقتراف الذنوب

يتساهل كثير من الناس في ارتكاب المعاصي واقتراف الآثام، بل ويسرفون على أنفسهم فيها إسرافاً كبيراً، دون شعور منهم بعواقبها الوخيمة ونتائجها الأليمة.

وبينما هم سائرون دون تعثُّر في تحقيق شهواتهم حسب ما يمليه عليهم الهوى والشيطان في غفلة عن مراقبة القهار الجبار ﷻ، وفي إعراض عن دار القرار، بينما هم كذلك إذ فاجأهم الموت، وبلغت الروح الحلقوم، وحينذاك يتنبه الغافل من غفلته، ويستيقظ الراقد من رقدته، ولكنْ متى؟ بعد فوات الأوان وانقضاء الزمان، فيعض أصابع الندم حين تبلغ به الحسرة مبلغها، وينادي بأعلى صوته صارخاً مستغيثاً: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩ ـ ١٠٠].

فيُجاب إجابة رادعة زاجرة: ﴿كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠].

والعجب كل العجب أن كثيراً من هؤلاء المسرفين على أنفسهم باجتراح الموبقات وارتكاب السيئات لا يزالون ينتقلون من معصية إلى أخرى، من غير أن يفكروا في توبة وأوبة إلى الله تبارك وتعالى، وإذا ذُكِّر الواحد منهم بانتقام الله جلَّ شأنه وسطوته قال بكل جرأة ودون حياء: «سأمتع نفسي ما دمت في مرحلة الشباب ثم أتوب بعد ذلك»، وكأنه حصل على ضمان موثَّق ووعد محقَّق بأنه سيعيش إلى الوقت الذي أخر توبته فيه، وتلك نفخة من نفخات الشيطان في روع الإنسان الغافل الذي آثر الهوى على الهُدى، من أجل أن يحرمه من توبة الله تبارك وتعالى حين يموت على تلك الغفلة، كما قال الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ

يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ [النساء].

وكفى بالمذنب خسراناً أن يتمادى في غيِّه وإجرامه حتى يُحرم من التوبة بانتهاء وقت قبولها.

إن التساهل في اقتراف الذنوب قلَّتْ أو كثرتْ، عظُمت أو حقُرت شأن مَنْ خلا قلبه من تعظيم ربه تبارك وتعالى، إذ لو كانت عظمة الله جلَّ جلاله معموراً بها قلبه لما أقدم على شيء من ارتكاب تلك الذنوب حياءً من علّام الغيوب عزّ جاهه وتبارك اسمه، ولذلك أُثر عن السلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم قولهم: (لا تنظر إلى صغر الذنب، ولكن انظر إلى عظمة مَنْ عصيت). نعم، لو استشعر الإنسان عظمة خالقه ومولاه تبارك وتعالى لما فكّر في المعصية فضلاً عن أن يمارسها سلوكاً في واقع الحياة، ولكنْ صدق الله العظيم حين قال: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الزمر: ٦٧].

فيجب على المسلم أن يستشعر في أعماق وجدانه عظمة الله سبحانه، حتى يجعل من ذلك رادعاً له عن الوقوع في العصيان وتجاوز الحد في الطغيان، كما يجب عليه حين يُبتلى بشيء من تلك الذنوب أن يبادر بالتوبة النصوح منها استجابةً لأمر الله تبارك وتعالى القائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التحريم: ٨].

ومن مكفِّرات الذنوب والخطايا كثرة الإقبال على الله تعالى بصالح الأعمال من فرائض ونوافل، فإنّ الحق تبارك وتعالى يقول: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [هود].

ولا بد من اجتناب الكبائر لتُغفر الصغائر، كما قال المولى جلَّ جلاله: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء].

الميراث

يتطلع كثير من الناس بشغف كبير إلى الميراث المالي الذي سيخلفه لهم أقرباؤهم بعد موتهم، ليزيدوا بذلك أرصدتهم المالية، أو ليحسِّنوا به أوضاعهم الاجتماعية.

وربما أدى الشغف الكبير للحصول على الحصة من هذا الميراث إلى التنازع والخصام حتى بين الشقيق الحميم وشقيقه، مما يسبب القطيعة والجفاء، ويولِّد العداوة والبغضاء بينهما، والأمثلة على ذلك من واقع الحياة كثيرة جداً يدمى منها القلب ويندى لها الجبين، وكأن المال في دنيا الناس هو ميزان الولاء والبراء، وهو معيار المحبة والبغضاء، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

هذا الميراث الذي يتهافت عليه الناس مهما كان عظيماً وكبيراً فهو متاع زائل بزوال هذه الحياة، وقد يكون سبباً في شقاء صاحبه في الدنيا والآخرة إذا كان ممن لا يؤدي حق الله تبارك وتعالى فيه.

والسعيد كل السعادة هو الذي يسعى إلى الحصول على الميراث الحقيقي الذي لا فناء له ولا شقاء فيه، ذلكم الميراث هو الفوز بجنات النعيم، وهو بلا شك ميراث عظيم، لا يُنال إلا بعمل كريم يجاهد عليه المسلم نفسه حتى يكون مستحقاً له، وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وإذا كان ميراث الجنة لا يكون إلا بعمل، فما نوع هذا العمل؟ إن أنواع هذا العمل كثيرة ومتعددة، قد بسطها الحق تبارك وتعالى في كتابه العزيز، وبسطها نبيه ﷺ في سنته المطهرة، ومن ذلك تقوى الله ﷻ في السر والعلن، وفي القول والعمل، تقواه سبحانه بامتثال أوامره، واجتناب

زواجره، والوقوف عند محارمه، فمن اتقى الله تبارك وتعالى هذه التقوى كان وارثاً للجنة، ومصداق ذلك قول الحق سبحانه: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ [مريم].

ومن الأعمال التي يرث بها المسلم الجنة المحافظة على الصلاة، فإنّ الصلاة هي عماد الديانة، ورأس الأمانة، ولا يمكن أن تستقيم أحوال المؤمن إلا باستقامته على أدائها والمحافظة عليها، ومن تعاهد نفسه على تلك المحافظة كان وارثاً للجنة، ومصداق ذلك قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون].

ومن الأعمال التي يرث بها المسلم الجنة حفظ الفرج من استعماله في الحرام، والابتعاد عن كل وسيلة تدفع إلى ذلك من سماع أو مشاهدة، وهذا ما أمر به الحق تبارك وتعالى نبيه محمداً ﷺ بأن يُرشد المؤمنين والمؤمنات إليه بقوله سبحانه: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور].

وهذا يوجب على المسلم أن يطهِّر بيته من جميع الأجهزة التي تدعو إلى إثارة الغرائز الجنسية، وتأجيج الشهوة الحيوانية، مما يفضي في النهاية إلى تحطيم الأخلاق وانتهاك الأعراض.

ومما يدل على أن حفظ الفروج سبب في الحصول على ميراث الجنة ما ثبت في الصحيحين عن الصحابي الجليل سَهْل بن سعد رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «مَنْ يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة».

وهكذا فالأعمال الصالحات التي تكون سبباً لميراث الجنات كثيرة ومتنوعة، ومن شمَّر لاقتحام ميادينها فنافس الصالحين فيها وسابقهم إلى الحصول عليها نال الرضا والقبول، وظفر بالإرث الحقيقي الذي لا ينقطع ولا يزول.

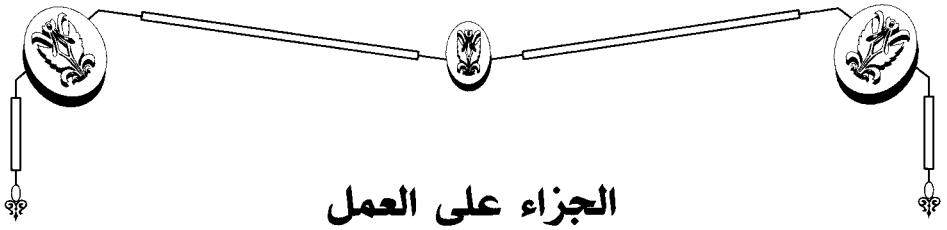

الجزاء على العمل

الجزاء على الأعمال التي يكتسبها العبد في حياته الدنيا هو الثمرة التي تنتظره حين وقوفه الأكبر بين يدي مولاه تبارك وتعالى يوم القيامة إنْ خيراً فخير، وإن شراً فشر، كما قال الحق جلَّ جلاله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة].

وفي صحيح الإمام مسلم رحمه الله تعالى من حديث الصحابي الجليل أبي ذر جُنْدُب بن جُنَادة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه».

ومن هنا فقد وعد الحق تبارك وتعالى المؤمنين بالجنة حين قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۝١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ۝١٠٨﴾ [الكهف].

وتوعَّد الكافرين بالنار حين قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٤﴾ [الأنفال].

فالجنة هي جزاء العمل الصالح، والنار هي جزاء العمل الطالح.

وقد بيَّن الحق تبارك وتعالى في كتابه العظيم أن الجزاء من جنس العمل، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ [يونس: ٢٧].

ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ۝٢٢ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا

﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾ [النبأ].

ويقول سبحانه: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الروم].

ويقول سبحانه: ﴿وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النجم: ٣١].

ثم ذكر الحق تبارك وتعالى أمثلة لذلك الجزاء المماثل للعمل في مواضع من كتابه الكريم، فمن نسي الله تعالى في الدنيا بالإعراض عن ذكره وشكره وحُسن عبادته نسيه في الآخرة من رحمته وعفوه ومغفرته، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الحشر].

ويقول سبحانه: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ [الأعراف: ٥١]. ومن استهزأ بشيء من دين الله تبارك وتعالى استهزأ الله ﷻ به حتى يَكبَّه على وجهه في نار جهنم، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة].

ومن مكر بعباد الله تبارك وتعالى ظلماً وعدواناً مكر الله سبحانه به حتى يدمره تدميراً، وفي ذلك يقول جل شأنه: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾ [النمل]. ويقول سبحانه: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]. ومن عمي في الدنيا عن رؤية الحق والانصياع إليه أعماه الله تبارك وتعالى عن رؤية الصراط يوم القيامة حتى تزل قدمه في نار جهنم، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ [الإسراء].

والجزاء الأخروي مرتبط بنوع العمل الدنيوي، فإنّ الله تبارك وتعالى إنما يجازي الناس يوم القيامة بما كسبوا، كما قال سبحانه: ﴿لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ﴾ [إبراهيم: ٥١].

وكما قال سبحانه: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الجاثية: ١٤].

وكما قال سبحانه: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٥٢].

وكما قال سبحانه: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [يس].

فإنْ كان العمل في الدنيا حَسَناً كان الجزاء في الآخرة حسناً، كما قال سبحانه: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]. وإن كان العمل في الدنيا سيئاً كان الجزاء في الآخرة سيئاً، كما قال سبحانه: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٧].

وإذا كانت الدنيا مزرعة الآخرة فإنه يجب على المسلم العاقل الأريب أن يجاهد نفسه على أن يكون غرسه في الدنيا طيباً، ليكون حصاده في الآخرة جزاءً حسناً، ومن ذلك الصبر على الطاعة بامتثال الأمر والنهي، وحَبْس النفس عن التسخط على ما جرى به القدر، فإنَّ جزاء الصبر على ذلك كله الخلود في الجنة، كما قال سبحانه: ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الإنسان].

وكما قال سبحانه: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المؤمنون]. أي الفائزون بدخول الجنة، كما قال سبحانه: ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾﴾ [الفرقان].

ومن ذلك التزود بالأعمال الصالحة فإنها قمطرة إلى الجنة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سبأ]. ومن ذلك المبادرة إلى التوبة النصوح من جميع الذنوب فإنَّ جزاء ذلك المغفرة ونعيم الجنة، كما قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [آل عمران].

ومن ذلك الحذر الشديد من الإعراض عن هدي الكتاب العظيم، فإنَّ جزاء ذلك العقاب الأليم، كما قال سبحانه: ﴿سَنَجْزِي ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٧].

وكما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الأعراف].

ومن ذلك التحرُّز من كفر النعمة فإنّ جزاء كفرها زوالها وذهابها، كما قال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ]. ومن ذلك الاعتصام بالله تبارك وتعالى من الاستجابة لنزغات الشيطان، فإنّ جزاء تلك الاستجابة ما ذكره سبحانه في قوله: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾﴾ [الإسراء].

إنّ من قواعد السلوك عند السلف الصالح رضي الله تعالى عنهم: (مِنْ جزاء الحسنة الحسنة بعدها، ومن جزاء السيئة السيئة بعدها)، وتلك قاعدة عظيمة ليعرف المسلم من خلالها ما سيؤول إليه أمره في الآخرة، فإنْ كان ممن يتبع الحسنة بحسنة أخرى فليرجو لنفسه العاقبة الحميدة، وإنْ كان ممن يتبع السيئة بسيئة أخرى من غير توبة تغسل عنه الحوبة فليخش العاقبة السيئة، والله تعالى المستعان، ولا حول ولا قوة إلا به.

* * *

صلة الرحم

الرحم هو كل ما يمت إلى الإنسان بصلة عن طريق النسب أو المصاهرة. والمسلم مأمور شرعاً بحسن التعامل مع رحمه جميعاً سواءٌ أكانوا من النسب أم المصاهرة، ففي صحيح الإمام مسلم رحمه الله تعالى من حديث الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «ستفتحون مصر، وهي أرض يسمى فيها القيراط، فإذا افتتحتموها فأحسنوا إلى أهلها فإنّ لهم ذمةً ورحماً»، وفي رواية: «فإن لهم ذمة وصهراً».

قال أهل العلم رحمهم الله تعالى: (الرحم التي لهم كون هاجر أم إسماعيل عليه السلام منهم، والصهر التي لهم كون مارية أم إبراهيم ابن رسول الله ﷺ منهم).

وهذه الرحم قد أعظم الإسلام شأنها وأعلى قدرها، وبِصِلتها والإحسان إليها أرسل الحق تبارك وتعالى نبيه محمداً ﷺ، ففي صحيح الإمام مسلم رحمه الله تعالى من حديث الصحابي الجليل عمرو بن عَبَسة السلمي رضي الله تعالى عنه قال: دخلت على رسول الله ﷺ بمكة فقلت له: ما أنت؟ قال: «أنا نبي»،قلت: وما نبي؟ قال: «أرسلني الله»، قلت: وبأي شيء أرسلك؟ قال: «أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يُوحَّد الله لا يُشرك به شيء».

وإذا كان النبي ﷺ قد أرسله ربه تبارك وتعالى بصلة الأرحام فإنّ صلتها والإحسان إليها دليل على صدق الإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر، ففي المتفق عليه من حديث الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله تعالى عنه

أن النبي ﷺ قال: «ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه».

وصلة الرحم سبب في بركة العمر وبسطة الرزق، ففي المتفق عليه من حديث الصحابي الجليل أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب أن يُبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره فليصل رحمه».

وصلة الرحم نجاة من النار، ففي المتفق عليه من حديث الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري رضي الله تعالى عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار؟ فقال النبي ﷺ: «تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم».

ولتأكيد حق الرحم في البر والإحسان والصلة فقد رتَّب الإسلام الحنيف العقوبة الشديدة على قاطع تلك الرحم والمسيء إليها، ومن جملة ذلك ما يلي:

١ ـ اللعن والطرد من رحمة الله تبارك وتعالى في الدنيا والآخرة، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد].

ويقول سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ [الرعد].

٢ ـ تحريم دخول الجنة على قاطع الرحم، ففي الصحيحين من حديث الصحابي الجليل جُبير بن مُطعم رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة قاطع». قال سفيان: يعني: قاطع رحم.

٣ ـ قَطْعُ أسباب البركة في العمر والرزق عن كل قاطع رحم، ففي المتفق عليه من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله ﷺ قال: «الرحم مُعَلَّقةٌ بالعرش تقول: مَنْ وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله».

٤ ـ أن قاطع الرحم لا يُقبل له عمل صالح، فعند الإمام البخاري رحمه الله

تعالى في (الأدب المفرد) من حديث الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «إن أعمال أمتي تُعرض عشية الخميس ليلة الجمعة، فلا يُقبل عمل قاطع رحم».

٥ ـ أن قاطع الرحم لا يُرفع له دعاء إلى السماء، فقد أخرج الإمام الطبراني رحمه الله تعالى عن الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه قال: (إن أبواب السماء مغلقة دون قاطع الرحم).

٦ ـ أن قاطع الرحم تُعجَّل له العقوبة في الدنيا إضافةً إلى ما ينتظره من العذاب الشديد في الآخرة، فقد أخرج الإمام أبو داود رحمه الله تعالى من حديث الصحابي الجليل أبي بكرة رضي الله تعالى عنه مرفوعاً: (ما من ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما ادُخر له في الآخرة من قطيعة الرحم).

٧ ـ أن قاطع الرحم رجل مشؤوم، وشؤمه ليس قاصراً على نفسه، بل يمتد إلى المجتمع الذي يعيش فيه، فيُحرم من رحمة الله ﷻ، فقد أخرج الإمام البخاري رحمه الله تعالى في (الأدب المفرد) حديث الصحابي الجليل أبي أوفى رضي الله تعالى عنه: (إن الرحمة لا تنزل على قوم فيهم قاطع رحم).

ورغم هذه العقوبات الشديدة فإن كثيراً من الناس في وقتنا الحاضر مُبتَلى بقطيعة رحمه، وقد يتعذرون بكثرة مشاغل الحياة التي تكون سبباً في ضيق وقتهم عن إيجاد متسع لزيارة الأقرباء والأصهار، وذلك في حقيقته تخذيل من الشيطان عن القيام بهذا الواجب الشرعي العظيم.

لذا فمن واجب المسلم الذي يدَّعي كثرة المشاغل أن يجعل من ضمن جدول اهتماماته زيارة الأقرباء والأرحام، وليثق كل الثقة أنه إنْ قام بهذا الواجب ابتغاء وجه الله تبارك وتعالى فإنه سبحانه سيحل البركة في سائر وقته، لأن من اتقى الله جلَّ جلاله بالتزام شرعه جعل له من أمره يسراً وكفاه كل أمر أهمه.

الاستجابة

إن من مقتضيات الإسلام، ومستلزمات الإيمان، ودعائم الإحسان الاستجابة لله تبارك وتعالى، ولرسوله عليه الصلاة والسلام.

والاستجابة لهما تعني في المقام الأول العمل بكتاب الله ﷻ، وبسنة رسوله ﷺ، والوقوف عند حدودهما، فإنّ فيهما النور الذي لا يخبو، والحياة التي لا تنقطع، كما قال الحق تبارك وتعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وكما قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ [الشورى: ٥٢ ـ ٥٣].

وفيهما العصمة من الغواية والضلال، والنجاة من الانحراف والطغيان، فقد أخرج الإمام مسلم رحمه الله تعالى من حديث الصحابي الجليل زيد بن أرقم رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «ألا وإني تارك فيكم ثقلين أحدهما كتاب الله ﷻ هو حبل الله من اتبعه كان على الهُدى ومن تركه كان على ضلالة».

وكما أوصى عليه الصلاة والسلام باتباع الكتاب أوصى باتباع السنة، فقد أخرج الإمام الترمذي رحمه الله تعالى بإسناد حسن صحيح عن الصحابي الجليل العرباض بن سارية رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «وإياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالة، فمن أدرك ذلك منكم فعليه بسنتي».

فمن استجاب لله تعالى ولرسوله ﷺ بالتمسك بالكتاب والسنة أحياه الله ﷻ حياة الأبرار الأتقياء، ومن أعرض عن التمسك بهما أحياه سبحانه حياة البؤساء الأشقياء، كما أكد الحق تعالى ذلك بقوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤].

وبقوله سبحانه: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور].

ومن تأمَّل واقع العالم الإسلامي اليوم وما فيه من قلاقل وفتن واضطرابات أدرك هذه الحقيقة، وهي أنه لا حياة طيبة على الإطلاق إلا بالاستجابة لله تبارك وتعالى ولرسوله ﷺ، وذلك بالتمسك بوحي الكتاب وهَدْي السنة، كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]. أي: يحييكم حياة عزيزة كريمة، تتحقق لكم في كنفها مقومات السعادة، وأساسيات الريادة والقيادة.

والاستجابة لله تبارك وتعالى تعني بَذْل النفس والنفيس في سبيل إعلاء هذا الدين، والمحافظة على بقائه راسخاً شامخاً رغم أنوف الأعداء الملحدين الذين يتربصون بهذه الأمة، ويريدون لها أن تكون ذليلة صاغرة، وأن تعيش تابعة غير متبوعة، لأنهم يكرهون لها الخير لما انطوت عليه قلوبهم الحاقدة من الخبث والمكر، كما أخبر عنهم علام الغيوب تبارك وتعالى بقوله: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥].

فلا بد من أن يكون المسلم في مجال استجابته لله تبارك وتعالى ولرسوله ﷺ جندياً للإسلام في حال السراء والضراء كما قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ [آل عمران: ١٧٢].

والاستجابة لله تبارك وتعالى وللرسول ﷺ تعني أن يكون هذا الإسلام حياً في القلوب منهجاً، ونظاماً، وسلوك حياة، فلا ولاء ولا براء إلا من أجله، ولا اعتصام إلا به، ولا احتكام إلا إليه، ولا عبادة لله تبارك وتعالى

إلا بمقتضى ما جاء فيه من شعائر الدين من غير ابتداع ولا هوىً مُطاع، وهذا هو الفارق الحقيقي بين مسلم القلب ودعيِّ الإسلام باللسان، كما أشار إلى ذلك الحق تبارك وتعالى بقوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٣٦].

فإنّ من يسمع ويستجيب ليس كمن لا يسمع ولا يستجيب، إذ الفرق بينهما كالفرق بين الحي والميت، وشتان ما بينهما كما قال سبحانه: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [فاطر: ٢٢].

والاستجابة لله تبارك وتعالى وللرسول ﷺ تعني الرشد في الأمر، والرشد في الأمر هو جماع أبواب البر كلها وجماع أبواب الخيرات بأسرها، إذ الرشد نقيض الغي والضلال، وإذا نجا العبد من غيه وضلاله هُدي إلى الفلاح بإذن الله جلَّ جلاله، ومن هنا تضرعت الفتية المؤمنة حين أوت إلى الكهف سائلة ربها تبارك وتعالى الرشد في الأمر كما ذكر الله تبارك وتعالى ذلك عنهم بقوله: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الكهف].

فلما استجاب الله تبارك وتعالى ضراعتهم إليه كانت نتيجة الرشد في الأمر الربط على قلوبهم بالثبات على الحق والمعتقد الصحيح، وهذا ما أخبر به سبحانه في شأن تلك الفتية حين قال عزَّ سلطانه: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾ [الكهف].

وأصرح دليل على أن الاستجابة لله تبارك وتعالى وللرسول ﷺ تعني الرشد في الأمر قول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

والاستجابة لله تبارك وتعالى وللرسول ﷺ تعني تقديم طاعة الله ﷻ وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام على حظوظ النفس كلها، وليس أدل على ذلك مما أخرجه الشيخان رحمهما الله تعالى في صحيحيهما عن

الصحابي الجليل عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه قال: (بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في المَنْشَط والمَكْرَه، وعلى أَثَرَةٍ علينا).

ومن زعم بأنه مستجيب لله تبارك وتعالى ولرسوله ﷺ وهو يقدم حظوظ نفسه على طاعة الله ﷻ وطاعة رسوله ﷺ فذاك دَعِيٌّ كاذب لا رصيد لزعمه في الواقع.

وإذا كانت الاستجابة تعني هذه الأمور كلها فهي كذلك سبب لتحقُّق معية الله ﷻ للمستجيب، فيجعل له ﷻ في البأساء مخرجاً، وفي الضراء فرجاً، ويمنُّ عليه جلَّ وعلا بنور البصيرة فلا تلتبس عليه رؤية، ولا يضطرب به موقف، ولا تَزِلُّ به قدم، كيف لا؟ وقد وُفِّق للهداية وعُصم من الغواية.

واستجابة هذا شأنها، وتلك ثمارها لحرية بأن يتنافس في الاتصاف بها المتنافسون، وأن يتسابق إلى ميادينها المتسابقون، ليحققوا المُنية ويظفروا بالبُغية.

* * *

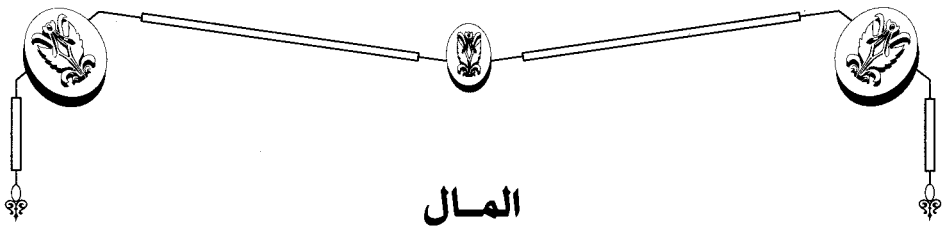

المـال

المال نعمة عظيمة يمتن بها الحق تبارك وتعالى على من يشاء من عباده، كما قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ [العنكبوت].

وكما قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾ [الشورى].

والمال جعله الحق تبارك وتعالى قِوَاماً لمعيشة الإنسان في الدنيا، كما دل على ذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء: ٥].

وجعله الحق تبارك وتعالى زينة للناس في حياتهم الدنيا، كما قال سبحانه: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [الكهف: ٤٦].

والنفس البشرية مجبولة بحكم غريزتها على حب المال، والتطلع إلى جَمْعه والاستزادة منه، كما قال سبحانه: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ [الفجر]. ولقد سمَّى المولى سبحانه المال في بعض المواضع من كتابه الكريم بالخير، فقال ﷻ: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [العاديات].

إلا أنّ هذا المال مهما كثر وعظم لا يكون خيراً للإنسان إلا إذا عرف حق الله تبارك وتعالى عليه فيه حق المعرفة، ومن هذه المعرفة أن يسعى الإنسان قدر جهده إلى إصلاح نفسه وتزكيتها بالاستقامة على منهج الكتاب والسنة والمداومة على العمل الصالح، وفي ذلك يقول المولى سبحانه: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سبأ].

فإذا كان الإنسان صالحاً في نفسه كان صلاحه حافزاً له إلى الاستعانة بهذا المال على تحقيق مرضاة الله تبارك وتعالى، وحينئذ يكون المال خيراً له في الدنيا وقرة عين له في الآخرة.

ومن هذه المعرفة أن يتيقَّن الإنسان بأن المال ملك لله تبارك وتعالى وحده، وأنه واهبه والمتفضل به، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

وكما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾ [فاطر]. وأن يعلم علم اليقين بأنه مُسْتَخْلَفٌ في المال الذي بيده وبحوزته، كما قال سبحانه: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

وإذا علم المسلم أنه مستخلف في المال علم أنه مؤتمن عليه، وذاك يقيه شر البطر والغرور الذي يصاحب الغنى والثراء في العادة، كما قال الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ [العلق].

وإذا علم أن واهب المال هو الله سبحانه سلم من مغبة نسبته إلى نفسه وحوله وطوله، فإنّ مغبة ذلك الهلاك والخسران، كما ذكر سبحانه في شأن قارون الذي نسب المال إلى علمه بقوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨].

فكانت عاقبة تلك النسبة ما أخبر به سبحانه في قوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [القصص].

ومن هذه المعرفة أن يحرص المسلم غاية الحرص على اكتساب المال من وجوهه المشروعة بتحري الحلال وتجنُّب الحرام وكل ما كان فيه شبهة عملاً بما أخرجه الشيخان رحمهما الله تعالى في صحيحيهما من حديث الصحابي الجليل النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الحلال بيِّن وإن الحرام بين وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من

الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه». وبذلك يحذر المسلم من اكتساب المال عن طريق الربا، فإنّ الربا كفر بالنعمة موجب للنقمة، كما قال سبحانه: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾ [البقرة].

ويحذر من اكتساب المال عن طريق الرشوة، فإن ذلك سبيل اللعن والطرد من رحمة الله تبارك وتعالى في الدنيا والآخرة، فقد أخرج الإمام ابن ماجه رحمه الله تعالى من حديث الصحابي الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ قال: «لعنة الله على الراشي والمرتشي». ويحذر من اكتساب المال عن طريق ترويج المخدرات والمسكرات، وبيع آلات اللهو والمعازف، فذلك كله من الكسب الخبيث الذي حرمه الإسلام وأمر بالابتعاد عنه، كما قال سبحانه: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ويحذر من كل طريق يُكْتَسَبُ فيه المال بالباطل، فذاك محرم شرعاً لقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [البقرة].

ومن هذه المعرفة أن يحذر المسلم غاية الحذر من أن يكون اشتغاله بجمع المال ملهاةً له عن القيام بالواجبات الشرعية والفرائض الدينية، فذلك طريق الخسران المبين، كما قال المولى سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون].

بل عليه أن يكون سلوكه في جَمْع هذا المال سلوك من امتدحهم الحق تبارك وتعالى بقوله: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ

﴿ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور].

ومن هذه المعرفة أن يخصص المسلم جزءاً من ماله يجود به على إخوانه الفقراء والمساكين في الداخل والخارج عن طريق الزكاة الواجبة والصدقة المستحبة، فإن ذلك من أعظم وجوه شكر المنعم تبارك وتعالى على هذه النعمة العظيمة، ومن أسباب حلول البركة والزيادة، كما قال المولى سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾ [فاطر].

ومن هذه المعرفة أن يسلك المسلم مسلك الاعتدال في إنفاق المال من غير إسراف ولا تقتير، كما قال سبحانه في بيان سلوك عباده المؤمنين في ذلك: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان].

إذاً فخيرية المال لا تتحقق للعبد المسلم إلا بتلك المعرفة بجميع صورها وأحوالها، ومن هنا كانت جديرة بعناية من أنعم الله تبارك وتعالى عليه بنعمة المال، حتى يكون ماله سفينة النجاة له من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

* * *

العـزة

كثيراً ما يردد الإنسان لفظة «العزة»، تنطق بها شفته فيطمئن بها قلبه، وتسكن لها نفسه، وتطرب بها أذنه، وما ذلك إلا للمعاني الجميلة التي تنطوي عليها تلك اللفظة العظيمة.

فالعزة تعني القوة، وتعني العلو، وتعني النصرة، وتعني التمكين، وتعني السيادة، وتلك المضامين تعشقها النفس البشرية، وتلهث جادة مجدة في سبيل تحقيقها في عالم الذات ودنيا الوجود، لتنال تلك النفس حظها مما ترنو إليه وترغب في الحصول عليه.

ويظن كثير من الناس أنّ العزة حق مشاع لكل مَنْ زعمه وادَّعاه، وبذلك أصبح لفظ العزة من الألفاظ الكثيرة التي انتُهكت حرمتها نتيجة سوء استخدامها وعدم المبالاة في إطلاقها، لدرجة أن الفاسق العاصي إذا ذُكِّر بالله تبارك وتعالى وخُوِّف من عقابه ونُصح بالإقلاع عن معصيته جعل هذا التذكير والتخويف والنصح اعتداءً على عزته، وجرحاً لشعوره، وخدشاً لكرامته.

وفي واقع الأمر أن العزة ليست حقاً مشاعاً لكل الناس، بل هي حق محتكر على طائفة منهم، وهي الطائفة التي حققت الإيمان بصدق ويقين، وهذا ما يدل عليه قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨] والعزة في مجملها تنقسم إلى قسمين: عزة برٍّ، وعزة إثم.

فأما عزة البر فهي العزة المضبوطة بأصول الشرع وقواعده، وتلك العزة هي العزة الحقيقية التي لا نجاة للعبد من خزي الدنيا وعذاب الآخرة إلا بتحقيقها في نفسه قلباً وقالباً، ظاهراً، وباطناً، قولاً وعملاً واعتقاداً.

ومن ملامح تلك العزة: الاعتزاز بالله تبارك وتعالى رباً واحداً لا معبود بحق سواه، فلا خضوع، ولا عبادة إلا له، ولا رجاء إلا فيه، ولا خوف إلا منه، وبتحقيق هذه العزة تتحرر النفس البشرية من الشرك الأصغر والأكبر، وتتطهر من البدع كلها، ليكون التوحيد الخالص هو المصاحب للمسلم في مسيرته التعبدية التي يتوصل بها إلى رضوان خالقه سبحانه.

ومن ملامح تلك العزة: الاعتزاز بالنبي ﷺ رسولاً خاتماً لجميع الرسل والأنبياء عليهم السلام، فيحصل بتلك العزة الانصياع لشرعه والانقياد لهديه، فلا شهوة مطاعة، ولا هوى مُتَّبع، ولا انحراف عن الجادة التي حدَّد الحق تبارك وتعالى معالمها وأوضح مسالكها، مهما تشعَّبت بالناس السبل، وتعددت بهم الطرق، وعصفت بهم الملل والنحل، ومن هنا جاء التحذير الرباني من الخروج عن هذا المسار بقوله سبحانه: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

ومن ملامح تلك العزة: الاعتزاز بالإسلام ديناً شاملاً لجميع مناحي الحياة، ليكون هو القول الفصل حُكماً وتحاكماً في دنيا الواقع وعالم الوجود، دون نظام بشري ينازعه، أو قانون وضعي ينافسه، وبذلك يتحقق الإيمان بالاستعلاء على أحكام الجاهلية، كما قال سبحانه: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة].

ومن ملامح تلك العزة: المحافظة على ثوابت الإسلام دون حيدة عنها، أو تفلُّت منها، أو مساومة عليها، وإنّ من ثوابت الإسلام العفة والحشمة للمرأة المسلمة التي هي دُرَّةٌ مكنونة، وجوهرة مصونة، تلك المرأة المسلمة التي يريد دعاة التغريب أن ينالوا من شرفها وعفتها حين طالبوها بنزع الحجاب الشرعي، لتكون سافرة متبرجة متهتكة، وإنّ الاستجابة لتلك المطالبة من قبل المرأة المسلمة خروج عن دائرة العزة، ودخول في دائرة الذلة والهوان.

هذا ما يتعلق ببعض ملامح العزة في قسمها الأول، وهو (عزة البِرِّ).

أما القسم الثاني، وهو (عزة الإثم) فتلك العزة عزة زائفة، لأنها من

تسويل الشيطان وخداعه للنفس البشرية، كما قال الحق تبارك وتعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥].

وكما قال سبحانه: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣]. ومن سعى لاهثاً وراء هذه العزة الزائفة فإنه ممن ينطبق عليهم قول الحق تبارك وتعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۚ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٨].

وعزة الإثم هذه تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: عزة التعالي على الآخرين، والتسلط عليهم من غير وجه حق، لانتهاك حرماتهم، واغتصاب حقوقهم، وهذا هو المَعْنِيُّ بقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾ [البقرة].

القسم الثاني: الاعتزاز بالارتماء في أحضان أعداء الإسلام، مع الاقتناع بأنّ ما هم عليه تقدُّم ومدنية، وما عليه المسلمون تخلف ورجعية، وذلك ـ بلا شك ـ يمثل قمة الانهزامية النفسية التي تتنافى جملةً وتفصيلاً مع العزة الحقيقية، لأن ذلك الارتماء تَمَيُّعٌ في الشخصية يقود في نهاية المطاف إلى الانسلاخ من الهوية الإسلامية، ومن هنا فقد أنكر الحق تبارك وتعالى على مَنْ جعل هذا الطريق مسلكاً للعزة حين قال سبحانه: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء].

وحيث اتضحت أهم ملامح العزتين عزة البِرِّ وعزة الإثم، فليعلم المسلم علم اليقين أنه لا خيار له في أيهما شاء، بل إنّ إيمانه مرهون بعزة البِرِّ، كما دل على ذلك قول الحق تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام].

الوصية بالتقوى

إن وصايا الله تبارك وتعالى، ووصايا رسوله ﷺ حياة للقلوب، وتهذيب للنفوس، وتزكية للجوارح، ونور للبصائر، وهداية لأرشد المسالك لمن وعاها وعمل بمقتضاها.

وإذا كانت الوصية تعظم بعظمة من صدرت منه وأُخذت عنه، فكيف بوصية صدرت من رب العالمين العليم الخبير تبارك وتعالى الذي وصف نفسه المقدسة بقوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وكيف بوصية صدرت من المصطفى الأمين عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم الذي وصفه ربه تبارك وتعالى بقوله عز سلطانه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة]؟

إن تلك الوصايا وهي صادرة من الله تبارك وتعالى ومن رسوله ﷺ جديرة بأن تعيها آذان واعية، وأن تعقلها قلوب حية بالإيمان واليقين، حتى تنقاد طائعة للعمل بمقتضى تلك الوصايا التي هي سبب النجاح والفلاح والسعادة والنجاة في الدنيا والآخرة.

وإن مما وصَّى به الحق تبارك وتعالى عباده، ووصَّى به النبي ﷺ أمته (التقوى)، فهي وصية الله ﷻ للأولين والآخرين من عباده حين قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

وهي وصية رسول الله ﷺ لعموم أمته، ففي الحديث الذي أخرجه

الإمام الترمذي رحمه الله تعالى وحسّنه وصححه عن الصحابي الجليل العرباض بن سارية رضي الله تعالى عنه قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودِّع فأوصنا، قال: «أوصيكم بتقوى الله».

هذه الوصية الغالية وعاها حق الوعي الصحابة الكرام رضي الله تعالى عنهم، ولا سيما من تولى خلافة المسلمين منهم، فكانوا في أعلى درجات التقوى في ظاهر أمرهم وباطنه، بل كانوا يتطلعون إلى من يذكرهم بتقوى الله ﷻ في جميع شئونهم وشتى أحوالهم، وبذلك استقامت أحوال الراعي والرعية في ظل شريعة خالدة قوامها تقوى الله تبارك وتعالى، وأساسها الالتزام بالمنهج الرباني الحق في جميع مناحي الحياة صغيرها وكبيرها دقيقها وجليلها.

إن بتقوى الله ﷻ تنتظم حياة البشرية كلها في الدين والدنيا والآخرة، فبالتقوى يُعبد الحق تبارك وتعالى وحده لا شريك له، كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة].

وبالتقوى يحذر المسلم من زلة القدم يوم القيامة، كما قال الحق تبارك وتعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة].

وبالتقوى توصل الأرحام ويُحسن إلى الأقرباء، كما قال المولى جلَّ جلاله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١].

وبالتقوى تُحفظ الأنفس وتُصان الدماء، كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [البقرة].

وبالتقوى يستقيم العباد على منهج الله تبارك وتعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام].

وبالتقوى يسلم القلب من النفاق، وتتطهر الجوارح من الرياء، فتكون الأعمال خالصة صالحة، وبذلك تقع موقع الرضا والقبول، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

وبالتقوى تعم الخيرات، وتكثر البركات، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وبالتقوى تُغفر الذنوب وتكفر السيئات، كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنفال].

وبالتقوى تحصل ولاية الله تبارك وتعالى للعبد فيكون آمناً من الخوف والحزن، كما قال الحق سبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس].

وبالتقوى يفوز العبد بالخلود في جنة النعيم، كما قال سبحانه: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران].

وبالتقوى تكون الآخرة خالصة عند الله تبارك وتعالى لمن اتقاه، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٥].

وبالتقوى تُصلح أعمال العباد، كما قال الحق سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١].

وهكذا تتجلى ثمار التقوى، وتبرز ملامحها مشرقة وضَّاءة، يقيناً في القلب، وسعادة في النفس، وبركة في الرزق، وعاقبة حميدة تقر بها العين في الدنيا والآخرة، والموفق كل التوفيق من أعانه ربه تبارك وتعالى على بلوغ مراتبها، وسلوك مسالكها: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد].

* * *

وصايا لقمان

إن في وصايا لقمان الحكيم الرجل الصالح رحمه الله تعالى لابنه، والتي حواها القرآن الكريم بين دفتيه نبراساً يضيء الطريق لكل أب مسلم في كيفية تربيته لأولاده التربية السلوكية الصحيحة على منهاج الكتاب والسنة.

تلك الوصايا العظيمة التي تناولت جوانب مهمة في العقيدة والعبادة والأخلاق، وذلك هو الثلاثي الإيماني الذي ترتكز عليه المعالم الحقيقية للشخصية الإسلامية، فقد أقام لقمان رحمه الله تعالى صرح العقيدة في قلب ابنه شامخاً خالصاً من جميع الشوائب حين أوصاه بقوله: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣].

إن النهي عن الإشراك بالله تبارك وتعالى هو مرتكز دعوة الأنبياء والمرسلين عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم إلى جميع أممهم وأقوامهم، فلا غرو ولا جرم أن تكون الوصية الأولى من لقمان لابنه هي عدم الإشراك بالله جلَّ جلاله، فإنّ من أعظم الظلم، ومن أكبر أنواع الفرية أن يجعل الإنسان لربه تبارك وتعالى نداً وقد خلقه، ومن هنا فقد أنكر الحق سبحانه هذا الصنيع على من صدر منه بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وكيف يُشرك بالله تبارك اسمه وجلّت عظمته وهو المتوحد في الجلال والجمال والكمال؟ وكيف يُعبد معه غيره وهو المتفرد بالخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة؟ وكيف يُتخذ إلهاً من دونه وهو الذي لا معبود سواه، ولا مرتجى إلا إياه؟ وكيف تتعلق القلوب بغير علَّام الغيوب وهو الذي بيده وحده مقاليد الأمور وتصاريف الدهور؟

إن هذه العقيدة الواضحة الصريحة الصحيحة هي التي ربَّى عليها المصطفى الأمين عليه الصلاة والسلام صحابته الكرام رضي الله تعالى عنهم صغاراً وكباراً، رجالاً ونساءً، فقد أخرج الإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه من حديث الصحابي الجليل معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه قال: قال النبي ﷺ: «يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد؟»، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «أن يعبدوه ولايشركوا به شيئاً».

وتلك قضية عقدية أساسية يجب على كل أب مسلم أن يغرسها في قلوب أولاده بنين وبنات، حتى لا يتعلقوا بغير الله تبارك وتعالى فتضل نفوسهم وتزل أقدامهم في حمأة الشرك الذي يقود إلى النار وبئس القرار.

والوصية الثانية التي وصَّى بها لقمان ابنه هي قوله: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ [لقمان]. وتلك وصية عظيمة تتعلق بتربية الابن على السلوك الفاضل في حُسن التعامل مع الله تبارك وتعالى الرقيب الحسيب الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة لا في الأرض ولا في السماء، وهذا من شأنه أن يربي الابن على استشعار مراقبة الله تبارك وتعالى دائماً وأبداً في جميع أحواله وتصرفاته من غير أن يغادره ذلك الاستشعار لحظة واحدة في خلواته وجلواته حتى يقي نفسه من زلة القدم يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

ويوم أن يحرص الأب المسلم على تربية أولاده بنين وبنات على هذا السلوك الفاضل القائم على مراقبة الله ﷻ، وأنه سبحانه مطلع على كل شيء ولا تخفى عليه خافية فسوف ينشأ الأولاد على حب الفضيلة وبغض الرذيلة، وحينئذ تسعد الأسر، وتسلم المجتمعات من الانحرافات السلوكية التي تقود إلى الجرائم الخلقية.

والوصية الثالثة التي أوصى بها لقمان ابنه هي قوله: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [لقمان: ١٧].

والصلاة شأنها عظيم في الإسلام، فهي صلة بين العبد وربه، وهي الحد الفاصل بين الإيمان والكفر، فقد أخرج الإمام الترمذي رحمه الله تعالى بإسناد حسن صحيح عن الصحابي الجليل بُرَيْدة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر».

كما أخرج الإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه من حديث الصحابي الجليل جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة». ويؤكد النبي ﷺ على الأولياء الاهتمام بهذا الجانب التعبدي في حق أولادهم بنين وبنات، ففي الحديث الذي أخرجه الإمام أبو داود رحمه الله تعالى بإسناد حسن عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر».

بل إن الحق تبارك وتعالى أمر نبيه محمداً ﷺ بأن يأمر أهله بالصلاة، فقال سبحانه: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه].

وتربية الأولاد على الصلاة تربية لهم على تطهير جوارحهم من الفواحش والمنكرات، فإن الحق تبارك وتعالى يقول: ﴿إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ ۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

ومن هنا فإنه يجب على الأب المسلم أن يتعاهد أولاده بنين وبنات بالمحافظة على أداء الصلاة في أوقاتها، وأن يكون قدوة صالحة لهم في الاهتمام بأداء هذا الواجب الشرعي العظيم حتى تزكو النفوس وتستقيم القلوب.

والوصية الرابعة التي وصَّى بها لقمان ابنه هي قوله: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

وتلك الوصية تربية عملية للأولاد على أن يكونوا أدوات بناء وإصلاح

في أسرهم ومجتمعاتهم عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو صمام الأمان للمجتمع من غضب الله تبارك وتعالى وسخطه، كما قال سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنفال].

ويوم أن يتربى الأولاد على الاهتمام بهذا الواجب الشرعي العظيم فسوف تتحول أسرنا ومجتمعاتنا إلى محاضن تقوى، ومدارس فضيلة، ومنابر توعية وتوجيه، وفي سبيل تحقيق هذه الغاية السامية لا بد من الصبر على الأذى واحتمال المشقة، احتساباً للأجر العظيم من المنّان الرحيم تبارك وتعالى.

والوصية الخامسة التي أوصى بها لقمان ابنه هي قوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان].

إنها وصية عظيمة تتعلق بالذوق الرفيع، والأدب الكبير في حُسن التعامل مع الناس، ولين الجانب لهم، وذلك لا يكون إلا بالتواضع وخفض الجناح، وتَرْك التكبر والغرور والعُجب بالنفس، كما يكون ذلك بالصفح والإعراض عن المسيئين فقد قال الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت].

كما يكون ذلك بالابتعاد عن البذاءة في القول والفحش فيه، فهو شأن من ساءت أخلاقهم وفسدت أذواقهم.

وبذلك يتبيَّن بجلاء أهمية تلك الوصايا في تهذيب الأخلاق، وتقويم السلوك، والارتقاء بالإيمان، وترسيخ مفاهيم الحق والفضيلة في إطار العبادة الصحيحة والعقيدة السليمة، فرحم الله تبارك وتعالى عبده الصالح لقمان، وأجزل له المثوبة والإحسان.

* * *

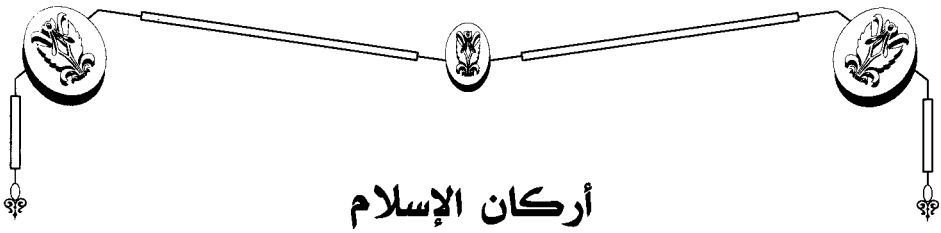

أركان الإسلام

دين الإسلام يقوم على خمسة أركان أساسية، كل ركن منها له أثره العظيم في تزكية النفس البشرية وتصحيح مسارها وتقويم سلوكها في هذه الحياة.

فالشهادتان إذا نطق المسلم بالجزء الأول منها، وهو شهادة أن (لا إله إلا الله) يكون بذلك قد أعلن براءته من الشرك كله صغيره وكبيره، وأعلن صادق ولائه، وخالص توحيده لربه تبارك وتعالى، وحينئذ لا يعرف معبوداً سوى الله جلَّ جلاله، فلا يخضع لصنم أو وثن أو طاغوت: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾ [المائدة].

ولا يطلب غوثاً من جلب نفع، أو دفع ضر إلا من الله تبارك وتعالى فيما لا يقدر عليه إلا هو سبحانه: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ [الأنعام].

ولا يحتكم إلى غير شرع الله تبارك وتعالى، إذ هو المشرِّع وحده، كما قال سبحانه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

ومن احتكم إلى غير شرعه فهو متخذ أرباباً من دون الله تبارك وتعالى، وهو ما أنكره الحق سبحانه أشد الإنكار حين قال: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

وحين قال سبحانه: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

ولا يلتفت يمنةً أو يسرة يستشرف سبيلاً غير الإسلام لتستقيم به أمور حياته، بل يعتقد الاعتقاد الجازم بأن الإسلام هو الدين الحق الذي لا يقبل الله ديناً سواه كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

وكما قال سبحانه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران].

وحينئذ يثبت على هذا الإسلام حتى تأتيه منيَّته وهو كذلك، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وإذا نطق المسلم بالجزء الثاني منها، وهو شهادة أن (محمداً رسول الله) أعلن بذلك أنه لا طريق موصل إلى رضوان الله تبارك وتعالى في الدنيا والآخرة إلا هذا الطريق، وهو طريق محمد ﷺ، فيقتدي بهديه، ويستن بسنته، ويحرص أن يكون سلوكه في هذه الحياة موافقاً لسيرته عليه الصلاة والسلام، فإنّ الله تبارك وتعالى جعله أسوة المؤمنين إلى يوم الدين كما قال سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب].

ومَنْ رام الوصول إلى الملك العلَّام من غير طريق الرسول عليه الصلاة والسلام فقد زلَّت به القدم وضلَّت به السُّبل، فكان إلى الغواية أقرب منه إلى الهداية، ومن هنا جاء الأمر من الله العظيم سبحانه إلى نبيه الكريم ﷺ ليرشد العباد إلى طريق السداد بقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

وما من مسلم يلتزم بحقيقة هاتين الشهادتين إلا ويتحقق له أمران عظيمان: أحدهما (الكفر بالطاغوت)، وثانيهما (الإيمان بالله تبارك وتعالى)، وفي ذلك يقول المولى سبحانه: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

والعروة الوثقى هي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله،

ومن كفر بالطاغوت، وآمن بالله تعالى حَسُن دينه، وكمل إيمانه، وصحت عقيدته، كما قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

وإذا حَسُن الدين، وكَمُل الإيمان، وصحَّت العقيدة بلغت النفس البشرية ذروتها في جمال الظاهر وسلامة الباطن.

والركن الثاني من أركان هذا الدين العظيم وهو (الصلاة) إذا حافظ عليه المسلم غاية المحافظة من غير إضاعة أو تفريط زكت نفسه، وتطهرت جوارحه من جميع الفواحش والمنكرات، كما قال الحق تبارك وتعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. وهذا ميزان دقيق وضعه الشارع الحكيم، ليزن به المسلم مقدار الإحسان والإساءة في أداء تلك الصلاة، فمن نهته صلاته عن الفحشاء والمنكر كان ذلك دليلاً على أنه أحسن فيها، ومن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر كان ذلك دليلاً على أنه أساء فيها، والإساءة في الصلاة أمرها خطير جداً، لأنها تعني إساءة الأدب مع الله تبارك وتعالى، إذ الواقف في الصلاة واقف بين يدي الله العظيم الكبير الجبار القهار، فإذا لم يحسن هذا الوقوف كان مستخفاً بعظمة من وقف بين يديه سبحانه، وهذا بلا شك دليل قساوة القلب وضعف الإيمان، وهو السبب الذي جعل كثيراً من الناس لا ينتفعون بصلاتهم في مجال تهذيب نفوسهم وتقويم سلوكهم.

والركن الثالث من أركان الإسلام وهو (الزكاة) له أثره العظيم في تزكية النفس وتطهير القلب، كما قال الحق تبارك وتعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]. فهذه الزكاة تطهر النفس من رذيلة البخل والشح، ليكون المسلم من الباذلين أموالهم في سبيل مرضاة ربهم تبارك وتعالى.

وهي كذلك تزكي القلب من جميع العلائق التي تزاحم محبة الله تبارك وتعالى، فإنّ المال إذا كان حبه مزاحماً لحب الله تبارك وتعالى في قلب

المسلم كان ذلك دليل الفسق والعياذ بالله، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة].

والركن الرابع من أركان الإسلام وهو (الصيام) له أثره الذي لا يُنكر في غرس بذور التقوى في قلب المسلم، كما قال الحق جلَّ جلاله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة].

وكيف لا يكون الصيام كذلك وهو يربي المسلم على صِدْق المراقبة لله تبارك وتعالى؟ ولو أن كل مسلم استفاد من مدرسة التقوى التي شُرع الصيام من أجلها حق الاستفادة لاستقامت حياته كلها على وفق منهج الله ﷻ دونما زيغ أو شطط.

والركن الخامس من أركان الإسلام وهو (الحج) له أثره البالغ في تزكية النفس البشرية من أدرانها وشوائبها، وليس أدل على ذلك مما أخرجه الإمامان البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى في صحيحيهما عن الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه».

وهكذا تتجلى الحكمة الربانية البالغة من ابتناء الإسلام العظيم على هذه الأركان العظيمة، فهي زاد إيماني، وغذاء روحي، يهذب النفس، ويصقل القلب، ويزكي الجوارح، ويضبط السلوك.

ولكِنْ - ويا للأسف الشديد - إن كثيراً من المسلمين في وقتنا الحاضر يؤدون هذه الشعائر العظيمة التي هي قوام هذا الدين العظيم، ومع ذلك فإنهم لا يجدون لها الأثر الكبير في تزكية نفوسهم واستقامة سلوكهم، وما ذلك إلا لأنهم يؤدون هذه العبادات أداءً صورياً لا حقيقياً، فهم يؤدونها حركاتٍ جوفاء، أداءً شكلياً مفرغاً من المضمون الذي من أجله شُرعت تلك

العبادات، ومن هنا تجد المصلي لا يتورع عن الكذب، والغيبة، والغش، ولا يتنزه من الزنا، والربا، وشرب الخمر، وعقوق الوالدين، وقطيعة الرحم، وغير ذلك.

وتجد الصائم مطلق اللسان في رديء الكلام، ومطلق العين في رؤية الحرام، وكذلك بقية الجوارح.

وتجد الحاج لا يتورَّع أن يحج بنفقة خبيثة، ولا يترفَّع في المشاعر الطاهرة المقدسة عما ألفه في سواها من انحدار خلقي وانحراف سلوكي.

وإنّ الإسلام الحنيف ليس صوراً وأشكالاً، بل هو مضامين وحقائق، وحين أضاع المسلمون حقائق الإسلام أصبح الدين في الأيدي، وتمكنت الدنيا من القلوب، فحلّت الخيبة وضاعت الهيبة.

* * *

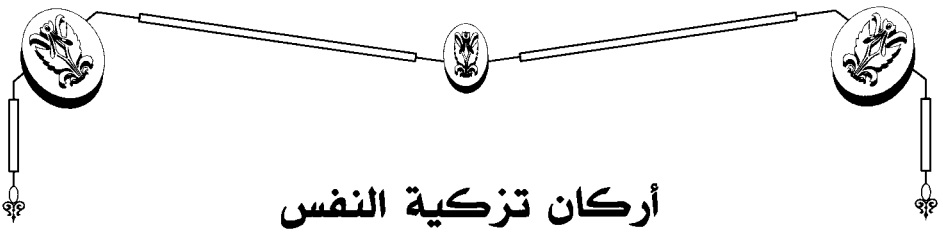

أركان تزكية النفس

إن تزكية النفوس من أدرانها، ومعالجة القلوب من أدوائها مهمة صعبة، وعملية شاقة تحتاج إلى مجاهدة عنيفة، وتفتقر إلى مكابدة مريرة، ومن ثَمَّ يفوز العبد بالعاقبة الحميدة، وهي الهداية إلى أقوم السبل، وذاك وَعْد حق قطعه الله تبارك وتعالى على نفسه حين قال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وبما أن تزكية النفس ليست من السهولة بمكان فإنها تحتاج إلى عزم صادق، وتصميم جازم لا يعقبه خور ولا ينتابه فتور في مواجهة نزعات الهوى ونزغات الشيطان، من أجل أن يتحقق للإنسان فلاح الدنيا والآخرة، وبذلك يُنجي نفسه من أسباب الخيبة والخسران، كما أكد ذلك الحق تبارك وتعالى حين قال: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس].

ومن أجل أن تكون التزكية سبباً رئيساً في إصلاح النفس وتهذيبها وتقويم اعوجاجها فلا بد من أن ترتكز على ثلاثة أركان أساسية، كل ركن منها دائر في فلك الآخر ومكمِّل له:

الركن الأول: (التقوى)، فإنّ تقوى الله تبارك وتعالى بمفهومها الشامل تعني الخوف من الله ﷻ باتقاء ما يكون سبباً للوقوع فيما يسخطه، وذلك الخوف عامل أساس في تزكية النفس، وتهذيب القلب، واستقامة الجوارح، مما يولِّد تعلُّقاً بالله جلَّ شأنه وتقرباً منه، وكلما تقرَّب المسلم من ربه تبارك وتعالى ازداد خوفاً منه وخشية له، ومن هنا كان العلماء أشد الناس خشية لله تبارك وتعالى، نظراً لعظم قربهم منه سبحانه، كما قال عز سلطانه: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: ٢٨].

ولو أن كل مسلم اتقى الله ﷻ حق التقوى لصلحت النفوس وزكت القلوب، وتهذبت الجوارح كلها فلا تتجرأ أبداً على تجاوز الحدود وانتهاك المحارم، بل تكون مسلمة القياد لرب العباد تبارك وتعالى استقامةً منها على سبيل الهُدى والرشاد.

الركن الثاني: (المراقبة)، فمراقبة الله تبارك وتعالى تحمل المسلم على أن يدرك حق الإدراك بأن الله جل شأنه محيط به ظاهراً وباطناً، فهو الذي يعلم السرائر وما تكنّه الضمائر، كما قال سبحانه: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾ [طه].

وإذا أيقن المسلم بهذه الحقيقة راقب ربه تبارك وتعالى حق المراقبة، فيسعى جاهداً من غير توانٍ لإصلاح نفسه وتهذيب سلوكه، وحينئذ يستقيم على طاعة الله ﷻ وطاعة رسوله ﷺ، استقامة تجعله في حصن حصين وبُرج منيع من أنْ يتسلّط عليه هوى فينزلق به في وَحَل الرَّدى، وتجعله في مأمن كبير من أن تنجرف به نزوة، أو تنحرف به شهوة.

الركن الثالث: (تذكُّر الرجوع إلى الله تبارك وتعالى)، فكل إنسان راجع لا محالة إلى ربه جل جلاله وحيداً مفلساً من كل شيء إلا ما قدّمه من عمل خيراً كان أو شراً، كما قال الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وإذا تذكر الإنسان أنه مهما عُمِّر في هذه الحياة فهو راجع إلى مولاه سبحانه ليجازيه على أعماله كلها حمله ذلك التذكر على بذل غاية الجهد في إصلاح نفسه وتزكية قلبه، والسمو بسلوكه إلى فضائل الأعمال، ومحاسن الصفات، ومكارم الأخلاق، ليجعل من هذه الدنيا الفانية مزرعة خصبة للدار الباقية، فلا يفوّت لحظة من لحظات عمره إلا وقد استغلها بعمل صالح وتجارة رابحة يقتحم ميادينها ويطرق أبوابها ليكون له من رصيدها ذُخْر له عندربه تبارك وتعالى يرجو به ثوابه ويتقي به عقابه.

ومن هنا فقد أمر الله سبحانه عباده المؤمنين باتقاء يوم الرجعة إليه

حين قال تبارك وتعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة]. وحين قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨].

إنّ هذه الأركان الثلاثة عامل أساس لإصلاح حياة الناس وتزكية نفوسهم، مَنْ شمَّر عن ساعد الجد لتوثيق تلك الأركان في دنيا وجوده ومحيط ذاته نال الحظ الأوفى من إقبال الله تبارك وتعالى عليه والفوز بالزلفى لديه، ومصداق ذلك ما أخرجه الإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه عن الصحابي الجليل أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ قال: «إذا تقرب العبد إليَّ شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإذا تقرب إليّ ذراعاً تقربت منه باعاً، وإذا أتاني يمشي أتيته هرولة».

* * *

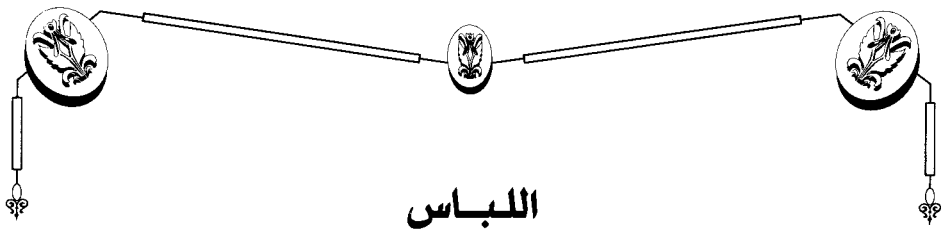

اللبـاس

خاطب الحق تبارك وتعالى عموم بني آدم بقوله سبحانه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ﴾ [الأعراف: ٢٧].

فهذه الآية الكريمة من آيات سورة الأعراف في كتاب الله تبارك وتعالى تعالج مظهراً مهماً من مظاهر السلوك الإنساني في أوجز عبارة وأدق بيان، ذلكم المظهر السلوكي الإنساني المهم هو اللباس الذي يُعَدُّ صورة رائعة من صور الجمال في حياة الناس، وهو ما يقتضيه الذوق الرفيع ويدعو إليه العقل السليم، لأنه منسجم مع الفطرة الخالصة النقية التي فطر الحق تبارك وتعالى عباده عليها، وهي فطرة الحياء والحشمة، وفطرة التأدب بمكارم العادات ومحاسن الصفات.

إن اللباس ليس مجرد قماش يوضع على الجسد فحسب، بل هو مظهر ينبئ عن مخبر، ومؤشر يدل على استقامة أو انحراف، وبإمكان الإنسان بكل سهولة أن يستطلع حقيقة الآخر من خلال سمته ولباسه، ومن هنا جاء الوعيد الشديد بالطرد والإبعاد من رحمة الله تبارك وتعالى في الدنيا والآخرة لكل من بدَّل لباسه بلباس الجنس الآخر من الرجال والنساء، ففي الحديث الذي أخرجه الإمام أبو داود رحمه الله تعالى بإسناد صحيح عن الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: (لعن رسول الله ﷺ الرجل يلبس لبسة المرأة، والمرأة تلبس لبسة الرجل).

وفي صحيح الإمام البخاري رحمه الله تعالى من حديث الصحابي الجليل عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: (لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال).

فالرجل حين يلبس لباس المرأة، فإنَّ هذا اللباس يعكس ما يختلج داخل ذلك الرجل من شعور بفقد الرجولة وذوبان الشخصية، فيحاول جاهداً محاكاة النساء فيما هو من خصائصهن بطريقة أو بأخرى، مما يدفعه إلى التكسُّر، والتميُّع، والتغنُّج، فيتيح بذلك فرصة للآخرين للتندُّر به، والسخرية منه، والطعن فيه، لميوعته وانسلاخه من رجولته.

وهذا يدل دلالة صريحة واضحة على خطورة المسار الذي يحدده نوع اللباس في حياة كل الناس، وإذا أردت أخي المسلم برهاناً على هذه الحقيقة الناصعة فانظر إلى واقع شبابنا حين انبهروا بحضارة الغرب، كيف قلدوا أعداء الملة والدين في جميع أنماط حياتهم ولا سيما في اللباس الذي أظهروا افتخارهم واعتزازهم به، وأبدوا تذمرهم واستهزاءهم بلباس آبائهم وأجدادهم وهو لباس الحشمة والوقار، زاعمين بأنه لباس لا يدل إلا على التخلف والانحطاط والرجعية ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦]، ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥].

وبذلك تميَّعت الشخصية الإسلامية لدى هؤلاء الشباب حتى فقدوا رجولتهم، وأصبحوا عالة على آبائهم وأمهاتهم ومجتمعاتهم، بل أصبحوا عالة على الأمة الإسلامية بأسرها، ويُخشى عليهم من هذا التصرف أن ينسلخوا من دينهم وعقيدتهم، وهو ما حذر منه غاية التحذير من لا ينطق عن الهوى عليه الصلاة والسلام في قوله ـ كما سبق ـ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»، قالوا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ «قال: فمن:؟»، أي: نعم هم اليهود والنصارى، يحذِّر عليه الصلاة والسلام من الاتصاف بأفعالهم والاقتداء بأخلاقهم.

وإذا نظرت أخي المسلم إلى واقع الفتيات المسلمات فلن تجد واقعهن بأسعد حالاً من واقع الفتيان، بل إنْ لم يكن مماثلاً له فهو أشد نكارة منه، حيث أصبحت الفتاة المسلمة وهي مَنْ نشأت في ظل الإسلام وترعرعت في أحضان الفضيلة، أصبحت تحاكي العاهرات الفاجرات من

بنات أحفاد القردة والخنازير اللاتي لا يقمن وزناً لدين، أو عرض، أو حشمة، أو خلق، أو شرف.

وأصبح كثيرات من بنات المسلمين يلهثن وراء الموضة أنَّى كانت وحيثما وُجدت، ضاربات عُرض الحائط بلباس الحشمة والعفة والوقار.

وهكذا في سبيل تحصيل أسباب المعاصرة فَقَدَ كثيرٌ من أبناء المسلمين أصالة الدين، وجوهر العقيدة، وجمال الأخلاق، وتلك مصيبة عظمى ونكبة كبرى يسعد بها أعداء الإسلام غاية السعادة، ويطرب لها المنافقون من أهل الزيغ والأهواء غاية الطرب.

فهل آن لنا أن نعيد حساباتنا مع أنفسنا وأبنائنا وبناتنا على ضوء مفهوم تلك الآية العظيمة، فنعرف للِّباس الإسلامي حقه، ونعطيه ما يستحقه من العناية والاهتمام، والدعم والتشجيع، لأنه رمز الطهارة والعفة، وعنوان الإباء والعزة؟

هل آن لنا ونحن نرى تدهور الأخلاق، وضياع المُثل والقيم أن نقوِّم منهج حياتنا على أساس منهج الله القويم ودستوره الحكيم؟ إنها مسؤولية عظمى وأمانة كبرى مناطة بعنق كل مسلم تجاه أولاده ليحميهم من التيارات الفاسدة والأهواء المضلِّلة، ولا سيما إذا كانوا في سن المراهقة التي هي أخطر المراحل في حياة الإنسان على الإطلاق، وذلك بالتربية على خُلق الإيمان وتعاليم الإسلام، وبتعاهدهم على الالتزام بفضائل الأعمال ومكارم الصفات، والأخذ بأيديهم إلى ما فيه نجاتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة.

إن تلك الآية العظيمة من سورة الأعراف تضع أقدامنا على الطريق السوي والصراط المستقيم في احترام القيم ورعاية الفضائل، وتحذر في الوقت نفسه من إهدار حرمة تلك القيم ومصادرة الرعاية لتلك الفضائل، فإنَّ ذلك نزغة إبليسية وفتنة شيطانية لا عاصم منها إلا باللجوء إلى الله تبارك وتعالى، إذ هو العاصم وحده من نزغات الشيطان ومضلات الفتن ونوازع الهوى، كما قال سبحانه: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

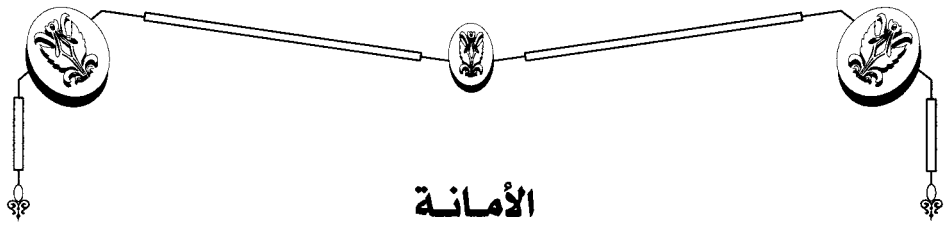

الأمـانـة

كثير من المسلمين في وقتنا الحاضر لا يفهم من كلمة (الأمانة) إلا أنها تأدية المال المودَع إلى صاحبه المودِع، وهذا بلا شك تحجير لواسع، لأنه قَصْر للأمانة في أضيق معانيها، سببه الجهل بحقيقة الأمانة في الإسلام، وما تستوعبه من معانٍ عظيمة ومفاهيم جسيمة.

إن مفهوم الأمانة في الإسلام مفهوم شامل واسع عميق ينظِّم شعب الحياة كلها في علاقة العبد مع ربه تبارك وتعالى، وفي علاقة العبد مع نفسه، وفي علاقة العبد مع البشر من أقرباء وغيرهم، فذاك المفهوم يشمل هذه الجوانب كلها في انجسام دقيق وترابط وثيق.

أما مفهوم الأمانة في علاقة العبد مع ربه تبارك وتعالى فإنَّ تلك العلاقة تقوم على أساس الوفاء بمقتضيات الميثاق الحق الذي أخذه الله ﷻ على جميع عباده في عالم الذر، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف]. إن ذلك الميثاق الذي أخذه الحق تبارك وتعالى على جميع عباده يعني إخلاص التوحيد له سبحانه، وصِدْق التوجُّه في العبودية إليه وحده دون شريك معه يُعْبَد، ومن غير إله سواه يُرْجَى ويُقْصَد، فمن وفَّى بمقتضى هذا الميثاق فحقَّق التوحيد وتطهَّر من الشرك بجميع أنواعه الظاهرة والباطنة يكون بذلك قد أدَّى الأمانة بينه وبين ربه تبارك وتعالى، ومن انحرف عن سبيل التوحيد وانجرف في تيار الشرك فإنه يُعَدُّ خائناً للأمانة، وبذلك يكون قد زلت به القدم في مهاوي الضلال والردى.

وحيث إن تحقيق التوحيد والتخلص من الشرك لا يكون إلا بالتعلق بالله تبارك وتعالى قلباً وقالباً فإنّ ذلك التعلق إنما يكون بالتزام منهج الله ﷻ أَمْراً ونهياً، ومقتضى الأمانة في الأوامر أن يمتثلها المسلم، وأن يؤديها بإحسان، وإتقان، وإخلاص، مستشعراً عظمة من أمر بها جلَّ جلاله، ومقتضى الأمانة في النواهي أن يجتنبها المسلم، وأن يحذر من مواقعتها في ظاهر حاله وباطنه، مستشعراً رقابة الله تبارك وتعالى عليه حتى لا يكون متعدياً لحدود الله جل شأنه منتهكاً لحرماته.

فمن وفَّى بالأوامر امتثالاً، وبالنواهي اجتناباً أدَّى أمانة ما كُلِّف به حق الأداء، وكان مسلماً حقاً ومؤمناً صدقاً، وكان ملتزماً بما أرشد إليه النبي ﷺ كما في الحديث الذي أخرجه الإمام الدارقطني رحمه الله تعالى بإسناد حسن عن الصحابي الجليل أبي ثعلبة الخُشَني رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيِّعوها، وحَدَّ حدوداً فلا تعتدوها».

ومن فرَّط في الأوامر والنواهي كان خائناً لما اؤتمن عليه، مستوجباً لوعيد الله تبارك وتعالى الذي توعَّد به في قوله سبحانه: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء].

وأما مفهوم الأمانة في علاقة العبد مع نفسه، فإنّ تلك العلاقة تقوم على أساس تطهير نفسه من أدران المعاصي والذنوب حتى تتهذب وتتزكى، لينال بذلك الفلاح الحقيقي في الدنيا والآخرة، كما قال الحق تبارك وتعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾﴾ [الشمس]. وتقوم أيضاً على أساس ترويض تلك النفس على الاستقامة على دين الله ﷻ، وإرغامها على طاعة الله جلَّ شأنه، فإنَّ المؤمن الحق هو الذي ينتصر على هوى نفسه ويتعالى على شهواتها استعلاءً يحمله على حفظ جوارحه كلها عمّا حرَّمه الله تبارك وتعالى عليه، فلا يستعين بها على ما يكون سبباً للوقوع في سخط الله ﷻ، بل يسخرها في كل ما يقربه إلى رضوانه سبحانه، وبذلك

تكون العُقْبى الفوز بجنة المأوى، كما قال المولى جلَّ جلاله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات].

وأما مفهوم الأمانة في علاقة العبد مع البشر فهو أن يعرف حق أقربائه عليه حق المعرفة فيبرهم ويُحسن إليهم ويصبر على الأذى الصادر منهم، ولا سيما ما يتعلق بحق الوالدين والأرحام فقد خصهم الله تبارك وتعالى بمزيد الرعاية والاهتمام حين قال سبحانه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

وحين قال سبحانه: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

ثم أَنْ يعرف حق أسرته عليه بنين وبنات وزوجة، فيربِّي البنين منهم على الرجولة الفذة، والفضيلة الحقة، حتى يكونوا دعائم قوية في بناء هذه الأمة أمة الرسالة والتوحيد وأمة الجهاد والدعوة، ويربي البنات منهم على الحشمة والعفة والوقار، حتى لا ينجرفن في تيار الفساد في وقت أُريد فيه للمرأة المسلمة أن تكون كاشفة متهتكة، ويتعاهد زوجته في دينها وأخلاقها لتكون مدرسة الفضيلة في حُسْن سمتها وصِدْق التزامها، فإنْ قام بهذا الواجب العظيم أدَّى الأمانة على وجهها، وحينئذ يُنجي نفسه وأسرته من النار، كما قال الحق سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

وإنْ فرَّط وقصَّر خان الأمانة التي حذَّر الله تبارك وتعالى من خيانتها حين قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنفال].

ثم أنْ يعرف حق المسلمين عموماً عليه، فيحب لهم ما يحب لنفسه من الخير، فذلك مقتضى الإيمان، كما ثبت في الصحيحين عن الصحابي الجليل أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

وتلك المحبة تدفع المسلم إلى أن يستشعر في أعماق وجدانه أخوة الإيمان ورابطة العقيدة، فيعيش همَّ إخوانه المسلمين في كل مكان، ولا يألو جهداً في دعمهم ومساندتهم، والدعاء لهم بظهر الغيب بأن يفرِّج الله تعالى كرباتهم وأن يرفع البأساء واللأواء عن بلادهم.

وإنّ كثيراً من المسلمين في وقتنا الحاضر قد فرَّطوا في هذه الأمانة العظيمة مما كان السبب الكبير في انفصام الروابط بين المسلم وأخيه المسلم.

هذا هو مفهوم الأمانة في الإسلام الذي يجب على المسلم أن يدركه حق الإدراك، حتى يكون أهلاً للقيام به بكل صدق ووفاء، وبذلك تتحقق عزة المسلمين بالنصر والغلبة والتمكين.

* * *

صلاة الفجر

جعل الله تبارك وتعالى صلاة الفجر هي الصلاة الأولى التي يُفْتَتَحُ بها كل يوم من أيام السنة، وذلك من أجل أن يبدأ المسلم يومه بلقاء ربه تبارك وتعالى والوقوف بين يديه الكريمتين مذعناً له القلب، ومسلماً له الوجه، ليأخذ من هذا الوقوف المبارك زاداً روحياً، وطاقة إيمانية تدفعه إلى أن يراقب مولاه جلَّ وعلا مراقبة حقيقية في كل حركة من حركاته مما سيمارسه من أقواله وأعماله في سائر هذا اليوم، وبذلك يكون يوم المسلم يوماً مُباركاً فاضلاً، وكيف لا يكون كذلك؟ وقد جلَّله الله تبارك وتعالى بتوفيقه وتأييده، وكلَّله بمعونته وتسديده.

ولما كان لصلاة الفجر هذه الأهمية الكبرى والمنزلة العظمى فقد حظيت من الحق تبارك وتعالى بمزيد من التنويه بفضلها، والتنبيه على جلالة قدرها، والتأكيد على المحافظة عليها، ومن ذلك قوله سبحانه لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الإنسان].

والبكرة هي صلاة الفجر، والأصيل هو سائر الصلوات المكتوبة. ومن ذلك أيضاً قوله جلَّ شأنه لنبيه محمَّدٍ ﷺ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠]. وقوله سبحانه: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾ [ق].

والتسبيح قبل طلوع الشمس المراد به صلاة الفجر.

ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ [الإسراء].

والأمر له عليه الصلاة والسلام بالمحافظة على صلاة الفجر أمر لكل

فرد مكلف من أفراد أمته إلى أن تقوم الساعة ما لم يكن في ذلك خصوصية تُخرج عموم الأمة.

وكذلك فقد حظيت صلاة الفجر بمزيد الرعاية والاهتمام من النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، فقد أكد على المحافظة عليها وأدائها في وقتها الشرعي من غير تكاسل أو تباطؤ، ففي الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه عن الصحابي الجليل جُنْدُب بن سفيان رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «من صلى الصبح فهو في ذمة الله».

ومعنى «فهو في ذمة الله»، أي: في عهده وأمانه وضمانه، فيكون من يصلي الفجر في كنفه سبحانه وحفظه ورعايته، يجعل له في الظلماء نوراً، وفي العسر يسراً، وفي الشدة فرجاً ومخرجاً.

وإذا كان من يصلي الفجر في ذمة الله تبارك وتعالى، فإنّ من ترك صلاة الفجر فهو في ذمة الشيطان، يقوده إلى كل جهالة، ويرشده إلى كل ضلالة، ويوجهه إلى سلوك أسباب الغواية، ويصرفه عن سلوك سبل الهداية.

ولعظم ما تكفِّره صلاة الفجر من الذنوب، ولكثرة ما يتحصَّل عليه المسلم بالمحافظة عليها من الثواب فقد شهد النبي ﷺ لمن حرص على أدائها في وقتها بالفوز بالجنة والنجاة من النار، ففي الحديث المتفق عليه عن الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «مَنْ صلى البَرْدَيْن دخل الجنة».

وفي الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه عن الصحابي الجليل أبي زُهَيْرٍ عَمَارَةَ بن رُوَيْبَةَ رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها».

وصلاة الفجر صلاة مشهودة تشهدها الملائكة الكرام عليهم السلام، فمَنْ حافظ على صلاة الفجر مع جماعة المسلمين في المساجد نال شرف شهادة الملائكة الكرام عليهم السلام له عند الله تبارك وتعالى بأدائها، مما يكون سبباً في

قربه من رحمته وإحسانه ونواله جلَّ جلاله، ومن ضيَّع صلاة الفجر تساهلاً بها واستخفافاً بشأنها فقد حرم نفسه من هذا الخير العظيم والفضل الجسيم الذي لا يوازيه شيء من زينة هذه الحياة مهما ظن أصحاب الشهوة وطلاب المتعة أنّ خيرهم في حطام هذه الدنيا وزينتها ولذائذها، ومما يدل على شهود الملائكة الكرام عليهم السلام صلاة الفجر مع المؤدين لها ما ثبت في الصحيحين عن الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم الله وهو أعلم بهم كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون».

ومِنْ فضائل صلاة الفجر إكرام الله تبارك وتعالى للمحافظ عليها برؤيته سبحانه في دار النعيم والكرامة، ففي المتفق عليه عن الصحابي الجليل جرير بن عبد الله البجلي رضي الله تعالى عنه قال: كنا عند النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاةٍ قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا».

ورغم هذه التأكيدات الشرعية التي تضافرت عليها نصوص الكتاب والسنة الدالة على وجوب المحافظة على صلاة الفجر إلا أن بعض المسلمين في وقتنا الحاضر ـ ويا للأسف الشديد ـ قد تساهلوا تساهلاً كبيراً في صلاة الفجر، فلا يؤدونها إلا بعد طلوع الشمس، أي: بعد خروج وقتها من غير عذر شرعي، وحجة الكثير منهم غلبة النوم عليه، وهذا في الواقع وحقيقة الأمر ليس عذراً شرعياً مقبولاً، لأنّ مَنْ غلبه النوم عن صلاة الفجر نتيجة ما اعتاده من السهر الطويل فإنّ ذلك مؤشر على عدم مبالاته بهذه الصلاة، ثم إن للاستيقاظ من النوم وسائل عديدة كالساعة المنبهة وغيرها مع عَقْد العزم الجازم على الاستيقاظ، فإنَّ تلك الوسائل عوامل مساعدة للمحافظة على وقت صلاة الفجر، والإنسان الحريص على فعل الشيء لا يعدم الوسيلة إليه بحال من الأحوال.

إن التساهل في صلاة الفجر داءٌ عظيم وخطر جسيم، ينذر بأوخم العواقب في الدنيا والآخرة، حيث توعَّد الله تبارك وتعالى من يؤخر الصلاة عن وقتها بالغي والويل وهما واديان في جهنم، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا ﴿٥٩﴾﴾ [مريم]. ويقول سبحانه: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾ [الماعون]. والنبي ﷺ قد عَدَّ التأخر عن صلاة الفجر ضرباً من ضروب النفاق، ففي المتفق عليه عن الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليس صلاة أثقل على المنافقين من صلاة الفجر والعشاء، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حَبْواً».

وكثير من الناس ـ والعياذ بالله ـ لا يحلو له النوم إلا بعد أن يسمع النداء يثوِّب لصلاة الفجر، وذلك ضَرْب من ضروب تخذيل الشيطان للإنسان، لأن الشيطان قد قطع على نفسه عهداً موثقاً بإضلال بني آدم عن طريق الخير والهدى، كما قال الله تبارك وتعالى عنه: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف].

فهل يرضى المسلم الذي يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله أن يستسلم لتخذيل الشيطان عن عبادة الرحمٰن تبارك وتعالى؟

ثم إن هذا الإنسان الذي سمع النداء لصلاة الفجر، ثم لم يستجب، بل استمر في نومه متساهلاً متثاقلاً، هل ضمن أنه سيقوم من فراشه حياً؟ فربما وافته منيته أثناء نومه الذي آثره على صلاة الفجر، فيلقى الله تبارك وتعالى وهو في ذمة الشيطان، وكفى بذلك سوء خاتمة وبئس عاقبة.

فعلى المسلم أن يتقي الله تبارك وتعالى في صلاة الفجر وغيرها من سائر الصلوات، فإنَّ الإيمان ليس بالتحلي ولا بالتمني، ولكنه ما وقر في القلب وصدَّقه العمل.

* * *

الأقرباء

أقرباء الإنسان من النسب هم رهطه الذين يشتد بهم ساعده، ويقوى بهم جانبه، وهم أعوانه ـ بعد الله تبارك وتعالى ـ في الشدائد والملمات حين يضيق ذرعاً بحوله وطوله وقوته، وهذا ما أشار إليه الحق تبارك وتعالى حين قال سبحانه عن قوم نبيه شعيب عليه السلام: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾ [هود].

فهؤلاء القوم المكذبون المعاندون أرادوا بكل صلف وغرور واستكبار عن الحق أن يرجموا نبي الله شعيباً عليه السلام، وما منعهم من ذلك إلا منعة قومه وشدَّة بأسهم وبطشهم، فحينما حسبوا لذلك حسابه كفوا عن رجمه وإلحاق الأذى به عليه السلام، وهذا يدل دلالة صريحة واضحة على أهمية ذوي القربى في حياة كل إنسان.

ومن هنا فقد حرص الإسلام الحنيف ـ وهو الدين المتكامل في توجيهاته وتشريعاته ـ أشد الحرص على توثيق الروابط بين الأقرباء وتوكيد الصِّلات بينهم، حتى يكونوا قلباً واحداً ويداً واحدة، إذ بتوثيق الروابط وتأكيد الصلات بينهم تحصل الألفة والمحبة، مما ينعكس أثره إيجابياً على المجتمع بأسره، وذلك مقصد شرعي عظيم جاءت النصوص الشرعية الكريمة بالحث عليه والترغيب فيه والتحذير من مصادرته والغفلة عنه، وليس أدل على ذلك من قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى﴾ [النساء: ٣٦].

حيث عطف سبحانه وتعالى الإحسان إلى ذوي القربى على الأمر بعبادته وعلى الأمر بالإحسان إلى الوالدين، وما ذلك إلا للدلالة على عظم هذا الحق وعلو قدره عند الله تبارك وتعالى.

ولعظم حق ذوي القربى فقد أمر الله ﷻ رسوله محمداً ﷺ بأن يُؤْتَي أقرباءه حقوقهم كاملة غير منقوصة، ليكون عليه الصلاة والسلام في ذلك الأسوة الحسنة للأمة كلها إلى أن تقوم الساعة، فقال سبحانه: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ [الإسراء: ٢٦].

وجعل الحق تبارك وتعالى النفقة على ذوي القربى من أعظم أنواع الإنفاق في وجوه الخير، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ٢١٥].

والإنفاق على ذوي القربى له أجران: أجر يتعلق بالصدقة ذاتها، وأجر يتعلق بالصلة، فمن أعان قريباً له على تخطي صعوبات المعيشة نال هذين الأجرين العظيمين، ففي الحديث الذي أخرجه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى بإسناد حسن عن الصحابي الجليل سلمان بن عامر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم ثنتان: صدقة وصِلة».

فذو القرابة في الإسلام هو أولى الناس بالبر والعطف والإحسان، وهذا ما قرره الحق تبارك وتعالى بقوله: ﴿وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥].

ورغم هذه التأكيدات الشرعية التي تضافرت عليها نصوص الكتاب والسنة على القيام بحقوق ذوي القربى والإحسان إليهم إلا أن كثيراً من المسلمين في وقتنا الحاضر قد تساهلوا في حقوق أقربائهم، وفرطوا أشد التفريط في برهم وصلتهم والإحسان إليهم، وحَلَّ محل ذلك كله التدابر والتباغض والخصومة والشحناء، حتى أصبح القريب عدواً لدوداً لقريبه يفرح برزيته ويغتم لسعادته، بل ربما أعان عليه كل من أراد مضرته وإساءته، فنشأ عن ذلك التفكك الأسري المقيت الذي بدأ يعاني منه المجتمع المسلم أشد المعاناة، ويزداد الأمر سوءاً إذا علمنا أن سبب هذا التدابر والتباغض بين القريب وقريبه إنما هو أمر دنيوي تافه حقير قد استغله

الشيطان أحسن ما يكون الاستغلال لإفساد المحبة والوئام بين هذين القريبين اللذين لو اتقيا الله ﷻ حق التقوى في القرابة لما وجد الشيطان سبيلاً إلى إفساد ما يربطهما من وشائج الدين والقربى.

إن العلاقة بين ذوي القربى لا تشتد حبالها، ولا تتوثق روابطها إلا إذا استشعر كل قريب واجبه الشرعي نحو قريبه، ذلك الواجب الذي لا ينفك عنه إلا من في قلبه مرض.

إن واقع التعامل مع ذوي القربى في وقتنا الحاضر واقع مشين يدمى منه القلب ويندى له الجبين، فالصراعات قائمة على أشدها بين الأخ الشقيق وأخيه، وبين الأخت الشقيقة وأخيها، وبين أبناء العمومة بعضهم مع بعض، وهكذا مما لا ينسجم مع دين قويم، ولا يتناسب مع خلق كريم.

إن الواجب على المسلم الحق أن تكون علاقته بذوي القربى قوية راسخة مطلقاً في حالتي الإحسان والإساءة، فإنْ أحسن إليه أقرباؤه بادر جاهداً برد الإحسان إليهم بأفضل وأوفر منه، وإن أساؤوا إليه فليحذر أشد الحذر من الإساءة إليهم، بل عليه أن يرد الإساءة بالإحسان، فهذا هو أدب الكتاب والسنة الذي أدبنا به الحق تبارك وتعالى وأرشدنا إليه المصطفى عليه الصلاة والسلام، وفي ذلك يقول الحق سبحانه: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت].

وفي الحديث الذي أخرجه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى بإسناد حسن عن الصحابي الجليل معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن».

ومن سلك هذا السلوك الإسلامي القويم آتاه الله تبارك وتعالى أجره مرتين لإحسانه إلى قرابته، ولصبره على احتمال الأذى منهم ابتغاء وجه الله سبحانه، وتلك هي الصفقة الرابحة والتجارة التي لن تبور.

* * *

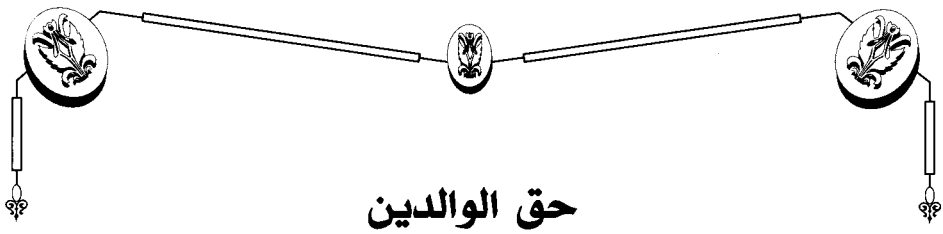

حق الوالدين

حق الوالدين حق عظيم في شريعة الإسلام، قد جعله الحق تبارك وتعالى في المرتبة الثانية بعد الأمر بالقيام بعبادته وحده لا شريك له، حيث عطف عليه مباشرةً الأمر بالإحسان إلى الوالدين، فقال سبحانه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]. وإنَّ عظم الحق يُعْرَفُ بعظم ما اقترن به، ولا شك أن أعظم حق في الوجود على الإطلاق هو حق الله تعالى المتمثل في إخلاص العبودية له وصِدْق التوجُّه إليه، فهذا الحق هو مدار دعوة الرسل جميعاً عليهم الصلاة والسلام، كما قال المولى جلَّ شأنه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء].

وكما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

هذا هو حق الله تبارك وتعالى على العباد الذي من أجله أرسل سبحانه الرسل وأنزل الكتب، والذي مَنْ عبد الله تبارك وتعالى على أساسه أسعده سبحانه بدخول الجنة، ومن استعاض الشرك بديلاً عنه أشقاه جلَّ جلاله بالخلود في النار، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]. وإذا كان هذا الحق بهذه المنزلة الجليلة العظيمة فإنّ حق الوالدين قد قُرن به مباشرة، ولا غرابة في ذلك فإنّ القيام بحق الوالدين المسلمين يشكل جانباً كبيراً من جوانب عبادة الله تبارك وتعالى، كما أن له مدخلاً كبيراً في بابي التوحيد والشرك، فمن قام بحق والديه حق القيام فإنه بذلك يحقِّق عبوديته لله تبارك وتعالى، حيث أمره سبحانه بالإحسان إليهما فامتثل ذلك الأمر الذي قضاه

ربه ﷻ عليه من غير تردد أو إحجام، لأنه مستشعر قول الحق سبحانه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ﴾ [النور: ٥١].

والسمع والطاعة لله جلَّ شأنه ولرسوله ﷺ هو الركن الأساس لتحقيق التوحيد، إذ الموحِّد يقدِّم طاعة الله ﷻ وطاعة رسوله ﷺ على ما تحبه نفسه وتهواه، وهذا ما قرره الحق تبارك وتعالى بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْۗ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وأما غير الموحِّد فإنه يجعل من هواه إلهاً يُعْبَدُ من دون الله تبارك وتعالى، فيدخل في الشرك من أوسع أبوابه من حيث لا يشعر، وفي ذلك يقول الحق سبحانه: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [الفرقان].

وعلى هذا فإنَّ مَنْ أحسن إلى والديه وقام بحقهما عليه كان من الموحدين، لاستجابته لأمر الله تبارك وتعالى من غير أن يكون لهوى نفسه نصيب في الصد عن تلك الاستجابة، ومن عَقَّ والديه كان بذلك إلى الشرك أقرب منه إلى التوحيد، لأنه مستجيب لهوى نفسه ونزغات شيطانه من دون أمر ربه سبحانه، ومن هنا فقد حرَّم الإسلام الحنيف دخول الجنة على العاقِّ إذا مات من غير توبة، ومصداق ذلك ما أخرجه الإمامان أحمد والنسائي، وصححه الإمام الحاكم في مستدركه عن الصحابي الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ قال: «ثلاثة حَرَّم الله تبارك وتعالى عليهم الجنة: مدمن الخمر، والعاقُّ، والديوث الذي يقر الخَبَث في أهله».

فالعاقُّ لوالديه محروم من رحمة الله تبارك وتعالى في الدنيا والآخرة، لا حظَّ له من التوفيق ولا نصيب له في السعادة، بل يعيش عيشة البؤساء ويموت ميتة الأشقياء، لأنه منكر الجميل وعادم الوفاء، وهو بهذه الحال قد ضَرَبَ بشكر الله ﷻ عُرض الحائط، إذ لو كان شاكراً لله تبارك وتعالى لشكر

لوالديه امتثالاً لأمره جلَّ جلاله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤].

إن حق الوالدين عظيم، فكم تحملا من متاعب ومشاق من أجل سعادة الأولاد، وذاك لا ينكره إلا فاقد الإيمان وجاحد الإحسان.

فيجب على كل مسلم أن يتقي الله ﷻ في والديه ببرهما، والإحسان إليهما، ولا سيما في حال الكبر والعجز والضعف، فإنهما في هذه الحال بأمس الحاجة إلى عطف الولد ورعايته وعنايته.

وبر الوالدين لا ينقطع بموتهما، بل هو ممتد إلى ما بعد الموت، فقد أخرج الإمام أبو داود رحمه الله تعالى عن الصحابي الجليل أبي أُسَيْد مالك بن ربيعة الساعدي رضي الله تعالى عنه قال: بينا نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من بني سَلَمة فقال: يا رسول الله هل بقي من بر أبويَّ شيء أبرهما به بعد موتهما؟ فقال: «نعم، الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما».

فإذا أراد المسلم أن يكون من البارين لوالديهم، فعليه أن يكثر من الاستغفار لوالديه، والترحم عليهما، كما أرشد إلى ذلك الحق تبارك وتعالى بقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤]. وأن يحرص على إنفاذ عهدهما ووصيتهما، وعلى إكرام أصدقاء أبيه وصديقات أمه، وعلى صلة أقرباء أبيه من الأعمام والعمات وأبنائهم، وأقرباء أمه من الأخوال والخالات وأبنائهم، فإن ذلك كله باب عظيم من أبواب بر الوالدين والإحسان إليهما، وسيجد الولد البار بوالديه بركة ذلك في أولاده حال حياته وبعد مماته، لأن البر سلف.

* * *

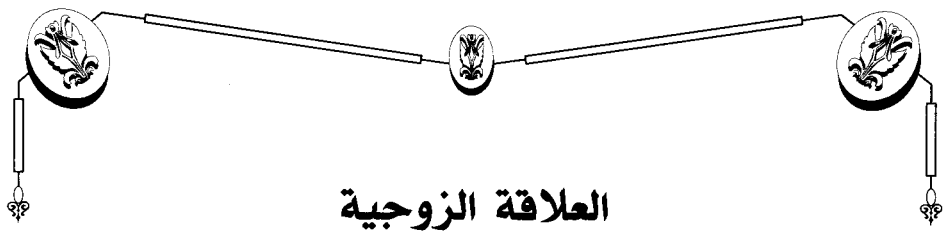

العلاقة الزوجية

العلاقة الزوجية بين الزوجين المسلمين سماها الحق تبارك وتعالى (الميثاق الغليظ) حين قال سبحانه: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ [النساء]. وهذا الميثاق الغليظ هو الإمساك بمعروف، أو التسريح بإحسان، كما دل على ذلك قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وينبني على الوفاء بمقتضيات هذا الميثاق استقرار الحياة الزوجية، واستمرار الروابط الأسرية، كما ينبني على الإخلال بمقتضيات هذا الميثاق سوء العشرة بين الزوجين، مما سيؤدي في نهاية المطاف إلى تشتيت شمل الأسرة بعد تصدُّع البيت الزوجي وانفصال التقارب الروحي الذي يُعَدُّ القاسم المشترك الأعظم في التئام الشمل وصفاء النفوس وترابط القلوب.

وهناك خطوط عريضة لها الأثر العميق في الحياة الزوجية انفصاماً أو انسجاماً، ينبغي لكل زوج وزوجة أن يحيطا بها علماً، لتكون تلك الخطوط بلسماً شافياً للجروح التي تحدث في جسم الحياة الزوجية بين الزوج وزوجته.

ومن هذه الخطوط العريضة أنَّ كلاً من الزوجين سكن للآخر، وركن ذلك السكن إنما يقوم على المودة والرحمة بين الزوج وزوجته، وفي ذلك يقول المولى سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم].

وإذا كان كل واحد من الزوجين سكناً للآخر فإنَّ من خصائص السكن الطمأنينة القلبية، والراحة النفسية.

ومن هذه الخطوط العريضة أن النبي ﷺ حث الزوج على إكرام زوجته وحُسن معاملتها، ففي الحديث الذي أخرجه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى بإسناد حسن صحيح عن الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلُقاً، وخياركم خياركم لنسائهم».

وفي الحديث الذي أخرجه أيضاً الإمام الترمذي رحمه الله تعالى بإسناد حسن صحيح عن الصحابي الجليل عمرو بن الأَحْوَص الجُشَمي رضي الله تعالى عنه أنه سمع النبي ﷺ في حجة الوداع يقول: «ألا واستوصوا بالنساء خيراً فإنما هن عَوَان عندكم».

وهذا تطبيق عملي منه عليه الصلاة والسلام لقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩].

كما حث النبي ﷺ الزوجة على رعاية حق زوجها، ففي الحديث الذي أخرجه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى بإسناد حسن صحيح عن الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها».

وفي الحديث المتفق عليه عن الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل لامرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه، ولا تأذن في بيته إلا بإذنه».

ولا شك أن رعاية هذه الحقوق المتبادلة بين الزوجين كفيلة بجعل الحياة الزوجية حياة محبة ومودة، وحياة تناغم وتفاهم، وحياة انسجام ووئام.

ومن هذه الخطوط العريضة أنَّ مما يجعل الزوج يقسو على زوجته

إنشاد المثالية والكمال فيها، فهو يريدها أن تكون كاملة مُبَرَّأة عن كل نقص وعيب، وهذا أَمْر متعسر، لأن المرأة خُلقت من عَوَج، ولا يُقام هذا الاعوجاج إلا بالكسر وهو الطلاق الذي هو أبغض الحلال إلى الله تبارك وتعالى، ففي الحديث المتفق عليه عن الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «استوصوا بالنساء خيراً، فإنَّ المرأة خُلقت من ضِلَع، وإنّ أعوج ما في الضِّلَع أعلاه، فإنْ ذَهَبْتَ تقيمه كسرته، وإنْ تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء».

وفي رواية عند الإمام مسلم رحمه الله تعالى: «إن المرأة خُلقَت من ضِلَع، لن تستقيم لك على طريقة، فإنْ اسْتَمْتَعْتَ بها استمتعت بها وفيها عَوَجٌ، وإنْ ذَهَبْتَ تقيمها كسرتها، وكَسْرُها طلاقها».

ولو فكَّر الزوج قليلاً بعقل وإنصاف لوجد أن زوجته تتمتع بخلق فاضل وسلوك حسن قد لا يوجد في مثيلاتها من النساء، ولذلك يقول معلِّم البشرية عليه الصلاة والسلام فيما رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى عن الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: «لا يَفْرَكْ مؤمن مؤمنة، إنْ كره منها خُلُقاً رضي منها آخر». والمعنى: لا يبغض زوج زوجته بسبب خُلق يكرهه منها، ويتجاهل سائر أخلاقها الحسنة التي تستحق المحبة من أجلها، بل ينبغي له أن يغض الطرف عن هذا الخلق المكروه لديه، حتى لا يصادر بهذا الخلق المكروه بقية أخلاقها المحبوبة، فيكون بذلك ظالماً لها.

ومن هذه الخطوط العريضة أنّ مما يجعل الزوجة تنفر من خدمة زوجها كثرة مطالبه وإلحاقه الأذى بها نتيجة إلحاحه في قضاء حاجاته، وهنايَنبغي لكل واحد من الزوجين أنْ يراعي مشاعر الآخر، فيجدر بالزوج أن يكون رفيقاً بزوجته، حليماً عليها، مراعياً لحالاتها النفسية، فلا يحمِّلها من الأعباء ما يثقل كاهلها من غير مساعدة منه لها، فذلك يتنافى مع مفهوم المودة والرحمة، وقد حذر النبي ﷺ من ذلك، ففي المتفق عليه من حديث الصحابي الجليل عبد الله بن زَمْعَةَ رضي الله تعالى عنه أنه سمع النبي ﷺ

يخطب ثم ذَكَر النساء فوعظ فيهنَّ فقال: «يَعْمِدُ أحدكم فيجلد امرأته جلد العبد، فلعله يضاجعها من آخر يومه».

ويجدر بالزوجة أن تعلم ما أعده الله تبارك وتعالى لها من ثواب عظيم جزاء قيامها على خدمة زوجها، وأن تجعل من احتساب هذا الثواب من الله ﷻ حافزاً لها إلى القيام بتلك الخدمة من غير تضجُّر، حتى تكسب رضا زوجها الذي هو سبيل إلى تحقيق رضوان ربها تبارك وتعالى، ففي الحديث الذي أخرجه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى بإسناد حسن عن الصحابية الجليلة أم سلمة رضي الله تعالى عنها أن النبي ﷺ قال: «أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راضٍ دخلت الجنة».

ومن هذه الخطوط العريضة أن كل بيت لا يخلو في الغالب من حدوث مشكلات زوجية، والشيطان له حضور قوي وقت حدوث المشكلة ينفخ فيها لتضخيمها وتكبيرها بغية إفساد الحياة الزوجية بين الزوجين، والزوج العاقل الحكيم هو الذي يقطع الطريق على الشيطان بوسيلة التفاهم الهادئ مع زوجته، ولو أدى به الأمر إلى التنازل عن بعض ما يسميه بحقوقه الشخصية، ولو أنَّ كل زوج جعل بينه وبين زوجته عند حدوث المشكلات شعرة معاوية رضي الله تعالى عنه لانحلَّت المشكلات الزوجية جميعها، ولعاشت الأسر كلها في سلام ووئام وانسجام.

ومن هذه الخطوط العريضة أنه يجب على الزوجين أن يستشعر كل واحد منهما مسؤوليته تجاه الآخر، كما سبق في قوله عليه الصلاة والسلام: «كلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته...» الحديث.

ولو أن كل واحد من الزوجين استشعر حقيقة هذه المسؤولية لقام بها خير القيام، وحينئذ تستقيم الحياة الزوجية دون نكد أو تنغيص. ورأس الأمر وعموده في هذه الخطوط كلها تقوى الله تبارك وتعالى بتعظيم شعائر دينه، والوقوف عند حدوده، والإكثار من الأعمال الصالحة، فإذا عُمر بيت الزوجية بطاعة الله جلَّ شأنه وعبادته عمرته الملائكة، وهربت منه الشياطين،

وحينئذ تحل السكينة في النفوس، والطمأنينة في القلوب، ومصداق ذلك قول الحق تبارك وتعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل].

إن القوامة في بيت الزوجية هي للزوج وحده كما قال الحق تبارك وتعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣٤].

وإذا كانت القوامة للزوج فإنَّ على عاتقه تقع المسؤولية الكبرى في استقرار البيت الزوجي واضطرابه، ومن هنا فعليه أن يحذر غاية الحذر من تضييع تلك المسؤولية، وذلك بالمحافظة على أن يظل بيت الزوجية راسخاً متماسكاً، فلا يكره زوجته لأتفه الأسباب، بل عليه أن يعلم علم اليقين أنّ الخير له كل الخير في الصبر على زوجته، فإنّ الحق تبارك وتعالى ـ وهو الذي خلق ويعلم مَنْ خلق يقول: ـ ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

* * *

ضيق الصدر

يشكو كثير من الناس في وقتنا الحاضر من ضيق الصدر الذي يسبب الكآبة والقلق والاضطراب، مما يجعل الحياة عديمة الطعم نتيجة عدم الشعور بالسعادة والاطمئنان، وقد أدى ذلك إلى كثرة التردد على العيادات النفسية بحثاً عن علاج ملائم ودواء مناسب للقضاء على مرض ضيق الصدر الذي يُفْقِدُ الإنسانَ راحته وأمنه واستقراره، وربما وجد من يراجع العيادات النفسية علاجاً لذلك، وربما عاد بخفي حنين، حتى ازداد الأمر لديه سوءاً فاسودت الدنيا في عينيه، وضاقت الأرض بما رحبت عليه، فلا يهنأ بمنام، ولا يستلذ بطعام، فيصبح ويمسي أسير الغموم، رفيق الهموم، مشتت الذهن، خائر القوى، ضعيف الإرادة، فيستسلم للأوهام، وتطيش به السهام، حتى تكون حياته جحيماً لا يُطاق.

وقد يغفل المسلم في خضم هذه الحياة عن أسباب الإصابة بضيق الصدر، فيعيش حائراً في تفكيره، متعثراً في مسيره، يبحث عن الماء في السراب، وعن الحقيقة في الخيال، ولو أمعن النظر قليلاً في كتاب الله تبارك وتعالى لوجد فيه سبب ضيق الصدر واضحاً لكل الناس لا غموض فيه ولا التباس، وهو الإعراض عن منهج الله ﷻ الذي يكون سبباً في ضنك العيش الذي يتولد منه ضيق الصدر، وبرهان ذلك قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤].

وكيف لا يكون المعرض عن منهج الله تبارك وتعالى ضيِّق الصدر وقد أصبح مِقْوَدُهُ بيد الشيطان؟ فهو يوجِّهه أنَّى أراد، ويلعب به كيفما شاء، ومصداق ذلك قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف].

وقوله سبحانه: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ [الشعراء].

والشيطان إذا تنزل على الإنسان وأصبح قريناً له استحوذ على قلبه فأنساه ذِكر ربه تبارك وتعالى، فتكون حياته بلاءً وشقاءً، كما قال سبحانه: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [المجادلة]. والشيطان إذا استحوذ على الإنسان سلط عليه الخوف والحزن، كما قال الحق سبحانه: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وكما قال سبحانه: ﴿لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [المجادلة: ١٠].

وإذا سُلِّط الخوف والحزن على القلب أصيب بالضيق والقلق والاضطراب.

إن المتأمل في كتاب الله تبارك وتعالى وفي سنة رسوله ﷺ يجد فيهما العلاج الشافي من مرض ضيق الصدر، وهذا العلاج يتمثل في الأسباب الآتية:

١ ـ الالتزام الحقيقي بالإسلام قولاً، وعملاً، واعتقاداً، فمن فعل ذلك شرح الله تبارك وتعالى صدره، وأذهب غمه وهمه، وهذا ما دل عليه قول الحق سبحانه: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وقوله سبحانه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢].

وما ذلك إلا لأن الإسلام هو الاستسلام لله تبارك وتعالى بالخضوع والانقياد لحكمه وشرعه، وإذا خضع القلب لله جلَّ شأنه وانقاد لحكمه وشرعه انشرح واطمأن، ودبَّت فيه الحياة الحقيقية، وسرى فيه النور الإلهي الذي ينير له الظلمات، ويكشف له الشبهات، وهذا ما دل عليه قول الحق تبارك وتعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

والملتزم بالإسلام حق الالتزام هو معتصم بالله تبارك وتعالى غاية

الاعتصام، والمعتصم بالله ﷻ مهدي إلى الصراط المستقيم، كما قال المولى سبحانه: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

والمهدي بإذن ربه جلَّ وعلا إلى الصراط المستقيم لا سبيل للشيطان إلى الاستحواذ عليه، فيعيش مطمئن القلب، ساكن النفس، قرير العين.

٢ ـ الإيمان الكامل بالله تبارك وتعالى، وبأسمائه وصفاته، وأنه سبحانه المالك الحقيقي لهذا الكون، والمتصرف فيه وحده لا شريك له، حتى يحصل له تمام التعلق به جلَّت قدرته، فلا يرتجي أحداً سواه، ولا يخشى أحداً إلا إياه، وبذلك تتحقق الهداية للقلب التي تكون مصدر الطمأنينة، وسبب الانفساح والانشراح، ومصداق ذلك قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١].

٣ ـ الرضا بالقضاء والقدر من غير تسخط ولا تجزع، فإنَّ الله تبارك وتعالى حكيم في أفعاله خبير بما هو أنفع لعباده في دنياهم وأخراهم، كما قال سبحانه: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]. فإن فوَّض العبد أمره إلى ربه تبارك وتعالى في كل ما يصيبه من بلاءٌ عالماً بأن ذلك هو الخير له في الدنيا والآخرة اطمأن قلبه وانفسح واتسع صدره وانشرح.

ومن هنا قال سلفنا الصالح رضي الله تعالى عنهم: (من آمن بالقدر أَمِنَ من الكدر).

٤ ـ الإكثار من ذِكْر الله تبارك وتعالى، فهو طمأنينة للقلب، وانشراح للصدر، وسكينة للنفس، ومصداق ذلك قول الحق سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد].

وإذا اطمأن القلب زال الضيق والاضطراب، وذهب القلق والاكتئاب.

وكيف لا يطمئن القلب وينشرح الصدر بذكر الله تبارك وتعالى وهو سبب لتحقُّق معية الله جلَّ شأنه للعبد الذاكر، كما ثبت في الصحيحين من

حديث الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني).

ومَنْ كان الله تبارك وتعالى معه كيف يقلق باله، أو يضيق صدره؟

٥ ـ الإكثار من العمل الصالح، بالمحافظة على الفرائض، والاجتهاد في فعل النوافل، فإنَّ ذلك مرتكز الحياة الطيبة، كما قال الحق تبارك وتعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

ومن حيا الحياة الطيبة فلا مجال لضيق الصدر عنده، كيف لا؟ وقد دخل في السعادة من أوسع أبوابها.

٦ ـ تقوى الله ﷻ في جميع الأوقات، وعلى مختلف الأحوال، فمن اتقى ربه تبارك وتعالى التقوى الحقيقية جعل الله تبارك وتعالى له من كل ضيق فرجاً ومخرجاً، ومصداق ذلك قول الحق سبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].

٧ ـ الإدبار عن الدنيا والإقبال على الآخرة، فإنَّ الانشغال بزهرة الدنيا وزينتها عن الدار الآخرة هو سبب كل هلاك، ومصداق ذلك ما ثبت في الصحيحين من حديث الصحابي الجليل عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تُبْسَط الدنيا عليكم كما بُسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم». وأما الإقبال على الآخرة فهو سبب كل نجاة وفلاح، ومصداق ذلك ما أخرجه الإمام ابن ماجه رحمه الله تعالى في سننه بإسناد صحيح عن الصحابي الجليل زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ كانت الدنيا هَمَّهُ فرَّق الله عليه أَمْرَهُ، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتب له، ومَنْ كانت الآخرة نِيَّتَهُ جَمَعَ الله أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة».

وإذا جَمَعَ الله تبارك وتعالى للعبد أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا راغمةً فتح الله سبحانه له أبواب السعادة وأذهب عنه أسباب الشقاء فيعيش بذلك حياة الأبرار الأتقياء الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وذاك هو غاية انشراح الصدر وطمأنينة القلب.

هذه الأسباب هي العلاج الناجع لمرض ضيق الصدر، مَنْ أخذ نفسه بها طابت له الحياة، وسُعِدَ في دنياه وأخراه.

* * *

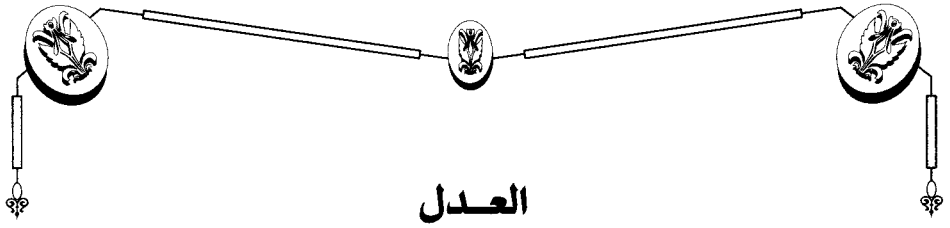

العـدل

العدل هو ميزان القسط الذي أنزله الحق تبارك وتعالى لعباده من أجل أن يحتكموا إليه في كل شأن من شؤون حياتهم، وهذا ما دل عليه قول الباري سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

وبدون العدل لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تستقيم حياة الناس في جميع جوانبها وشتى نواحيها، ومن هنا جاء الأمر صريحاً من الذي خلق ويعلم مَنْ خلق سبحانه لجميع الناس بإقامة العدل حين قال جلَّ وعلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ [النحل: ٩٠].

بل إنه سبحانه لم يكتف بمجرد الأمر بإقامة العدل، وإنما زاد ذلك توكيداً وتوثيقاً حين وصَّى به عباده، وحَسْبُ وصية الله تبارك وتعالى دليلاً على عظم المُوصَى به وشرف مكانته، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وإنما أمر الله تبارك وتعالى بالعدل وزاده توكيداً بالوصية به لأنه سلوك ينظم الحياة كلها، فما من شعبة من الشعب الحياتية إلا وللعدل مدخل كبير فيها، بل هو ركن من أركان سلامتها واستقامتها، فللعدل مكان كبير في التسوية بين الأولاد في الحقوق والواجبات، وذاك أمر يجب على الآباء أن يتفطنوا له غاية التفطن إذا أرادوا أن يكون أولادهم بارِّين بهم، ومن هنا جاء أمر النبي ﷺ إلى عموم الآباء بالعدل بين أولادهم، ففي الحديث الذي أخرجه الإمامان البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى عن الصحابي الجليل

النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «اتقوا الله واعدلوا في أولادكم».

وقد حذَّر نبينا عليه الصلاة والسلام من الحيف والجور في معاملة الأولاد، إذ في ذلك مجانبة كبيرة للعدل الذي أمر الحق تبارك وتعالى بإقامته في عباده، ولذلك حين جاء رجل إلى النبي ﷺ يريد منه أن يشهد على عطية منحها لأحد أولاده مُؤثراً بها إياه دون سائر بقيتهم قال له عليه الصلاة والسلام: «أفعلت هذا بولدك كلهم؟». وفي رواية: «أكلهم وَهَبْتَ له مثل هذا»؟.

فلما قال الرجل: لا يا رسول الله، قال عليه الصلاة والسلام في معرض الإنكار والتوبيخ: «فلا تشهدني إذاً، فإني لا أشهد على جَوْر».

والحديث أخرجه الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما عن الصحابي الجليل النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنه وعن أبيه.

وبهذا يعلمنا النبي ﷺ الأدب الإسلامي الرفيع في كيفية إقامة العدل فيما يتعلق بالتعامل مع الأولاد.

وللعدل أثر عظيم في التعامل مع الزوجات لمن تزوج بأكثر من واحدة، فإنَّ العدل الشرعي يحتم على هذا الزوج أن يعامل جميع أزواجه معاملة تقوم على المساواة والإنصاف من غير ظلم ولا إجحاف نتيجة الميل إلى واحدة منهن مع إهمال حقوق الأخريات، ولذلك فإنّ الحق تبارك وتعالى أمر مَنْ خشي على نفسه من عدم إقامة العدل بين الزوجات في حال التعدد بأن يقتصر على واحدة فقط، فقال سبحانه: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾ [النساء: ٣].

وإنّ الناظر اليوم في واقع كثير من الأزواج الذين عدَّدوا ولم يكتفوا بواحدة ليجد العجب العجاب من سوء التعامل وهَضْم الحقوق، فإنّ الكثير من هؤلاء إذا تزوج الثانية على الأولى مال إلى الثانية ظاهراً وباطناً،

وأهمل الأولى كليةً فيتركها كالمعلقة لا هي متزوجة بزوج يرعى حقوقها ويقوم على مصالحها، ولا هي مطلقة فتكون حرة في اختيار الزوج الذي يراه وليُّها صالحاً لحفظها ورعايتها والقيام على شؤونها، ونتيجة هذا التعامل السيئ أصبح النساء يكرهن من أزواجهن رغبتهم في التعدد، حيث لم توجد القدوات الصالحات من الرجال الذين يبرهنون بالقول والفعل على أن الزواج الثاني لا يمكن أن يكون بحال سبباً في إهدار حقوق الزواج الأول إلا مَنْ عصم الله تبارك وتعالى ووفقه لإقامة العدل بين زوجاته.

ومن هنا فإنه يجب على مَنْ تحته أكثر من زوجة أن يتقي الله ﷻ فيهن بحسن معاملتهن ومعاشرتهن بالمعروف كما أمر الحق تبارك وتعالى بذلك في قوله ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩].

وليحذر المعدِّد غاية الحذر من ظلم إحدى زوجاته بالميل إلى غيرها مع إهمال حقوقها، فإنَّ مَنْ فعل ذلك جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل حتى يهوي به في نار جهنم كما أخبر بذلك الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى عليه الصلاة والسلام، ففي الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد وأصحاب السنن رحمهم الله تعالى عن الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «مَنْ كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه ساقط».

وللعدل وجود مؤثر وبارز في مجال التحاكم والقضاء، فيجب على القاضي المسلم أن يتقي الله تبارك وتعالى في التعامل مع الخصوم بالدقة التامة في تحري العدل في لفظه ولحظه، فذاك أَمْرُ الله جلَّ وعلا الذي لا مناص منه ولا محيد عنه، كما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

وقد أمر الله تبارك وتعالى نبيه محمداً ﷺ بالعدل في حكمه بين اليهود فقال سبحانه: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٤٢].

وإذا كان ذلك في حق اليهود فإنه في حق المسلمين أوثق وآكد وأوجب. وليحذر القاضي المسلم غاية الحذر من اتباع الهوى في إصدار الأحكام القضائية، فإنّ عاقبة ذلك وخيمة في الدنيا والآخرة، وليس أدل على ذلك من قول الحق تبارك وتعالى لنبيه داود عليه السلام: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص].

وليكن للقاضي المسلم أسوة حسنة في الصحابة الكرام رضي الله تعالى عنهم وفي قضاة الإسلام الأوائل رحمهم الله تعالى الذين شهد لهم التاريخ بالعفة والنزاهة والصلاح والتقوى، فكانوا نماذج يُحتذى بهم في إقامة صرح العدل مع الكافر فضلاً عن أن يكون ذلك مع المسلم، لأنهم وعوا حق الوعي قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [المائدة: ٨].

فما أحوجنا إلى العدل في جميع شؤون حياتنا، فبه قامت السموات والأرض، وبه يتهاوى الظلم لتكون الهيمنة للحق، وحينذاك تسعد البشرية بحياة عزيزة كريمة.

* * *

نعمة البصر

حين خلق الله تبارك وتعالى الإنسان من العدم إلى الوجود أنعم عليه بحواس عظيمة يدبِّر بها معيشته، ويسيِّر بها شؤونه في هذه الحياة، ليكون مؤهَّلاً لما خلقه الله سبحانه له وهو القيام بعبادته جل شأنه، وليكون قادراً على خلافة هذه الأرض وعمارتها وفق منهج الله تبارك وتعالى من غير شطط أو تجاوز.

ومن تلك الحواس العظيمة حاسة (البصر)، كما قال سبحانه في معرض الامتنان بها على الإنسان: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾ [الإنسان].

وبهذه الحاسة العظيمة يتعرف الإنسان على ما حوله من الأشياء، فيدركها على حقيقتها، ويتعامل معها التعامل الذي يتلاءم مع مصلحته، ويتناسب مع حاجته، ومن هنا فقد جعل الحق تبارك وتعالى هذه الحاسة وسيلة من وسائل الحصول على العلم والمعرفة، حين قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [النحل: ٧٨].

وبهذه الحاسة العظيمة يتعرف الإنسان على قدرة الله تبارك وتعالى الباهرة على إيجاد هذا الكون بكل ما فيه من عوالم تدل على وحدانيته وكمال قيوميته، وأنه مالك هذا الملك والمتصرف فيه وحده بمشيئة بالغة وإرادة غالبة، فيقوده بصره عن طريق التفكر في هذا الكون وعجائب صنعه إلى الإيمان الصادق بالله الخالق المبدع المصوِّر، فيزداد قرباً منه، وتعلُّقاً به، وتوكُّلاً عليه، ومحبةً له، ورغبةً فيه، وحينئذ تكون تلك الحاسة سبباً في

معرفة العبد لربه ﷻ المعرفة الحقيقية، ولذلك فإنّ هذه النعمة العظيمة وهي نعمة البصر تستوجب الشكر الكثير للواهب ﷻ، كما قال جلَّ وعلا: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الملك].

وإنَّ مِنْ شُكْر الله تبارك وتعالى على هذه النعمة العظيمة حفظها بطاعة الله ﷻ عما حَرَّمه سبحانه عن طريق النظر في كتاب الله جلَّ شأنه قراءةً وحفظاً وتدبُّراً، فهو الكتاب الذي يحيي القلوب، ويجدِّد الإيمان. وعن طريق النظر في هذا الكون الناطق بقدرة الله تبارك وتعالى وعظمته وبديع صُنعه سبحانه، نَظَرَ تفكُّر وتأمُّل، ليزداد الإيمان، ويترسَّخ اليقين، فهذه هي صفة المؤمنين أولي الألباب الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾ [آل عمران].

وعن طريق النظر في النفس البشرية للتعرف على القدرة الإلهية البالغة في تصويرها وتكوينها، كما قال سبحانه: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات].

هذه بعض وسائل شكر الله تبارك وتعالى على هذه النعمة العظيمة وهي نعمة البصر، وهي وسائل جديرة بالعناية والرعاية والاهتمام إذا أراد المسلم حفظ بصره عن المهلكات والموبقات، فإنَّ هذا النظر إنْ لم يُستخدم في الطاعة استُخدم في المعصية، ولذلك جاءت النصوص الشرعية في الكتاب الكريم والسنة المطهرة تحذِّر غاية التحذير من سوء استخدام النظر، فقد حذر الله تبارك وتعالى عباده من خيانة العين، وبيَّن سبحانه لعباده كافة أنَّ استراق النظر إنْ كان يخفى على الناس فليس ذلك بخافٍ عليه جلَّت قدرته، لأنه العليم المطَّلع على كل شيء، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ [غافر: ١٩].

كما بيَّن سبحانه لعباده المؤمنين أنَّ النظر المحرَّم بريد الزنا والوقوع

في الفاحشة، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠].

فرتَّب الحق تبارك وتعالى حفظ الفروج على غض الأبصار، ومفهوم ذلك أنَّ مَنْ لم يغضَّ بصره فلن يحفظ فرجه، وهذا أَمْرٌ مُجَرَّب فكم من نظرة محرمة قادت إلى شهوة محرمة انتُهكت بها الأعراض، واستُبيحت بها الفروج، لأنَّ تلك النظرة تنفذ من العين إلى القلب فتفعل فيه الأفاعيل حتى يكون الإنسان أسير شهوته وهواه، وربما باع من أجل ذلك دينه وخُلُقه، ففي المتفق عليه من حديث الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «كُتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مُدْرِكٌ ذلك لا محالة: العينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخُطا، والقلب يَهْوَى ويتمنَّى، ويُصَدِّقُ ذلك الفرج أو يُكَذِّبه».

إن كثيراً من المسلمين في وقتنا الحاضر قد أباحوا لأنفسهم النظر إلى ما حرمه الله تبارك وتعالى عليهم من خلال ما جلبوه إلى بيوتهم من وسائل الرذيلة والإفساد التي ينظرون فيها إلى الصور الماجنة والأجساد العارية مما يؤدي إلى تدمير القيم وتلويث الفطر وهَدْم العفاف والمروءة.

إن هؤلاء ولا شك قد جعلوا وسيلة شكر المنع المتفضِّل بتلك النعمة العظيمة هو الاستعانة بها على معصيته وتعدي حدوده وانتهاك حرماته، وهذا مصداق قوله سبحانه: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]. ومصداق قوله سبحانه: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

ومصداق قوله سبحانه: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [عبس].

فيجب على المسلم أن يتقي الله تبارك وتعالى فيما أنعم به عليه من نعمة البصر، بالاستعانة بها على طاعته سبحانه، فإنه مسؤول عنها مسؤولية كبرى يوم القيامة أمام الجبار القهَّار جلَّ جلاله، كما قال عزَّ سلطانه: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

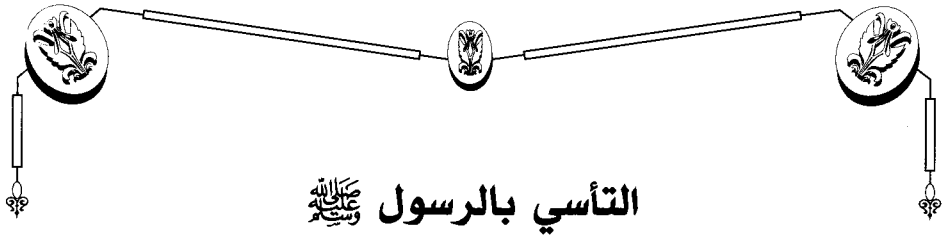

التأسي بالرسول ﷺ

شرَّف الله تبارك وتعالى هذه الأمة بأن بعث إليها رسولاً من أنفسها، هو أعظم الرسل، وأكرم الأنبياء على الإطلاق عليه الصلاة والسلام، بعثه الله ﷻ لهذه الأمة مبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، بعثه إليهم معلماً من جهالة، وهادياً من ضلالة، ومزكياً لهم من لوثات الهوى ومضلات الفتن، وفي ذلك يقول سبحانه ممتناً على هذه الأمة ببعثة هذا الرسول العظيم عليه الصلاة والسلام فيهم: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران].

وأمر الحق تبارك وتعالى عباده المؤمنين كافةً بالتأسي به عليه الصلاة والسلام في جميع شؤون الحياة، فقال سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب].

وهذه القيود الثلاثة التي ذكرها الحق تبارك وتعالى وهي: رجاء الله ﷻ، ورجاء اليوم الآخر، وذكر الله كثيراً، تدل دلالة واضحة على وجوب التأسي به عليه الصلاة والسلام، ذلك أن رجاء الله تبارك وتعالى واجب على كل مسلم، فالمسلم يرجو ربه ﷻ وحده، ولا يرجو أحداً سواه، فهذا هو معتصم المسلم من الشرك ووسيلته إلى تحقيق التوحيد، وكذلك رجاء اليوم الآخر واجب على المسلم، إذ المسلم لا يبتغي بأعماله الدنيا الفانية، وإنما يبتغي بها وجه الله تبارك وتعالى والدار الآخرة، وذِكْر الله تعالى كثيراً علامة صِدْق الإيمان، فالمؤمن الحق كثير الذكر لربه سبحانه، بخلاف المنافق فإنه قليل الذكر لربه تبارك وتعالى، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ

﴿قَامُوٓاْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٤٢﴾ [النساء].

وبناء على هذه القيود الثلاثة فإنّ المسلم إذا لم يتأسَّ برسول الله ﷺ فقد قطع رجاءه بالله ﷻ، وقطع رجاءه باليوم الآخر، ودخل في النفاق من أوسع أبوابه.

إن التأسي برسول الله ﷺ أمره عظيم وشأنه خطير، إنه أحد مقوِّمات الإيمان ومستلزمات الإسلام، إنه سببٌ للهداية الربانية، كما قال سبحانه: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]. وسبب لتحقيق الطاعة لله تبارك وتعالى، كما قال سبحانه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠].

وسبب لاستحقاق محبة الله ﷻ، كما قال سبحانه: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

وسبب للفوز برحمة الله تبارك وتعالى في الدنيا والآخرة، كما قال سبحانه: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ﴾ [الأعراف].

وبدون التأسي برسول الله ﷺ لا يتحقق للإنسان هداية ولا إيمان، ولا يكون أهلاً للرحمة والرضوان من الله تبارك وتعالى، بل يكون مستوجباً للعذاب، وأهلاً للإصابة بالفتن، ومصداق ذلك قول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وليس هناك مخالفة أعظم من تَرْك التأسي به عليه الصلاة والسلام في أفعاله وأحواله.

إن التأسي به عليه الصلاة والسلام يعني التمسك بسنته والسير على هديه، ويعني محبة ما يحب وبغض ما يبغض، كما يعني أن يصبغ المسلم حياته كلها بصبغة رسول الله ﷺ فهو أكمل الناس ديناً، وأبرهم عملاً، وأخلصهم نية، وأحسنهم خُلُقاً، وأزكاهم نفساً.

إن التأسي به عليه الصلاة والسلام يكون بمعرفة شمائله، والاطلاع على سيرته، والتعرف على أفعاله أكلاً، وشُرباً، ونوماً، ولبساً، وتعاملاً، وعشرة، ومحاكاة ذلك كله في الواقع العملي، ليكون برهاناً قاطعاً على صِدْق محبته، ودليلاً ساطعاً على اقتفاء أثره.

إن كثيراً من المسلمين في وقتنا الحاضر قد فرطوا في التأسي برسول الله ﷺ، فهم لم يجعلوا رسول الله عليه الصلاة والسلام قدوتهم في كل شيء، بل صادروا هديه، وخالفوا سنته، وتنكبوا طريقه، فزلَّت بهم الأقدام، وأصبحوا كبهيمة الأنعام يسيرون في هذه الحياة لا هَمَّ لهم سوى إشباع الرغبات والْعَبِّ من الشهوات.

ولا عصمة للمسلم من نزعات النفس ونزغات الشيطان ومضلات الهوى والفتن إلا بالسير على هَدْي النبي الكريم عليه الصلاة والسلام والتأسي بما جاءنا عنه ﷺ من طرق صحيحة، فذاك هو سبيل الهداية والنجاة من الهفوات والعثرات.

فهل يعي هذه الحقيقة أولئك الذين ارتموا في أحضان أعداء الإسلام فقلدوهم في جميع أنماط حياتهم، حتى ارتكسوا في حمأة الرذيلة؟!

* * *

زيارة القبور

إن النفس البشرية وهي تسير في خضم بحر هذه الحياة معرضة إلى أن تتقاذفها الأمواج العاتية يمنة ويسرة، فتغرق في ظلماتٍ بعضها فوق بعض، نتيجة تراكم الذنوب على القلوب التي هي محل النظر من علّام الغيوب تبارك وتعالى.

ويوم أن تتراكم الذنوب على القلوب فذلك علامة حَجبها عن نور الله جلَّ جلاله، وهذا ما حذر منه سبحانه حين قال: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين].

وإذا تراكم الذنب على القلب أعرض صاحب هذا القلب عن الدار الآخرة، فلا يزدجر بموعظة حين يوعظ، ولا يتنبه من غفلة حين يوقظ، بل يكون سادراً في غيه، سائراً في لهوه حتى يكون منتهاه حفرة ضيقة موحشة ينزل قعرها ويعاني حرها، وإذ ذاك يتنبه ويستيقظ، ولكنْ بعد فوات الأوان وتقضّي الزمان، وتلك خسارة لا تُعَوَّض، ومصيبة لا تُجبر، وبليَّة لا تندفع، إلا إذا تدارك الله سبحانه عبده برحمته وإحسانه.

إن طبيب القلوب عليه الصلاة والسلام حين يأمر أمته بزيارة القبور، كما أخرج الإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه عن الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «فزوروا القبور فإنها تذكر الموت» وأخرج رحمه الله تعالى عن ابن بُريدة عن أبيه رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها» فإنما أراد بذلك عليه الصلاة والسلام أن يعالج داءً من أدواء النفوس، ومرضاً من أمراض القلوب وهو الإعراض عن الدار الآخرة الذي هو سبب الانغماس

في شهوات هذه الدنيا نتيجة نسيان الموت والغفلة عن المصير المحتوم الذي أكده الحق تبارك وتعالى في مواضع متعددة من كتابه الكريم، كما في قوله سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران].

وكما في قوله سبحانه: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ﴾ [النساء: ٧٨].

وكما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر].

وكما في قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [الجمعة].

إنّ طبيب القلوب عليه الصلاة والسلام بأمره بزيارة القبور يعالج هذا الداء النفسي الخطير، وهو نسيان الموت، ومن هنا فقد علّل عليه الصلاة والسلام زيارة القبور بقوله: «فإنها تذكر الموت».

نعم، إن في زيارة القبور ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، إن زيارة القبور ترقق القلوب الغليظة، وتشفي النفوس المريضة، وتقوّم السلوكيات المنحرفة وتعيد المسلم إلى جادة الصواب إلى الاستقامة على منهج الكتاب والسنة والسير في طريق سلف هذه الأمة الذين جعلوا من زيارة القبور علاجاً لقساوة قلوبهم وإصلاح نفوسهم.

إن زيارة القبور محطة يقف عندها المسلم ليحاسب فيها نفسه محاسبة عسيرة على تقصيرها في الطاعة، وتفريطها في جنب الله تبارك وتعالى، وإسرافها في ارتكاب المعاصي واقتراف الذنوب.

إن في زيارة القبور تجديداً للإيمان، وحافزاً إلى العمل الصالح، وإيقاظاً للمشاعر والأحاسيس، وحينئذٍ يرجع المسلم إلى رشده فلا تنحرف

به سبيل، ولا تزل به قدم، ولا يغويه شيطان، ولا تنسيه شهوات النفس وملذات الدنيا يوماً عبوساً قمطريراً.

إن في زيارة القبور معاينةً حقيقية لمصارع القوم، فهم يلتحفون التراب، ويفترشون التراب، قد محت دارسات الثرى محاسن وجوههم وجمال أجسامهم، وقطّعت الديدان أوصالهم وأعضاءهم، واستوى في ذلك كله الصغير والكبير، والشريف والوضيع، والغني والفقير، فكلهم في هذه الحفر الضيقة الموحشة مرتهنون بأعمالهم خيرها وشرها.

فعالج نفسك أيها المسلم بهذا العلاج النبوي الكريم، وكن زائراً للقبور قبل أن تكون مزوراً فيها، واتعظ بأحوال ساكنيها قبلَ أن تكون أنت محل الاتعاظ والاعتبار.

عالج أيها المسلم بزيارة القبور قساوة قلبك وإعراض نفسك وتسلُّط الشهوات على عقلك، فقد كفى بالقرآن زاجراً وبالموت واعظاً.

إن النبي ﷺ قد أرشدنا إلى الإكثار من ذِكْر الموت، ففي الحديث الذي أخرج الإمام الترمذي رحمه الله تعالى بإسناد حسن عن الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «أكثروا من ذكر هاذم اللذات».

وكيف يكثر الإنسان من ذكر هاذم اللذات وهو في صدود وإعراض عن زيارة القبور، بل إنه يستنكف عن ذلك، وهذا إمعان منه في الغفلة، وتمسُّك منه بحبال هذه الدنيا التي توشك أن تنقطع به، فيكون بذلك قد أعطى نفسه حظوظ الدنيا الفانية، وحرمها حظ الآخرة الباقية، نعوذ بالله تعالى من الانتكاس والارتكاس.

أيها المسلم الكريم: زر المقبرة ولو في الشهر مرة زيارة خاشع معتبر، تعلوك السكينة والانكسار، وحدِّث نفسك وأنت ترمق ببصرك هذه القبور المتعددة أنك مهما طالت بك الحياة فسيكون مصيرك مصير ساكني هذه القبور، وإذا كان لا بد من هذا المصير فإنَّ من العقل والحزم والكياسة

أن تستعد ليوم رحيلك بعمل صالح وتوبة صادقة، وندم على التسويف والتفريط والتقصير، حتى يكون يوم رحيلك من الدنيا يوم زفاف إلى جنات عرضها السموات والأرض، فإن الحق تعالى يقول: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾ [الواقعة].

* * *

لا إله إلا الله

كلمة «لا إله إلا الله» هي الكلمة الخالدة التي أشهد بها الحق تبارك وتعالى نفسه المقدسة على إثبات وحدانيته وأولوهيته، كما شهد بذلك له الملائكة وأهل العلم، وهذا ما دل عليه قوله سبحانه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران].

وكلمة «لا إله إلا الله» هي كلمة التوحيد التي من أجلها بعث الحق تبارك وتعالى الرسل عليهم الصلاة والسلام، كما قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء].

وكلمة «لا إله إلا الله» هي العروة الوثقى التي من استمسك بها كفر بالطاغوت وآمن بالله تبارك وتعالى حق الإيمان، كما قال سبحانه: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة].

وكلمة «لا إله إلا الله» هي النجاة للعبد من مصائب الدنيا وكرباتها، ولذلك فإن النبي الكريم يونس عليه السلام حين أطبقت عليه الظلمات ظلمة البحر، وظلمة الليل، وظلمة بطن الحوت، وأحسَّ بالكرب العظيم نادى ربه تبارك وتعالى ذاكراً مسبحاً بقوله: «لا إله إلا أنت سبحانك» فأنجاه الله جلَّت قدرته من المحنة والبلاء والكرب والعناء، وفي ذلك يقول الحق سبحانه: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء].

وكلمة «لا إله إلا الله» هي أفضل الذكر، ففي الحديث الذي أخرجه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى بإسناد حسن عن الصحابي الجليل جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أفضل الذكر لا إله إلا الله».

وكلمة «لا إله إلا الله» هي علامة حُسْن الخاتمة، وهي مفتاح الدخول إلى الجنة، ففي الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه عن الصحابي الجليل عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة».

كما أخرج رحمه الله تعالى في صحيحه عن الصحابي الجليل معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «مَنْ كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة».

وكلمة «لا إلٰه إلا الله» مَنْ قالها صادقاً من قلبه يبتغي بها وجه الله تبارك وتعالى حرَّمه الله ﷻ على النار، ففي الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه عن الصحابي الجليل أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «حرَّم الله على النار مَنْ قَال لا إلٰه إلا الله يبتغي بذلك وجه الله تعالى».

هذه الكلمة العظيمة التي يردِّدها المسلم صباحاً مساءً، ويردِّدها معه الكون كله تعظيماً لله تبارك وتعالى، وإجلالاً لعزته وكبريائه هَدَى الله ﷻ إليها أقواماً فكانوا أحق بها وأهلها وهم أصحاب النبي ﷺ ورضي الله تعالى عنهم، وصَدَّ عنها أقواماً آخرين وهم المشركون الذين أنكروا على النبي ﷺ دعوتهم إليها وتعجَّبوا من ذلك أشد العجب، كما قال الحق سبحانه في شأنهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص].

فكان ذلك الإنكار والتعجب سرَّ استكبارهم عن الانصياع لها، والانقياد إليها، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ۝٣٦﴾ [الصافات].

إن المسلم إذا قال: «لا إله إلا الله» عالماً بمعناها، عاملاً بمقتضاها حقَّق الإسلام، والإيمان، والإحسان.

حقق الإسلام، لأن الإسلام هو الاستسلام لله تبارك وتعالى بالانقياد للتوحيد والخلوص من الشرك، وهذه هي حقيقة «لا إله إلا الله». وحقق الإيمان، لأن حقيقة الإيمان ليست أمانيَّ كاذبة، أو دعاوى مزيَّفة، بل حقيقته ما قرَّرها السلف الصالح رضي الله تعالى عنهم بقولهم: «ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، ولكنه ما وقر في القلب وصدقه العمل»، وتلك الحقيقة هي مقتضى «لا إله إلا الله»، إذْ هي تعني صِدْق المسلم مع ربه تبارك وتعالى في القول والعمل.

وحقق الإحسان، لأن حقيقة الإحسان «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، وهذه أيضاً حقيقة «لا إله إلا الله» فإنها تعني مراقبة الله ﷻ في الظاهر والباطن.

إنَّ كلمة «لا إله إلا الله» كنز عظيم، يجب على المسلم أن يحافظ عليه غاية الحفظ، فإنه رأس ماله في الحياة، وفي الممات، وفي المحشر، وعند دخول الجنة.

كما يجب على المسلم أن يكون صادقاً كل الصدق في تلفظه بهذه الكلمة، فإنَّ مَنْ قال: «لا إله إلا الله» عالماً بمعناها، عاملاً بمقتضاها كان أميناً على الوفاء بمستلزماتها، حريصاً على الابتعاد عن كل ما يناقضها.

* * *

صوم شعبان

في الحديث المتفق على صحته روت لنا الصديقة بنت الصديق أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها سلوكاً إيمانياً تعبدياً كان النبي ﷺ يمارسه في شهر شعبان، فقالت: «لم يكن النبي ﷺ يصوم من شهر أكثر من شعبان، فإنه كان يصوم شعبان كله».

وفي رواية: «كان يصوم شعبان إلا قليلاً».

إنه ـ بلا شك ـ سلوك يدل على صِدْق العبودية من رسول الله ﷺ لربه تبارك وتعالى، كما يدل على كمال اتصال قلبه عليه الصلاة والسلام بخالقه جلَّ وعلا في جميع الأوقات، ولا غرو في ذلك فهو إمام العابدين، وسيد الذاكرين، وأعرف الخلق برب العالمين تبارك وتعالى.

ولقد بيَّن لنا النبي ﷺ الحكمة العظيمة من إكثاره لصيام أيام شهر شعبان، ففي الحديث الذي أخرجه الإمامان أبو داود والنسائي، وصححه الإمام ابن خزيمة عن الصحابي الجليل أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما قال: يا رسول الله لم أرك تصوم من شهر من الشهور ما تصوم من شعبان؟ قال ﷺ: «ذلك شهر يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان، وهو شهر تُرفع فيه الأعمال إلى رب العالمين فأحب أن يُرفع عملي وأنا صائم».

نعم، إنه شهر يغفل عنه الناس، لأنه يقع بين شهرين عظيمين: شهر رجب الذي هو أحد الأشهر الحرم المعظمة في الإسلام، وشهر رمضان الذي لا يُنكر فضله ولا يُجحد شرفه، وغفلة الناس عن شهر شعبان سببها إقبال كثير منهم على الأمور المادية المتمثلة في شراء أنواع الطعام والشراب، مع الإسراف في ذلك غاية الإسراف، وكأنَّ شهر رمضان مناسبة

أكل وشرب وتفاخر بالموائد والولائم، ويقابل ذلك كله إهمال كلي في إعداد النفس الإعداد الإيماني الصحيح لاستقبال ذلك الشهر العظيم شهر القرآن والصيام بما يناسب حرمته ويتلاءم مع قدسيته، وذلك بتطهير النفس من شوائب المعاصي، وإرجاع الحقوق والمظالم لأصحابها، وهكذا يبقى المسلم منشغلاً بجلب ما يحقق شهوة بطنه من أكل وشرب، ليكون متغافلاً عن إصلاح نفسه وتزكية قلبه، حتى يدخل عليه رمضان وحاله من الغفلة والإعراض والعصيان كحاله في شعبان وسائر أشهر السنة.

والأجدر بالمسلم أن يقف في شهر شعبان مع نفسه وقفة محاسبة جادة لتقويم اعوجاجها، وتهذيب سلوكها، وإصلاح خللها، حتى تستقبل رمضان وهي طاهرة زكية، تقية نقية، فتزيد بالصيام نوراً وإشراقاً، وبالقيام إجلالاً وبهاءً.

وإذا كان شهر شعبان شهراً تُعرض فيه أعمال العباد على الله تبارك وتعالى فإنه حري بالمسلم أن يتأسى فيه برسول الله ﷺ الذي كان يكثر من صيامه وهوالمغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فما أحوج المسلم إلى هذا الزاد الإيماني الذي يزداد به قرباً من ربه تبارك وتعالى، قرباً تسعد به النفس، وتشرق به الروح، وتقرُّ به العين، وتتزكى به الجوارح، ما أحوجه إلى أن يلحق بركب الصالحين، وألا يتأخر عن قافلة الناجين، فإنّ الحياة فرص، ولله تبارك وتعالى في دهره نفحات مَنْ تعرَّض لها أفلح وأنجح، ومن أعرض عنها خاب وخسر.

حكمتان عظيمتان علَّل بهما النبي ﷺ وسلم كثرة صيامه لشعبان، لينبِّه هذه الأمة على عظم استغلال هذا الشهر بالإقبال على الله تبارك وتعالى، وليحذرهم من خطورة الغفلة عنه سبحانه فيه، حتى لا يجنحوا للشهوات ويستعيضوا بها عن النوافل والقربات. وهناك حكمة ثالثة من إكثار النبي ﷺ لصيام شعبان ذكرها أهل العلم، وهي أنّ نساء النبي عليه الصلاة والسلام ورضي الله تعالى عنهن كان يكون عليهنَّ الصيام من رمضان السابق فلا

يتمكنَّ من قضائه إلا في شهر شعبان للقيام بشؤون النبي ﷺ، فكان عليه الصلاة والسلام يكثر من صيام شهر شعبان مواساةً منه لهنَّ وجبراً بخواطرهنَّ، وهذا ـ بلا شك ـ لفتة نبوية كريمة ممن وصفه ربه تبارك وتعالى بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم].

تلك اللفتة النبوية الكريمة تمثل قمة الوفاء في التعامل مع الزوجات، وفي تلك اللفتة تربية عملية لكل زوج من أفراد هذه الأمة في كيفية التعامل مع زوجته، فليست الحياة الزوجية حياة عسكرية يُخْضِعُ فيها الزوج زوجته لتنفيذ ما يمليه عليها من أوامر دون رعاية لشعورها، أو مداراة لنفسيتها، بل إنّ الحياة الزوجية حياة محبة وتعاطف، وتفاهم وتآلف، وحياة رعاية للمشاعر ومداراة للأحاسيس، ولو فقه كل زوج هذا الهَدْي النبوي الكريم لانحلت المشكلات الزوجية، وعاش الزوجان في سعادة غامرة بعيداً عن العُقد النفسية والمنغِّصات الأسرية.

فما أحراك أيها المسلم الكريم أن تدرك هذه الحكم العظيمة من إكثاره عليه الصلاة والسلام لصيام شهر شعبان، وما أحراك أن تتأسى فيها برسولك ﷺ فإنه المثل الأعلى في أمور الدين والدنيا.

* * *

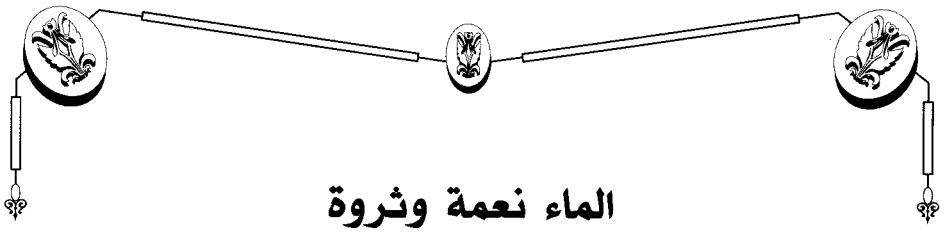

الماء نعمة وثروة

أمر الحق تبارك وتعالى نبيه محمداً ﷺ أن يخاطب عموم الناس بقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الملك].

وهذا الخطاب فيه إظهار لقدرة الله تبارك وتعالى الباهرة، وإظهار لعجز الناس عن تحصيل مقوِّمات حياتهم حين يُتركون مع أسبابهم ووسائلهم.

وكما يظهر هذا الخطاب قدرة الخالق وعجز المخلوق، فإنه في الوقت نفسه يظهر منَّة الله العظمى على عباده بأن أنعم عليهم سبحانه بهذا الماء العذب الزلال الذي به قوام كل شيء، فهو مصدَر الحياة، كما قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]. وهو أساس التطهير، كما قال سبحانه: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنفال: ١١].

وهو سبب الري وقاهر الظمأ حين يشربه الإنسان، كما قال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْيِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾ [الفرقان].

ولذلك فقد لفت الحق تبارك وتعالى أنظار عباده إلى عظم هذه النعمة التي أنعم بها عليهم فقال سبحانه: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الواقعة].

ولعظم نعمة الماء على الإنسانية جمعاء فقد جعله الله تبارك وتعالى هو الرزق الحقيقي الذي تتعطل جميع الأرزاق بتعطله حين قال سبحانه: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات].

قال حَبْر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما في تفسير الرزق في هذه الآية الكريمة: «هو المطر ينزل من السماء».

وإذا كان الماء نعمة عظيمة وثروة لا تُقَدَّر بثمن فإنَّ لبقاء تلك النعمة آفة وحصانة، فحصانة بقائها شكر الله تبارك وتعالى المتفضل بتلك النعمة، وهذا ما قرَّره المولى سبحانه بقوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

وشكره سبحانه على هذه النعمة العظيمة إنما يكون بتقواه وخشيته في السر والعلن، ويكون بالتمسك بدينه ظاهراً وباطناً، وهذا ما أكده الحق تبارك وتعالى بقوله: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الجن].

وأما آفة تلك النعمة فهي الإعراض عن الله تبارك وتعالى، وإهمال العمل بمنهجه وشرعه، وقطع الصلة الحقيقية بكتابه وسنة نبيه ﷺ، وهذا ما حذر منه الحق جل شأنه حين قال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف].

إن نتيجة الإعراض عن الله تبارك وتعالى الْأَخْذُ المؤلم الشديد، كما قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود].

وفي واقع المسلمين في وقتنا الحاضر قد كثرت مظاهر الإعراض عن الله تبارك وتعالى من التهاون في أداء الصلاة، والتساهل في إخراج الزكاة، وعقوق الوالدين، وقطيعة الرحم، وإهمال القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى غير ذلك من المظاهر التي تنذر بأوخم العواقب والعياذ بالله تعالى، ولقد بدأت صيحات الخطر تطلق هنا وهناك تنادي بترشيد الاستهلاك المائي محذِّرة من حدوث أزمة مائية عالمية، وسبب ذلك بلا شك انتزاع البركة نتيجة كفر هذه النعمة والتقصير الكبير في شكرها.

* * *

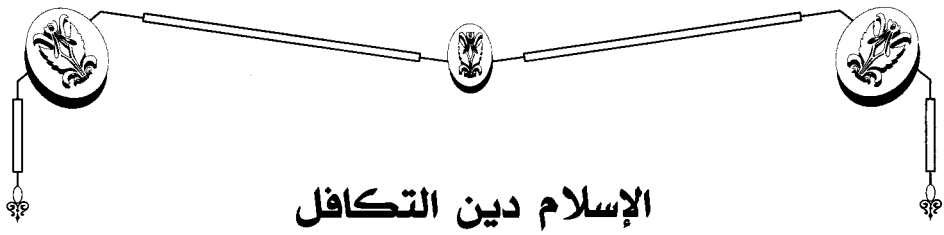

الإسلام دين التكافل

يجهل بعض الناس حقيقة الإسلام، وأنه دين التكافل الاجتماعي بين المسلمين، فيردِّد هذه الكلمة «عِشْ لنفسك فقط، فلست مسؤولاً عن غيرك».

وتلك كلمة يأباها الخلق الكريم والذوق السليم فضلاً عن العقيدة والدين، وما ذلك إلا لأنها كلمة تمثِّل قمة الأثرة وغاية الأنانية، وتدل على التنصُّل من أداء الحق الشرعي لأصحابه المدلول عليه بقول المولى سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ [المعارج].

والمدلول عليه بما ثبت في الصحيحين من حديث الصحابي الجليل معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال له حين بعثه إلى اليمن: «فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتُردُّ على فقرائهم».

إنّ العيش مع النفس وللنفس فقط دوران حول الذات وتقديس لها، وحين يعشعش هذا المفهوم في ذهن المسلم فلا مانع لديه حينئذٍ من أن يتسلَّق ظهور إخوانه المسلمين متجاوزاً بذلك جميع مقوِّمات الدين والخلق ليصل إلى تحقيق مصالحه الشخصية ومنافعه الذاتية، ولو كلفه الأمر أن يضحي بكل مسلم، فلا ضير في ذلك عنده ما دام أنه السبيل لتحقيق حظوظ نفسه.

. إن العيش مع النفس وللنفس فقط سلوك أعوج وتصرف أهوج، يتعارض غاية التعارض مع الشعور بأخوة الإيمان ورابطة العقيدة، إذ كيف تتحقق أخوة الإيمان ورابطة العقيدة في دنيا الواقع وعالم الوجود إذا كان

كل مسلم يقول بملء فيه: نفسي نفسي، ذاتي ذاتي، دون مبالاة بمصالح إخوانه المسلمين؟!.

إنَّ ضعف الشعور برابطة الأخوة الإيمانية في أذهان المسلمين يدل على ضعف الإيمان في نفوسهم ووهن العقيدة في قلوبهم، وهذه هي الثغرة التي استطاع أن يتسلل منها أعداء الإسلام لإضعاف المسلمين والقضاء على وحدتهم حتى نجحوا في ذلك أيما نجاح.

إن ديننا الإسلامي الحنيف دين التكافل الاجتماعي بجميع صوره وأشكاله، فهو دين يأمر المسلم برعاية الأيتام والمساكين وتلمُّس حاجاتهم كما دل على ذلك قول الحق تبارك وتعالى وهو يخاطب هذه الأمة في شخص نبيها محمد ﷺ: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾ [الضحى].

بل إنه سبحانه يؤكد غاية التأكيد على رعاية حقوق الأيتام والمساكين، لدرجة أنه جعل عدم رعاية تلك الحقوق من باب التكذيب بيوم الدين حين قال سبحانه: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾ [الماعون].

وفي مقام الحث على القيام بحقوق الأيتام والمساكين يخبر النبي ﷺ أمته بالثواب العظيم الذي أعده الله تبارك وتعالى للقائم بتلك الحقوق، ومن ذلك ما أخرجه الإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه عن الصحابي الجليل سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا» وأشار بالسبابة والوسطى، وفرَّج بينهما.

ومن ذلك ما أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى من حديث الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين في الجنة» وأشار الراوي بالسبابة والوسطى.

وكما حرص الإسلام الحنيف على رعاية الأيتام والمساكين فقد

حرص كذلك على رعاية الأرامل من نساء المؤمنين، وليس أدل على ذلك مما ثبت في الصحيحين عن الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «الساعي على الأرملة والمسكين، كالمجاهد في سبيل الله»، قال الراوي: وأحسبه قال: «وكالقائم الذي لا يفتر، وكالصائم الذي لا يفطر».

وهذه الرعاية تعطينا دلالة واضحة وأكيدة على أن الإسلام دين التكافل والتكامل، ودين التراحم والتلاحم، ودين المواساة والمؤاخاة، فلا مجال للأنانية فيه، ولا وجود للأنانيين في شيء من جوانبه على الإطلاق، وإنّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

* * *

شهادة الجوارح

حينما تكون لإنسان خصومة مع إنسان آخر فإنه يلجأ إلى القضاء الشرعي للتحاكم بشأن هذه الخصومة، وقد يكون أحد الخصمين ألحن بحجته من الخصم الآخر، بمعنى يكون جريئاً، فصيحاً، بليغاً، فيستطيع بذلك أن يكسب الموقف لصالحه وإنْ كان الحق في الواقع ضده، لأن القاضي إنما يحكم بالظواهر دون السرائر التي لا يحيط بكنهها إلا علَّام الغيوب تبارك وتعالى، وهذا الأمر إن كان محتمل الوقوع في دنيا الوجود، لأن القاضي بشر يخطئ ويصيب، فإنه لا يمكن أن يكون محتمل الوقوع في محكمةٍ قاضيها رب العالمين تبارك وتعالى في يومٍ لا يُظلم فيه الناس مثقال ذرة، كما أخبر عن ذلك سبحانه بقوله: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء].

ففي تلك المحكمة الربانية العادلة يقف العبد الضعيف بين يدي القهار الجبار جلَّ جلاله لا يملك لنفسه حولاً ولا طولاً ولا قوة ليحاسبه على ما اقترفته يداه من سيئات، وخصمه الذي سيشهد عليه بهذا الاقتراف ليس خارجاً عن ذاته، بل هو من نفسه التي بين جنبيه، من نفسه التي متَّعها في الدنيا وأطلق لها العنان لتكون فارسة الميدان في تحقيق أكبر قدر ممكن من العصيان والطغيان.

هذه النفس ستكون شاهدة عليه شهادة محققة موثقة لا زور فيها ولا بهتان بكل ما اكتسب من آثام وارتكب من إجرام، وهذا ما أكده الحق تبارك وتعالى بقوله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ [النور].

وبقوله سبحانه: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس].

وحينذاك لا حيلة للمجرم العاصي إلا أن يلوم أعضاءه على شهادتها عليه بما فيه عطبه وهلاكه، فتعتذر إليه هذه الأعضاء بأنَّ الذي أشهدها عليه هو عالم السر وأخفى الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات والأرض، وهذا ما قصه علينا الحق تبارك وتعالى حين صوَّر لنا سبحانه ذلك المشهد الرهيب تصويراً دقيقاً بليغاً، تلين له القلوب وتقشعر منه الأبدان فقال جلَّ شأنه: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [فصلت].

وكثير من الناس غافلون عن هذه الحقيقة، فهم حين يغلقون الأبواب على أنفسهم ويكونون في مأمن من رؤية الآخرين يظنون أنهم أصبحوا في حصن حصين عن مراقبة رب العالمين تبارك وتعالى، ناسين أو متناسين قوله سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف]. وناسين أو متناسين قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الإنفطار].

فالعبد ليس وحيداً حين يخلو بنفسه لارتكاب أي عمل من الأعمال، وإذا كان الحال كذلك فعليه أن يستحيي من الله تبارك وتعالى حق الحياء، ثم من الملائكة الكرام الكاتبين عليهم السلام، كما يجب عليه الحذر كل الحذر من هذه النفس الأمارة بالسوء التي تقود صاحبها إلى مهاوي الردى.

وإن الاستخفاء من الناس والغفلة عن رقابة الله تبارك وتعالى أمر

يتنافى مع تعظيم الله جلَّ جلاله، وهذا ما أنكره بقوله سبحانه: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾ [النساء].

* * *

الوظيفة

الوظيفة نعمة ربانية، ومنحة إلهية امتنَّ بها المولى تبارك وتعالى على عبده الموظف لتكون وسيلة لكسبه ومصدراً لرزقه، وبذلك تتوافر أسباب العيش الكريم له ولمن يعوله من أفراد أسرته، وهذا من شأنه أن يحقق له عزة النفس حتى لا يكون عالة على الآخرين، ومن شأنه أيضاً أن يقيه خطر البطالة التي هي مدعاة للانحراف والشرور.

وتلك النعمة جحد شكرها كثير من الناس فحُرموا من إحلال البركة فيها، لأنهم جعلوا الوظيفة مصدر تسلُّط على الآخرين، ومكاناً للمحسوبية، ومجالاً خصباً لإشباع رغبات النفس من غير رعاية لحرمة الناس وصيانة لحقوقهم، ومن غير مبالاة بأمانة الوظيفة التي حمَّله الحق تبارك وتعالى إياها واسترعاه عليها، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب]. فالموظف مستأمن على وظيفته التي شغل حيِّزها وآل إليه أمرها، ومسؤول مسؤولية عظيمة عن تلك الأمانة أحفظها أم ضيَّعها؟.

ولذلك فالواجب عليه أن يتقي الله ﷻ في هذه الأمانة والمسؤولية، بأن يكون مثالاً للموظف الأمين النزيه الذي يجعل من وظيفته منطلقاً لتسهيل معاملات الناس، وتيسير أمورهم، وقضاء حوائجهم من غير تعنت وتغطرس.

إنّ بعض الموظفين ـ ويا للأسف الشديد ـ أعطوا من أنفسهم أمثلة سيئة، ونماذج معتمة في سوء استغلالهم لمنصب الوظيفة، فصنف منهم لا يلتزم حق الالتزام بالوقت المحدد لهذه الوظيفة، فيأتي متأخراً وينصرف

مبكراً، مضيعاً بذلك وقتاً كبيراً ليس من حقه شرعاً ونظاماً أن يصرفه في مصالحه الشخصية، لأن في ذلك تفويتاً لمصالح الناس وإلحاقاً للضرر والأذى بهم، كما أن في ذلك سرقة لوقتٍ ليس ملكاً له، فيكون ما يأخذه من مالٍ نظير هذا الوقت المسروق سحتاً يطعمه نفسه وأولاده بالحرام.

وصنف من الموظفين يحرص في الظاهر على وقت الوظيفة فيلتزم به حضوراً وانصرافاً خوفاً من رئيسه واتقاءً للحسم والخصم من الراتب، ولكنه في واقع الأمر وحقيقة الحال لا يعطي الوظيفة حقها من الوقت، بل إنه يضيع جزءاً كبيراً من وقتها، فثلثاً يصرفه لتناول وجبة الإفطار وشرب القهوة والشاي، وثلثاً لقراءة الجرائد والمجلات، والثلث الباقي هو الوقت المخصص عنده للوظيفة، ويواليته يعطي هذا الثلث حقه من سرعة إنجاز العمل وحُسن استقبال الناس والتفاني في خدمتهم، بل إنه مع إخلاله بوقت الوظيفة يسيء معاملة الناس، ويحاول بطريقة أو بأخرى تعطيل حاجاتهم، وقد نسي أو تناسى أنه لم يُجعل في هذا الموضع إلا لخدمة المراجعين وإنهاء إجراءاتهم.

ومن الموظفين مَنْ يزيّن له الشيطان سوء عمله، فإذا قيل له: لم لا تحافظ على وقت الوظيفة وتُحسن أداء العمل؟ قال: أعطيهم من الوقت على قدر راتبهم.

وتلك مقولة لا يتفوَّه بها عاقل، فضلاً عن مسلم يراقب الله تبارك وتعالى ويتقيه، فهو لم يدخل في عَقْد هذه الوظيفة إلا وقد علم مسبقاً بمقدار راتبها ورضي بذلك الراتب، ومقتضى رضاه هذا: الوفاء بمتطلبات الوظيفة، ومن أعظم متطلباتها الحفاظ على وقت دوامها مع إتقان العمل فيها.

إن ديننا الإسلامي الحنيف يقوم على مبدأ الإحسان في كل شيء، وعلى مبدأ إتقان العمل، وإنّ من إحسان العمل وإتقانه مراعاة وقت الوظيفة، والالتزام بالدوام الرسمي فيها، ومراقبة الله ﷻ بالإخلاص في

أداء العمل، والحرص على خدمة المراجعين وتسهيل أمورهم، فكن كذلك أخي الموظف، حتى يبارك الله ﷻ لك في راتب هذه الوظيفة، وحتى تجد دعوة صالحة من إخوانك المسلمين ربما توافق ساعة استجابة فتسعد بها في الدنيا والآخرة، واحذر من التلاعب في وقت الوظيفة أو التقصير في خدمة المراجعين خشية أن تصيبك دعوة مظلوم تكون سبباً في شقاء حياتك في الدنيا والآخرة.

* * *

السعادة

يخطئ كثير من الناس حين يعتقد أن مقوِّمات السعادة إنما هي جَمْعُ المال والحصول على أكبر قدر من الثراء، فهذا الاعتقاد الذي ترسخ في قلوب هؤلاء أوجد عندهم خلطاً في الأوراق وخبطاً في ترتيب الأولويات، نشأ عنه اضطراب في المواقف وغبش في الرؤى، حتى فقدوا القدرة على التفريق بين الغث والسمين، والصحيح والسقيم، والحق والباطل، والخير والشر، لأن معيار الاحتكام عندهم إنما هو الثراء، فمن كان ثراؤه موفوراً وماله ممدوداً كان صاحب الجاه والسلطان، فهو السيد المسود الذي لا تعلو كلمته كلمةٌ، ولا يعدل رأيَهُ رأيٌ مهما اتصفت تلك الكلمة بالحق، أو اتصف هذا الرأي بالصواب والسداد، لأن الثراء وحده في عرف هؤلاء هو عنوان التفاهم وميدان التحاكم.

وهذا الأمر إن كان يساوي في ميزان الخلق الشيء الكثير فإنه لا يساوي في ميزان الحق تبارك وتعالى جناح بعوضة إلا إذا صاحبه الإيمان وخالطته التقوى، كما دل على ذلك قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وهذا ما ترجمه الإمام الشافعي رحمه الله تعالى بقوله:

ولست أرى السعادة جمع مالٍ ... ولكنَّ التقيَّ هو السعيدُ

والواقع يصدِّق ذلك ويؤكده، فكم من إنسان يملك الأموال الطائلة والكنوز الهائلة، ولكنه لم يشعر أبداً بطعم السعادة، بل لم تزده تلك الأموال والكنوز إلا هماً وغماً ونكداً وشقاءً، فلا يهنأ بمنام لأن التفكير في وسائل حفظ ذلك المال وزيادة الأرصدة منه أصبح هاجساً يؤرِّق جفنه

ويقض مضجعه، ولا يلتذ بطعام لأن سيطرة المال على جميع أحاسيسه ومشاعره أفقدته الشهية، وربما تسبب ذلك في إصابته بأمراضٍ جعلته لا يتمتع من نعيم هذه الحياة بمثل ما يتمتع به أقل الناس مالاً وأكثرهم فقراً.

ولذلك فإنّ صفوة هذه الأمة من سلفنا الصالح رضي الله تعالى عنهم لم يفسِّروا السعادة بالتفسير المادي الذي تواضع عليه الناس في عصرنا الحاضر، بل كانوا ينظرون إلى السعادة بمنظار أسمى، ويقيسونها بمعيار أرقى، لعظم صلتهم بالله تبارك وتعالى، ولمعرفتهم الحقيقية بغث الأمور وسمينها، ومن هنا كانت هذه الدنيا بجميع زهرتها وشهوتها في أيديهم ولم تتمكَّن من قلوبهم، لأنها عندهم قمطرة إلى الآخرة، ولم يتمسّكوا بشيء منها إلا بقدر ما يوصلهم إلى مرضاة ربهم تبارك وتعالى في الدار الآخرة، ولذلك أحسوا بالسعادة الحقة تملأ قلوبهم وتغمر جوارحهم، فاستقاموا على نهج الله ﷻ، لم ينقطعوا عن المسير، ولم يستوحشوا طول الطريق، لأن تلك السعادة كانت سراجاً لا يخبو يضيء لهم المعالم، ويبدِّد عنهم الغياهب، فكانت حياتهم بذلك أهنأ وأسعد بكثير من حياة المنعمين المترفين، وهذا هو سر قولهم: «نحن في سعادة لو علمها الملوك وأبناء الملوك لقاتلونا عليها بالسيوف».

إنها سعادة المخبر والمظهر، وسعادة الروح والجسد، أحسوا بتلك السعادة لأن نفوسهم تعالت عن الخلود إلى الأرض لتشمخ بكل إباء إلى السماء تستشرف الرحمة، وتستمطر الهداية.

إن السعادة الحقة ليست كنزاً مفقوداً، بل هي كنز موجود، جعله الله تبارك وتعالى حقاً مشاعاً لمن أخذ بأسبابه وملك مقوِّماته، ومقومات السعادة الحقة قد حفل بها القرآن الكريم في مواضع كثيرة من آياته المحكمة، كما حفلت بها لسنة المطهرة في مواضع متعددة منها، فما على المسلم الباحث عن السعادة الحقة إلا أن ينهل من معينهما العذب الصافي ليأخذ منهما أسباب الحصول على تلك السعادة ليغمر بها نفسه وأسرته ومجتمعه. ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس].

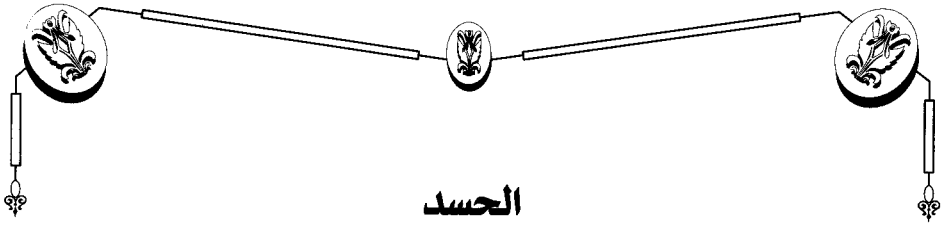

الحسد

جاء الإسلام الحنيف بإرساء دعائم الأُخُوَّة الإيمانية الصادقة في نفوس المسلمين جميعاً، من خلال نصوصٍ كثيرة محكمة تضافرت في كتاب الله تبارك وتعالى وفي سنة رسوله ﷺ، كما في قول الحق سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وكما في قول النبي ﷺ الذي أخرجه الشيخان رحمهما الله تعالى من حديث الصحابي الجليل عبد الله بن عمر رضي لله تعالى عنهما: «المسلم أخو المسلم».

وهذه النصوص تستثير في النفوس المؤمنة عاطفة المحبة الخالصة التي هي شرط تحقُّق الإيمان، كما دل على ذلك الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه عن الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ولا تؤمنوا حتى تحابُّوا».

وإذا كانت المحبة شرطاً لتحقق الإيمان فإنَّ مما ينافي تحقق هذا الشرط (التحاسد) بين المسلمين، لأنه مِعْوَلٌ هدَّام لأركان المحبة في نفوس المؤمنين، وداء فتاك يقطع أوصال الترابط بين أفرادهم ومجتمعاتهم، ولذلك فإنه لا يصدر إلا من نفوس شريرة لا يقر لها قرار، ولا يهدأ لها بال إلا بإلحاق الأذى بالآخرين دون إيمان يقظ وضمير حي، وتلك مصيدة الشيطان التي يصطاد بها مَنْ ضعف إيمانه وقَلَّ يقينه.

إن الحسد خلق مشؤوم، وسلوك مذموم، لأنه بريد الشرور، وعنوان الفجور، كيف لا؟ وهو الذي منع إبليس من السجود لآدم عليه السلام، كما قال الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ

وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة]. فكان حسده هذا سبباً في إخراجه من دائرة الرحمة إلى دائرة اللعن في الدنيا والآخرة، كما قال الحق سبحانه: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾ [ص].

ولم يقف الحسد بإبليس إلى حد إضمار العداوة لآدم عليه السلام فقط، بل امتد ذلك ليشمل بني آدم كلهم إلا مَنْ عصمه الله تبارك وتعالى وحفظه، وهذا ما أكده الحق تبارك وتعالى حين قال سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر].

والحسد هو الذي دفع فرعون الطاغية الأكبر إلى أن يناصب نبيَّ الله موسى عليه السلام العداوة والبغضاء خوفاً من أن يسحب بساط الملك والعظمة من تحت قدميه بعد أن تبيَّن له بما لا شك فيه أنه نبي مرسل بوحي الحق والهُدى من عند الله تبارك وتعالى، كما قال المولى سبحانه: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ﴾ [النمل: ١٤].

فكانت نتيجة ذلك الحسد أن أخزى الله تبارك وتعالى فرعون في الدنيا بإغراقه في البحر وهو في منعة من جنده وأبقى على جسده ليكون عبرة للمعتبرين، وفي ذلك يقول الحق سبحانه: ﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس].

وهذا بالإضافة إلى العذاب الشديد الذي ينتظره لا محالة في الآخرة هو وآل بيته من الكافرين، كما قال سبحانه: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ

ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر].

والحسد هو الذي منع اليهود والنصارى من اتباع دين محمد ﷺ، مع علمهم الجازم ويقينهم القاطع بأن ما جاء به عليه الصلاة والسلام هو الحق الذي أخذت رسلهم عليهم فيه العهود والمواثيق بأن يصدقوا به ويذعنوا له، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران].

فلما بُعث عليه الصلاة والسلام تنكروا له، كما قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

كما أن الحسد هو الذي يدفعهم دائماً وأبداً إلى السعي لغواية هذه الأمة وإضلالها وصدِّها عن دينها، كما أكد ذلك الحق سبحانه بقوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۚ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وكانت نتيجة حسدهم لهذه الأمة أن أوجب الله تبارك وتعالى عليهم غضبه وعذابه حين قال سبحانه: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾ [البقرة].

وهذا الداء الذي أصاب إبليس، وفرعون، واليهود، والنصارى قد أصاب هذه الأمة، فانتشر الحسد لدى كثير من المسلمين، وأصبح المسلم يتمنى زوال نعمة أخيه المسلم بدون أي سبب سوى الحقد الدفين الذي ملك قلبه وسيطر على مشاعره، وهذا بلا شك خطر عظيم ينذر بأوخم العواقب ويهدِّد بأسوأ النتائج، فإنّ الحسد مذهب للحسنات، موجب للسيئات، وليس أدل على ذلك مما أخرجه الإمام أبو داود رحمه الله تعالى عن الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال:

«إياكم والحسد، فإنّ الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب».

والحسد دليل على سخط العبد لربه تبارك وتعالى وعدم رضاه بما قسم من الأرزاق، إذْ لو كان راضياً بما قسم الله تعالى له من رزقٍ لما امتلأ قلبه حسداً على أخيه المسلم بأي حال من الأحوال، وهذا بلا شك برهان ضعف الإيمان، ودليل وهن الصلة بالله تبارك وتعالى، ولذلك فقد أنكر الحق سبحانه على الحسدة هذا الخلق الذميم بقوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ٥٤].

وإذا كان الحسد بهذه المنزلة من السوء فإنه يجب على المسلم أن يربأ بنفسه عنه، فإنَّ المسلم الحق لا يرضى لنفسه أن تكون وارثة هذا السلوك اللئيم عن إبليس وفرعون، وعن اليهود والنصارى.

والمسلم الحق لا يبيح لنفسه أن يكون خنجراً مسموماً يطعن به خاصرة أخيه المسلم حين يرمقه بعين حاسدة حاقدة قد تكون سبباً في إلحاق الضرر والأذى به، فيدخل بذلك في عموم قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب].

وإذا كان ليس بد من أن يتطلع المسلم إلى ما في يد أخيه المسلم من النعمة والخير فلا يجوز له أن يتمنى زوال ذلك عنه، بل يسأل الله تبارك وتعالى أن يرزقه مثل ما رزق أخاه المسلم مع الدعاء لأخيه بالبركة والنماء، فإنَّ ذلك لا يُسمَّى حسداً، بل هو غبطة محمودة، وقد أرشد سبحانه إلى هذا المنهج الوسطي والسلوك السوي حين قال سبحانه: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾ [النساء].

* * *

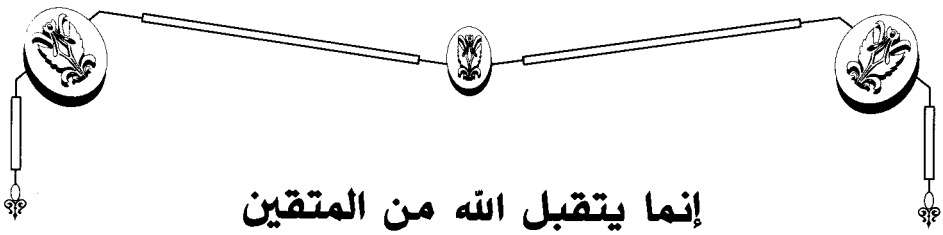

إنما يتقبل الله من المتقين

إنها جزء آية من إحدى آيات سورة المائدة، إلا أنها أقضَّت مضاجع السلف الصالح رضي الله تعالى عنهم، وأرَّقت جفون الأولياء والمقربين من عباد الله تبارك وتعالى الصادقين في إيمانهم والمخلصين في أعمالهم.

إن هذه الآية الكريمة خطيرة في دلالتها، رهيبة في إيمائها، يقشعر البدن من مضمونها ومحتواها، ذلك لأنها حصرت قبول العمل الصالح في التقوى، والتقوى ليست أمراً سَهْل المنال، بل إنها أصعب بكثير من حَمْل الجبال إلا على مَنْ وُفِّقُوا وسُدِّدوا.

إن للتقوى مواصفات عظيمة، لا يمكن أن يُنسب إليها إنسان كائناً من كان حتى يحقق تلك المواصفات، وإنّ من مواصفاتها ما ذكره الحق تبارك وتعالى في قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝١﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ [البقرة].

وإن من مواصفاتها ما ذكره الحق تبارك وتعالى بقوله: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣ ـ ١٣٥].

وإن من مواصفاتها ما ذكره الحق تبارك وتعالى في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ۝١٦ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝١٩﴾ [الذاريات].

إن تلك المواصفات يجمعها حُسن الصلة بالله تبارك وتعالى، وصِدْق التعامل مع العباد، وتحقيق ذلك في واقع الحياة يحتاج إلى مكابدة للنفس، ومجاهدة للهوى، ومعاندة للشيطان، ولعمر الله تعالى إنها لمهمة جسيمة وعقبة كؤود، لا يذلل صعابها ـ بعد عون الله جلَّ شأنه ـ إلا عزم إيماني لإصلاح النفس، وتهذيب سلوكها، وتقويم اعوجاجها.

إن الكثير من الناس لو فتَّش في نفسه بصدق وإنصاف لوجد أن الجامع لتلك الصفات مفقود لديه تماماً، فلا هو حَسَنُ الصلة بالله تبارك وتعالى، ولا هو صادق التعامل مع الناس، فهو في جانب الله جلَّ شأنه مقصِّر مضيِّع مفرِّط، يهمل الفرائض ولا يبالي بالنوافل، وقلَّما أن يخلص الإخلاص المطلوب لله تبارك وتعالى في قول أو عمل.

وهو في جانب العباد مصادر لحقوقهم، متجاوز لحرماتهم، قلبه قد ملئ حقداً عليهم وحسداً لهم، ومع ذلك كله فإنه يرجو القبول لعمله، فهو يريد أن يتحقق المشروط بدون تحقُّق شَرْطه، وهيهات هيهات أن يكون السراب كالماء، أو أن يكون الخيال كالحقيقة.

إن تلك الآية العظيمة من آيات الذكر الحكيم جعلت (التقوى) شرطاً أساسياً لقبول العمل الصالح، لأن القبول ليس سلعة رخيصة يمكن شراؤها بثمن بخس دراهم معدودة، بل هو سلعة غالية، لأنه الطريق إلى الجنة التي أغلى الله تعالى مهرها وأعلى قدرها.

وقد يقول قائل: وأين ذهب الإخلاص إذا كانت التقوى هي الشرط الأساس لقبول العمل؟.

والجواب عن هذا: أنه لا إخلاص بلا تقوى، فالتقي هو الذي تحمله تقواه على الإخلاص لمولاه تبارك وتعالى، وذلك بمراقبة قلبه دائماً وأبداً حتى لا ينحرف به المسار عن الوجهة التي أرادها وهي ابتغاء ما عند الله تبارك وتعالى من الثواب والإحسان، وأما غير المتقي فالإخلاص عنده معدوم، إذْ لا وازع لديه يعصمه من الرياء، أو الإشراك بالله تبارك وتعالى.

إنّ تلك الآية العظيمة ميزان دقيق، إذا عرض المسلم نفسه عليه علم حنيذاك مدى قربه من القبول أو بعده عنه.

فاحرص أخي المسلم على تحصيل التقوى في واقع ذاتك ودنيا وجودك حتى تكون في الدنيا من المقبولين، وفي الآخرة من الناجين يوم يقوم الناس لرب العالمين.

* * *

صفات عباد الرحمن

عباد الرحمن تبارك وتعالى هم أهل الرحمة والقربى، وأصحاب الفضل والدرجات العُلى عند ربهم جلَّ شأنه وعزَّ سلطانه، وهم أحب الخلق لديه والمصطفون إليه، ولذلك فقد أضافهم سبحانه إلى نفسه المقدسة، ليضفي عليهم ثياب الرضا والقبول، وليتوِّجهم بتاج المجد والكرامة، حين قال جلَّ جلاله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٦٣].

ولئن كان الناس يفخرون في الدنيا بعظيم نسبهم وكريم حسبهم فإنَّ فَخْر أولئك العباد إنما هو في نسبتهم إلى الرحمن الكريم المنّان ذي العزة والجبروت، والقوة والملكوت، وأعظم بتلك النسبة من مجدٍ راسخ الأركان وشامخ البنيان، شرَّف الله تبارك وتعالى به مقام أولئك العباد الذين أسلموا وجوههم إليه سبحانه اعترافاً بوحدانيته، واعتزازاً بعبوديته، وخضوعاً لشريعته، فاستحقوا بذلك كله أن يكون تشريف الله ﷻ لهم بنسبتهم إليه مناراً يهدي التائهين ويرشد الحائرين إلى سلوك سبل الهداية، والأخذ بأيديهم إلى النجاة من أسباب الغواية؛ بما اتصفوا به من عظيم الخصال، ولما اتسموا به من كريم الخلال التي ضربوا بها المثل الأعلى في البر والصدق والتقوى.

وتلك الصفات العظيمة والسِّمات الكريمة قد حواها القرآن المجيد بين دفتيه تنويهاً بفضلها وإعلاءً لقدرها، ليأخذ المسلم نفسه بها إذا طمع في تزكيتها وتهذيبها.

ومن تلك الصفات الحسان التي يزخر بها سجل عباد الرحمن تبارك وتعالى ما ذكره سبحانه في شأنهم حين قال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

فهم يسيرون في هذه الأرض بسكينة ووقار، مشية المتأدب بتعاليم

الإسلام، فلا غطرسة، ولا تكبر، ولا غرور، بل تواضع، وسماحة خلق، ولين جانب، وحُسن معاشرة، وكريم تعامل، لأنهم يعلمون علم اليقين أن الأرض بجبالها وسهولها، بأنهارها وبحارها، بأحجارها وأشجارها، بجنها وإنسها، ودوابها وهوامّها ملك لله تبارك وتعالى وحده، ومَنْ سعى بالإفساد فيها بأي لون منه فلن يفلت من قبضته سبحانه عاجلاً كان ذلك أو آجلاً، ومن هنا جاء تحذيره تبارك وتعالى صريحاً عن المشي في الأرض بالتكبر والاستعلاء حين قال سبحانه: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ [الإسراء].

وحين قال سبحانه: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ [لقمان: ١٨ ـ ١٩].

إن هذه الصفة العظيمة التي اتصف بها عباد الرحمن تبارك وتعالى، وهي «المشي على الأرض بالهون» قد افتقدها بعض المسلمين في وقتنا الحاضر، بحجة أنهم أحرار في سلوكياتهم وتصرفاتهم.

نعم إن الإسلام الحنيف لم يصادر الحرية الشخصية للإنسان، فتلك غريزة قد جُبل عليها، وإنما هذبها وقيدها بقيود هي في حد ذاتها تحرُّر ورفعة وانطلاق بالنفس البشرية إلى أرقى درجات الجمال والكمال، فهذه القيود وإنْ كانت في ظاهرها تبدو كبتاً وكبحاً إلا أنها في حقيقتها استعلاء للإرادة الإنسانية، استعلاءً يهذِّب السلوك ويقوِّم الأخلاق، ويربأ بالنفس عن التمرغ في وحل المعايب والرزايا.

إنَّ مفهوم الحرية انقلب رأساً على عقب عند المنفلتين من زمام الفضيلة، والخارجين عن دائرة المثالية الأخلاقية، فترى الواحد منهم يجوب الشوارع يمنة ويسرة بسيارة جعلها وسيلة للدمار والخراب، وآلة لترويع الآمنين من المسلمين، وتعريض أنفسهم وممتلكاتهم للخطر عن طريق السرعة الجنونية، أو التفحيط الذي يقتل به الوقت، ويتخذه ملهاة له على حساب راحة الآخرين وسلامتهم، دون وازع من ضميره أو رادع من

إيمان، قد استخف به الشيطان فأطاعه، وإذا نُصح ليكف عن هذا التصرف الأرعن والسلوك الأهوج قال بكل قلة حياء «أنا حر» نعم أنت حر، ولكن هل الحرية تقتضيك أن تتلاعب بأرواح الناس وممتلكاتهم؟ وهل أنت حر في أن تروِّع الآمنين، وتزعج الهادئين؟.

إنْ كانت الحرية تعني هذا المفهوم فإننا لا نحتكم في واقع حياتنا بشريعة السنة والكتاب، بل بشريعة الهوى والغاب.

إنَّ مثل هذا التصرف يبعد صاحبه عن أن يكون من عباد الرحمن تبارك وتعالى، وكفى بذلك خيبةً وخسراناً.

ومن الصفات العظيمة التي اتصف بها عباد الرحمن تبارك وتعالى، واستحقوا بها ثناء الله جلَّ شأنه قوله سبحانه في شأنهم: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]. فهم إذا أساء إليهم السفهاء من الناس برديء الكلام وبذيء اللسان لا يقابلون ذلك بمثله، بل بالقول السلام السالم من كل فحش المُبَرَّأ من كل عيب، لأن ألسنتهم عفيفة نظيفة، تقية نقية، قد صقلها الإيمان، وهذَّبها القرآن، فلا تنطق إلا بكل خير وفضيلة، ولا تتكلم إلا بما يخدم دينها وعقيدتها ومثلها العليا التي تدعو إليها وتطالب الناس بالتمسك بها والحفاظ عليها.

وإنما حفظ عباد الرحمٰن تبارك وتعالى ألسنتهم من كل بذاءة ودناءة لأنهم يعلمون علم اليقين ـ وهم الذين تربوا على موائد الفضل والإيمان ـ أن اللسان هو آفة الإنسان وقائده إلى الفجور والعصيان إذا أطلق له العنان من غير إحكام لكلماته وإلجام لعثراته.

إن هذه الصفة العظيمة التي اتصف بها عباد الرحمن تبارك وتعالى وهي عفة اللسان وسلامة الكلام مفقودة لدى كثير من الناس في وقتنا الحاضر، حين جعلوا اللسان وسيلة تجريح، وآلة تقبيح، فهي مطلقة في الحرام من غيبة، وسب، وكلام فاحش ينافي الخلق، ويصادم المروءة، وبذلك كانت ألسنتهم سامَّة بدلاً من أن تكون سالمة.

ومن الصفات العظيمة التي اتصف بها عباد الرحمن تبارك وتعالى قوله سبحانه في شأنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴿٦٤﴾﴾ [الفرقان].

فإذا أقبل الليل بظلامه الحالك ومضى هزيع منه قاموا من فرشهم فرحين مستبشرين بلقاء ربهم جلَّ جلاله تاركين الفرش الناعمة، والزوجات الحسان ابتغاء ما عند الله ﷻ من المثوبة والإحسان، يناجون ربهم سبحانه راجين عفوه وغفرانه بقلوب خاشعة وعيون دامعة، كما قال سبحانه: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦].

وكما قال سبحانه: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات].

إنهم كانوا يستعينون بقيام الليل على القيام بما كلفهم الله ﷻ به من أمور الدين الجسام التي نذروا أنفسهم لخدمتها والدفاع عنها والجهاد في سبيلها ضد مرضى النفوس الذين يسعون جاهدين لخلخلة صفوف المسلمين والصد عن منهج الإسلام القويم، فكانوا بذلك رهباناً بالليل فرساناً بالنهار، لم تشغلهم الدنيا عن الآخرة، كما لم تنسهم الآخرة نصيبهم من الدنيا.

وإذا كان هؤلاء المؤمنون يكابدون الليل بالقيام والانكسار بين يدي الملك العلَّام تبارك وتعالى، فإنّ كثيراً من المسلمين في وقتنا الحاضر قد ضعفت همتهم وخارت عزيمتهم عن أن يصلوا إلى هذا المستوى الرفيع في تزكية أنفسهم وتطهير قلوبهم، ويواليتهم وقفوا عند هذا الحد فحسب، بل إنهم تجاوزوا ذلك إلى التساهل في أداء ما افترضه الله تبارك وتعالى عليهم من صلوات، وبخاصة صلاة الفجر التي تجأر إلى ربها سبحانه من قلة من يؤديها في وقتها مع الجماعة، فبئست التجارة وخابت البضاعة حين يُستعاض بالنوم عن عبادة الحي القيوم.

ومن الصفات العظمية التي اتصف بها عباد الرحمن جلَّ جلاله قوله ﷻ في شأنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ [الفرقان].

فهم دائماً في ضراعة وابتهال إلى ذي العزة والجلال، يدعونه في خشوع ويتوجهون إليه بخضوع ملتمسين منه السلامة من نار الخزي والندامة التي قعرها بعيد، وحرها شديد، طعامها الزقوم، وظلها من يحموم، مَنْ دخلها عظمت حسرته وتحققت خسارته.

وهذا يدل على قوة إيمانهم، ورقَّة قلوبهم، فهم مع كثرة أعمالهم الصالحة وتجارتهم الرابحة مع ربهم تبارك وتعالى إلا أنهم على وَجَل كبير من سوء المصير، كيف لا؟ وإمام العابدين عليه الصلاة والسلام يقول فيما أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه عن الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: «قاربوا وسدِّدوا، واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل».

إن الخوف من عذاب النار هو شأن المؤمنين الصادقين في إيمانهم، ممن لم تستولِ على قلوبهم غفلة، ولم تسيطر على نفوسهم شهوة، ولم تحجب أبصارهم وبصائرهم عن الحق والهدى مغريات الدنيا وفتن الحياة.

وإذا كان هؤلاء العباد المؤمنون الصالحون الذين هم أولياء الله تبارك وتعالى وأصفياؤه تتفطر قلوبهم خوفاً من عذاب النار ذات الهلكات والدركات، فالعجب كل العجب ممن بنى في هذه الدنيا آماله وأضاع فيها أعماله، ومع ذلك يعيش آمن القلب، مطمئن النفس، وكأنه لا يرجو حساباً ولا نشوراً، وتلك غاية الغفلة ونهاية الزلَّة.

ومن الصفات العظيمة التي اتصف بها عباد الرحمن تبارك وتعالى قوله سبحانه في شأنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان].

فهم قد سلكوا مسلك الوسطية والاعتدال في إنفاق المال، فلا إسراف بحيث يوضع المال في غير موضعه اللائق به حين يُنفق في أمور لا مسوِّغ لها ولا تدعو الحاجة إليها، ولا تقتير بحيث ينشأ عنه التضييق

المعيشي على مَنْ وجبَت النفقة له، فإنّ ذلك ضرب من ضروب تضييع الحقوق يكون سبباً في التعرُّض للعقوبة والإثم، ومصداق ذلك ما أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه عن الصحابي الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمّن يملك قُوته».

وهذا المنهج الوسطي المعتدل في الإنفاق لا وجود له عند كثير من الناس في وقتنا الحاضر، فهم بين إفراط وتفريط، إما أن يكون الرجل بخيلاً ممسكاً بماله عن أولاده وعمن تجب عليه نفقتهم، فيدعهم يتكفّفون الناس ويتطلّعون إلى ما في أيديهم شعوراً منهم بالخيبة والحرمان، مما يدفعهم إلى سلوك السبل الملتوية للحصول على المال حتى يسدوا به حاجتهم، وذاك ولا شك جرم خطير في حق الأولاد، فإذا كانت امرأة دخلت النار في هرة حبستها ومنعت عنها الطعام، فكيف بمن يضيع أولاده، ويُمسك عنهم المال، ويحبس عنهم النفقة؟.

وإما أن يكون الرجل مبذراً لماله، مسرفاً في إنفاقه بلا حسيب ولا رقيب، فلا يقيم للمال وزناً، ولا يراعي له حرمة، وهذا ناتج عن جهله بأن المال أمانة في يده توجب عليه حفظه وحمايته بحيث لا يُنفق إلا في وجهه المشروع.

ومن الصفات العظيمة التي اتصف بها عباد الرحمن تبارك وتعالى قوله سبحانه في شأنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الفرقان: ٦٨].

فهم حُماة لجناب التوحيد، بصدق توجههم في العبادة إلى الله تبارك وتعالى وحده دون شريك له، وإذا حزبهم أمر من الأمور لجأوا إليه سبحانه وانكسروا بين يديه ليكشف ضرهم ويرفع بأسهم، فلا يتعلقون إلا به، ولا يرتجون أحداً سواه، بل هم متوكلون عليه ومفوضون أمورهم إليه.

ومن صفات عباد الرحمن تبارك وتعالى قوله سبحانه في شأنهم: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨].

فهم يرعون للنفس المصونة المعصومة حرمتها، فلا يتجرؤون بالاعتداء عليها بالقتل العمد، لأنهم يعلمون العقاب الشديد الذي أعده الله تبارك وتعالى لمن يُقدم على ذلك، وهو ما أخبر به سبحانه في قوله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء].

وكما لا يتجرؤون على سفك الدماء فهم كذلك لا يتجرؤون على هتك الأعراض، فهم لا يقربون الزنا، ولا يقعون في أسبابه ودواعيه، بل إنهم قد احتاطوا من ذلك بغض أبصارهم وتحصين فروجهم.

ومن صفات عباد الرحمن تبارك وتعالى التي استحقوا بها الثناء الكبير من العليم الخبير قوله سبحانه في شأنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ [الفرقان: ٧٢].

فهم لا يحضرون مجالس الإثم والعصيان إلا آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر إن استطاعوا ذلك، ويتحرزون من الإدلاء بشهادة الزور، لعلمهم الجازم أنها تبطل الحق، وتحق الباطل، وتنشر في المجتمع الفساد والظلم والانحراف وفقدان الضمير، وتؤدي إلى انعدام الثقة بين الناس، ولشدة شناعتها فقد قرنها المولى سبحانه بالشرك في قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ [الحج: ٣٠ ـ ٣١]. ولقد شدَّد النبي ﷺ في النهي عنها لخطورة جرمها وفداحة نتائجها، ففي المتفق عليه عن الصحابي الجليل أبي بكرة نُفَيْع بن الحارث رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» ثلاثاً، قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين»، وكان متكئاً فجلس، فقال: «ألا وقول الزور وشهادة الزور» فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت. أي: إشفاقاً عليه ﷺ.

وبعض الناس والعياذ بالله قد ألف هذا الجرم الكبير واعتاد عليه، فيبادر إلى الإدلاء بشهادة الزور مقابل مبلغ مالي يبيع به ضميره للشيطان، ليساهم بذلك في نشر الظلم في المجتمع المسلم الذي قام أساساً على العدل والإنصاف.

ومن صفات عباد الرحمن تبارك وتعالى قوله سبحانه في شأنهم: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

ومعنى ذلك: أنهم كما يبتعدون عن مجالس الإثم فلا يشهدونها، ولا يشاركون فيها، فكذلك إذا اتفق مرورهم بشيء من أنواع اللهو تساموا بأنفسهم عنه اجتناباً للرزايا، وترفُّعاً عن الدنايا، حرصاً منهم على تزكية جوارحهم من كل ما يشين ويعيب، وهذا هو طبع الكريم دائماً هَجْر أماكن الفجور والتعالي عن سفاسف الأمور.

وهذا خلاف ما عليه لئام الطباع، فإنهم إذا حضروا مجالس اللغو ساهموا فيها بنصيب الأسد أُنْساً بالمآثم ونَسْفاً للمكارم.

ومن صفات عباد الرحمن تبارك وتعالى قوله سبحانه في شأنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾ [الفرقان]. فهم إذا قرؤوا كتاب الله تبارك وتعالى، أو تُليت عليهم آياته وعَوا ما فيها من أوامر ونواهٍ، وإرشادات وتوجيهات، وحكم وعظات، وبادورا إلى امتثال الأوامر، واجتناب النواهي، والتأدب بالإرشادات والتوجيهات، والاتعاظ بالمواعظ والزواجر، فلا يصادرون ما يقرؤون، ولا يخالفون ما يسمعون، بل إنهم وقَّافون عند كتاب ربهم تبارك وتعالى يحلِّون حلاله، ويحرِّمون حرامه، ويهتدون بهديه، فهو المسيِّر لحياتهم وفق منهجه القويم، لا يسلكون غيره سبيلاً، ولا يرضون عنه بديلاً.

وهذه الصفة العظيمة يفتقر إليها كثير من المسلمين في وقتنا الحاضر، حيث هجروا كتاب ربهم تبارك وتعالى قراءةً وعملاً، واستعاضوا عن ذلك بسماع لهو الحديث من الأغاني والموسيقى، حتى ماتت القلوب وأظلمت البصائر، إذ لا حياة للقلوب، ولا نور للبصائر إلا بهذا القرآن العظيم، كما قال الحق تبارك وتعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

ومن الصفات العظيمة التي اتصف بها عباد الرحمن تبارك وتعالى قوله سبحانه في شأنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤].

أي: قرة أعين في الدنيا باستقامتهم على منهج الله تبارك وتعالى، وبحرصهم على ما يقربهم إلى رضوانه جلَّ وعلا، وبابتعادهم عن كل ما يكون سبباً في مقت الله سبحانه وسخطه، وقرة أعين في الآخرة حين يجتمعون معهم في دار الأمن والسلامة والكرامة، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١].

وكما قال سبحانه: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ [الرعد: ٢٣].

وإنما سأل عباد الرحمن تبارك وتعالى ربهم سبحانه أن يجعل أزواجهم وذرياتهم قرة أعين لهم في الدنيا والآخرة لأن بذلك يتحقق كمال الأنس والبهجة واللذة والسعادة.

وإنّ الزوجة إذا كانت صالحة انعكس صلاحها على زوجها انشراحاً في قلبه، وطمأنينةً في نفسه، كيف لا؟ وقد أخرج الإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه عن الصحابي الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة».

نعم إن الزوجة الصالحة درة غالية، وجوهرة ثمينة، فهي معينة لزوجها على طاعة الله تبارك وتعالى، تذكِّره إن نسي، وتقوِّيه إن كسل، وتأخذ بيده إلى كل ما يرتقي به في سُلَّم التقوى والصلاح والفضيلة والهُدى.

إنّ هذه الزوجة وهي بهذه المنزلة من التقوى والصلاح لها نصيب وافر من ميراث الإيمان الذي كانت عليه مريم بنت عمران عليها السلام التي قال الحق تبارك وتعالى في شأنها: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم].

ولها نصيب وافر من الإيمان الذي كانت عليه امرأة فرعون التي قال الحق تبارك وتعالى في شأنها: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [التحريم].

كما لها نصيب من الميراث نفسه من الطاهرات العفيفات أزواج النبي ﷺ اللاتي خيَّرهن الحق تبارك وتعالى بين الحياة الدنيا وزينتها وبين إرادة الله ﷻ ورسوله ﷺ والدار الآخرة، كما في قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الأحزاب].

فاخترن الله تعالى ورسوله ﷺ والدار الآخرة، فكنَّ بذلك جديرات بوصف الإحسان كما كنَّ مستحقات للأجر العظيم من الرحمن المنان تبارك وتعالى.

والذرية كذلك إذا كانت صالحة انعكست آثار صلاحها على الأبوين، بشارةً لا تنتهي، ولذةً لا تنقطع، ونعيماً لا ينفد، وكيف ينفد ذلك النعيم وهو عطاء مستمر إلى ما بعد الموت، كما أخرج الإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه عن الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو عِلْم يُنْتَفَعُ به، أو ولد صالح يدعو له).

ومصداق ذلك قول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ [يس: ١٢].

ولا شك أن الذرية الصالحة هي أثر من الآثار الطيبة التي يخلِّفها الإنسان من بعده.

ولكنَّ السؤال الذي يطرح نفسه هنا: متى تكون الزوجة والذرية قرة عين للإنسان في حال حياته وبعد مماته؟.

إن الزوجة والذرية لن يكونوا قرة عين للإنسان في الدنيا والآخرة إلا

بالتربية الإيمانية الصحيحة على منهج الكتاب والسنة، وعلى معتقد سلف هذه الأمة.

ومن الصفات العظيمة التي اتصف بها عباد الرحمن تبارك وتعالى قوله سبحانه في شأنهم: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

أي: قدوات صالحات في الخير والهُدى، والعفاف والتُّقى، وفي مكارم الأخلاق ومحاسن الصفات، حتى يفوزوا بأجر من اقتدى بأفعالهم وتخلَّق بأخلاقهم، وسار على منوالهم، فقد أخرج الإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه عن الصحابي الجليل أبي مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري البدري رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ دلَّ على خير فله مثل أجر فاعله».

كما أخرج رحمه الله تعالى عن الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ دعا إلى هُدًى كان له من الأجر مثل أجور مَنْ تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً».

كما أخرج رحمه الله تعالى من حديث الصحابي الجليل جرير بن عبد الله رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «مَنْ سَنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر مَنْ عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء».

هذه هي صفات عباد الرحمن التي وردت بها آيات القرآن، تدل دلالة واضحة على صدق اليقين وكمال الإيمان، مَنْ أخذ نفسه بها ابتغاء وجه الله تبارك وتعالى استحق الفوز بالجنان، كما قال الملك المنّان سبحانه: ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾ [الفرقان].

اللهم اسلك بنا سبيل عبادك المؤمنين، وأَمِّنَّا من الفزع يوم الدين، واجعلنا ممن أحللت عليهم مغفرتك ورضوانك، وممن أسبغت عليهم رحمتك وإحسانك، وخذ بنواصينا إلى البر والتقوى، وأحْسِنْ عاقبتنا في الآخرة والأولى.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

المحتوى

الموضوع	الصفحة
* المقدمة	٥
توقير الله تعالى	٧
الصدق مع الله تعالى	١٠
الخشوع في الصلاة	١٤
حديث النفس بطول البقاء في الدنيا	١٧
تأخير إعطاء الأجير أجره	٢٠
التحذير من الكذب	٢٥
ذكر مولد النبي ﷺ	٢٧
الإسلام هو النعمة الكبرى	٣٠
الهداية إلى الصراط المستقيم	٣٣
التواضع	٣٨
المسجد في الإسلام	٤١
الحياء	٤٥
التعرف على الله تعالى في الرخاء	٤٨
شروط النصر على الأعداء	٥٢
الهوى سبيل الردى	٥٦
الإسراف	٥٩
دفاع الله تعالى عن عباده المؤمنين	٦٢
الارتباط بين المسجد الحرام والمسجد الأقصا	٦٥
الاستزادة من عمل الخير	٦٨
رابطة العقيدة فوق كل رابطة	٧٢
حقوق المرأة في الإسلام	٧٥
الرفق	٨٠

الموضوع	الصفحة

- التافه ينطق في أمر العامة ٨٤
- البشارة ٨٦
- الاستغفار ٨٩
- الولاء والبراء ٩٢
- المسؤولية ٩٥
- الإحسان ١٠١
- آفة اللسان ١٠٤
- علامة تحقيق الإيمان ١٠٨
- الحكم العظيمة من مشروعية العيدين ١١٣
- الزواج في الإسلام ١١٦
- أرخص الدماء ١٢٠
- التساهل في اقتراف الذنوب ١٢٣
- الميراث ١٢٥
- الجزاء على العمل ١٢٧
- صلة الرحم ١٣١
- الاستجابة ١٣٤
- المال ١٣٨
- العزة ١٤٢
- الوصية بالتقوى ١٤٥
- وصايا لقمان ١٤٨
- أركان الإسلام ١٥٢
- أركان تزكية النفس ١٥٧
- اللباس ١٦٠
- الأمانة ١٦٣
- صلاة الفجر ١٦٧
- الأقرباء ١٧١
- حق الوالدين ١٧٤
- العلاقة الزوجية ١٧٧
- ضيق الصدر ١٨٢

الموضوع	الصفحة

- العدل ١٨٧
- نعمة البصر ١٩١
- التأسي بالرسول ﷺ ١٩٤
- زيارة القبور ١٩٧
- لا إله إلا الله ٢٠١
- صوم شعبان ٢٠٤
- الماء نعمة وثروة ٢٠٧
- الإسلام دين التكافل ٢٠٩
- شهادة الجوارح ٢١٢
- الوظيفة ٢١٥
- السعادة ٢١٨
- الحسد ٢٢٠
- إنما يتقبل الله من المتقين ٢٢٤
- صفات عباد الرحمن ٢٢٧
- * **المحتوى** ٢٨٣